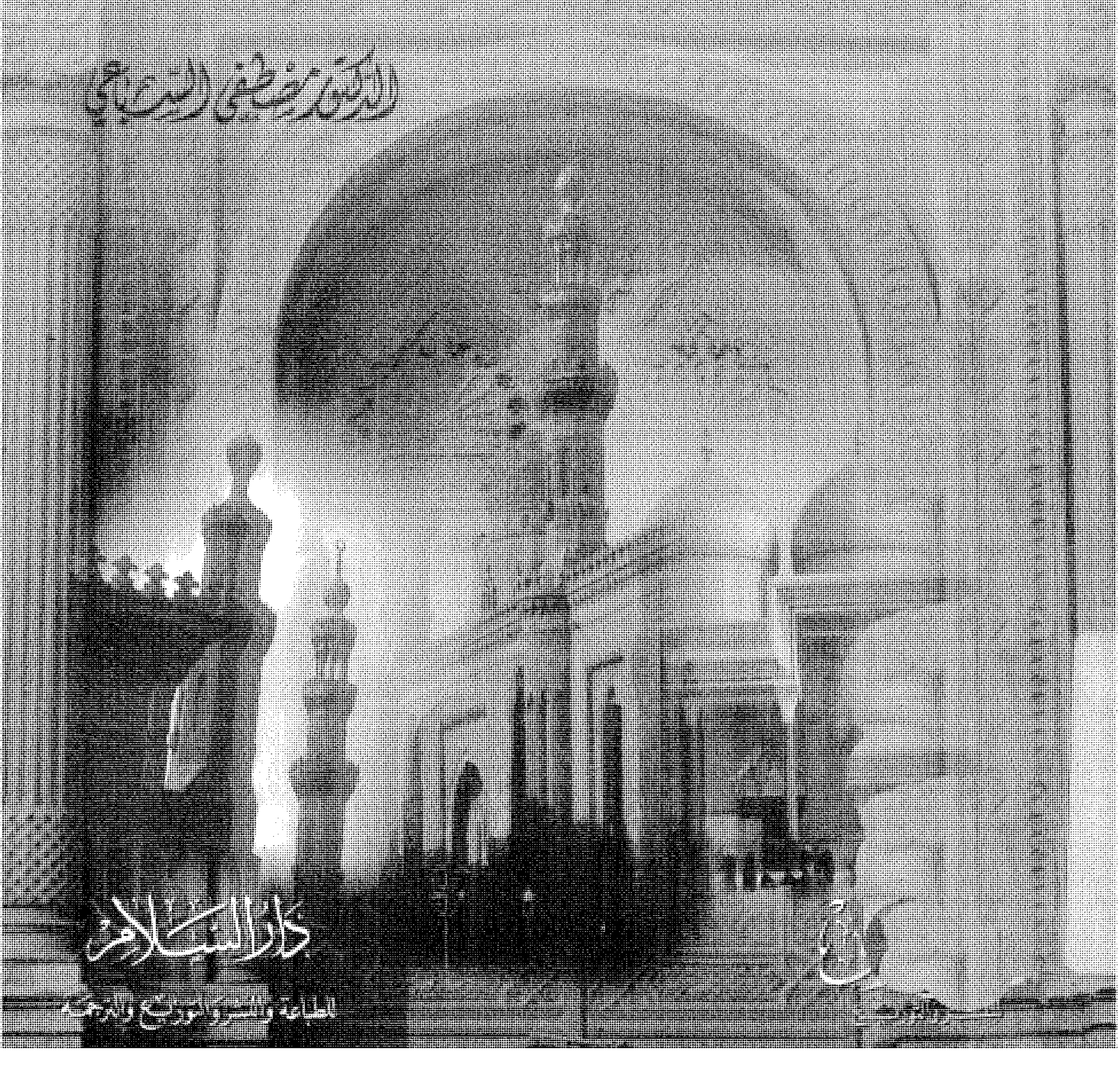
من روائع حضارتنا

الدكتور مصطفى السباعي



دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

من روائع حضارتنا

الدكتور مصطفى السباعي

دار الوراق
للنشر والتوزيع

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى لدار السلام
1998 م - 1418 هـ

طبع
بإذن خطي من ورثة المؤلف رحمه الله وبمعرفة المكتب الإسلامي
غير مخصص للبيع في بلاد الشام ودول الخليج العربي

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر 120 شارع الأزهر ص ب 161 الغورية
هاتف 5932820 - 2704280 - 2741578 (00202) فاكس 2741750 (00202)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلِّف

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على باني أنبل حضارة عرفها التاريخ سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين بنوا صرح تلك الحضارة الشامخة بدمائهم وجهودهم فكان لهم الفضل على كل من نعم بخيراتها إلى يوم الدين .

— ١ —

وبعد ، ففي هذا العصر الذي فاق كل العصور السابقة في رقيه المادي واكتشافاته العلمية ، يقف علماء الاجتماع والنفس والطب في الغرب حيارى تجاه ازدياد المصابين بالأمراض العصبية ازديادًا مزعجًا ، ويخيم على العالم كله جو من القلق والخوف يفقد فيه الناس – وخاصة في البلاد المتحضرة – لذة ما وصلت إليه الحضارة من تيسير لوسائل العيش والترف والرفاهية ، مما بدد الأحلام التي كانت قائمة في أخيلة العلماء والمفكرين في القرن التاسع عشر حول السعادة التي ستشمل الناس جميعًا نتيجة للاكتشافات العلمية الرائعة .

ومن الملاحظ أن مظاهر القلق والاضطراب تتزايد كلما أصبحت وسائل الرفاهية ميسرة للإنسان ، فنسبة الأمراض النفسية في البلاد التي يرتفع فيها مستوى المعيشة أكثر مما في غيرها من البلاد المتأخرة ، والإحصائيات الأميركية في هذا الشأن واضحة الدلالة على هذا المعنى .

وليس القلق الذي يستولي على الناس ناشئًا من ترادف الحربين العالميتين الأولى والثانية وتوقع الثالثة بعدها فحسب ، بل هو ناشئ من الأجواء النفسية التي هيأتها الحضارة الحديثة لأبنائها ، وليس ناشئًا من وجود الاستعمار فحسب ، مع أن الاستعمار يشكل أكبر بواعث القلق الذي تعانيه الشعوب المستضعفة في ظله ، ذلك أن القلق يستحوذ الآن على شعوب غير مستعمرة ، وعلى الشعوب التي تتمتع بخيرات الاستعمار وثمراته ، بل إن هذا القلق تجده في كل مكان في ظل مختلف المذاهب الاجتماعية الحديثة ، فكما نجد هذا القلق في شعوب الشرق قاطبة نجده في شعوب الغرب ونجده في شعوب الاتحاد السوفياتي .

ومما له دلالته في هذا المقام : كثرة حوادث الانتحار في الشعوب المتحضرة ،

والأغرب وقوع ذلك في بلاد تُعد من أرقى البلاد في المستوى المعاشي والحضاري كالبلاد السكندنافية ، وأغرب من ذلك أن القوم هناك ينتحرون مللًا من الحياة الرغيدة التي يحيونها !

ومن ذلك يبدو لنا أن هذا القلق والاضطراب والانحراف الخلقي الذي وصل إلى درجة جزع منها الآباء والأمهات في الغرب نفسه ، ناشئ من الحضارة الغربية الحديثة نفسها ، ومن الأسس التي قامت عليها الفلسفات التي سادت فيها .

– ٢ –

إن الحضارة الغربية نشأت – كما هو معلوم – من اتصال الغرب بالحضارة الإسلامية عن طريق المعاهد العربية في الأندلس والأقطار الإسلامية الأخرى ، وكانت الفلسفة اليونانية مما يعنى به مفكرو الإسلام وفلاسفته ، فنقل طلاب الغرب النابهون عن العرب فلسفة اليونان وكتبهم ، وأكبوا على دراستها رغم مطاردة الكنيسة لها مطاردة شديدة في أول الأمر ، ثم تفتح الذهن الغربي وأخذت تبدو له الحقائق خلاف ما كانت تنادي به الكنيسة من علوم ومعارف ، واستمر الصراع طويلًا بين الكنيسة والعلم ، حتى انتهى الأمر بانتصاره عليها بعد ما لقيه العلماء والفلاسفة من عذاب وسجن وتكفير ومطاردة ، واستوت النهضة الغربية الحديثة على قدميها وهي مطبوعة بطابعين واضحين : طابع الفلسفة اليونانية واتجاهها المادي الوثني ، وطابع العداء للدين والحقد على رجاله وسلطاته ، وبتأثير هذين العاملين كانت تصدر آراء المفكرين الغربيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وفي ظلهما نمَت جميع المذاهب الفلسفية والأخلاقية التي سيطرت على عقول الغربيين حتى الآن .

فالأساس الذي قامت عليه الحضارة الغربية أساس مادي بعيد عن روحانية الدين وتأثيره في نفوس الأفراد والجماهير ، وما زال الدين يفقد سلطانه على الغربيين شيئًا فشيئًا حتى وجد الغربيون أنفسهم في هذا المنحدر السحيق وهذا القلق الشامل العميق . ويود مفكروهم وعقلاؤهم الآن استدراك ما فاتهم من روحانية الدين ولكن أنى لهم ذاك وقد آتت الشجرة ثمارها واشتدت جذورها .

وإذا كان من مميزات الدين – أي دين سماوي كان – أن يوفر للناس قسطًا من الطمأنينة النفسية والروحية تخفف عنهم أعباء الحياة وآلامها ، وتكبح فيهم جموح

الغرائز وشهواتها كما فعل الإسلام في أوج الحضارة العربية وازدهارها واتساع رقعتها ، أدركنا أي مقدار من الشقاء جلبته الحضارة الغربية على أبنائها حين أقصت الدين – في حدود رسالته الإلهية الصافية – عن التوجيه في الحياة العامة ، وفلّت من سلاحه الفعال في بعث الأمل والعزيمة والتضحية والرحمة في نفوس الأفراد والجماهير .

– ٣ –

ونحن لسنا الآن في موقف الحكم بين الحضارة الغربية وبين الدين الذي واجهته واصطرعت معه في بدء قيامها ، وإنما يكفينا أن نشير إلى سبب إفلاس الحضارة الغربية في إسعاد الناس وبث الطمأنينة في نفوسهم ، فهي حين اضطرت إلى السير بعيدًا عن الدين الذي حاربها ظنت أنها تستطيع السير وحدها دون أن تفيء إلى ظل دين آخر يمدها دائمًا بنسمات الروح المشرقة وبسمات الضمير الحي ، ونلمح اليوم رغبة صادقة من الكنيسة في التعاون مع الدولة – في كثير من الحكومات الغربية – على تخفيف ويلات الحضارة على أبنائها ، وقد لمسنا ذلك في كل البلاد الغربية التي زرناها ، ورأينا لذلك مظاهر متعددة ووسائل مختلفة .

إن الذي يزور سويسرا في هذه الآونة يجد من المظاهر المعتادة أن تطوف فرقة من (جيش السلام) – الديني الذي أنشأته الكنيسة – بموسيقاها أهم الميادين والمنتزهات في أيام الآحاد ، وهذه الفرقة تتألف من شباب وشيوخ وفتيات وأطفال يرتلون التراتيل الكنسية مع الموسيقى فيجتمع حولها ويصغي إليها من يشاء من الحاضرين .

وفي لندن يشهد المرتاد لحديقة (هايد بارك) وخاصة في أيام الآحاد حلقات للخطابة الحرة ، ومن بين خطبائها وعاظ من الكنيسة يحاولون أن يجتذبوا إليهم أكبر عدد من الجمهور بأبلغ أساليب التأثير ، كما يشاهد في المناطق المكتظة بدور السينما رجلًا يصعد منصة حديدية يحملها زميل له ، فيعظ الناس ويشرح لهم حقائق الدين ، وقد رأيت في إحدى الليالي رجلًا يقف على باب إحدى دور السينما في منتصف الطريق يعظ الناس ويحذرهم من تلك الدور المغرية المضرة بالأخلاق ! يفعل ذلك بصوت عالٍ يلفت الأنظار وعلى مرأى ومسمع من البوليس فلا يعترضه أحد ويصغي إليه من يشاء ، ولكني لم أر من تأثر بكلامه فعدل عن دخول السينما ! .

ومن الشائع الآن في أوربا وأمريكا أن كل كنيسة لها ناد يجتمع فيه الشباب

والفتيات على الرقص والسمر وفي الرحلات والاحتفالات ، وقد زرت أحد هذه النوادي في أوربا وكان جزءًا من بناء الكنيسة ، فرأيت أنه لا يزيد عن حلقات للسمر والرقص والغناء والأكل والشراب ، فسألت مديره – وكان يشرح لي أحوال النادي وميزانيته وأعماله – : هل تقدمون نصائح أو مواعظ دينية لرواد النادي وأعضائه ؟ فأجاب بالنفي ! فسألته : وماذا تستفيد الكنيسة من الإنفاق على النادي ما دام وضعه يشبه وضع الأندية التي لا علاقة للكنيسة بها ؟ فأجاب : حسبها من الفائدة أن يمر الشباب والفتيات بفنائها في حضورهم إلى النادي فيتذكروها ! .

وفي بعض بلدان أوربا يجد النازل في الفندق بجانب سريره نسخة من الكتاب مهداة من جمعية أصدقاء الكتاب المقدس ليقرأ منه قبل نومه أو عند استيقاظه ما يتذكر به دينه وعقيدته .

وفي أكثر جامعات أوربا جمعيات باسم (الطلاب المسيحيين) لها ندوة أسبوعية يخطب فيها أحد رجال الكنيسة ويشرح حقائق الدين ومبادئه ويشترك من شاء من الطلاب في مناقشته .

وفي ألمانيا الغربية تجبي الحكومة من الشعب الألماني ضريبة خاصة باسم الكنيسة لتساعد الكنيسة في القيام بمشروعاتها الرامية إلى نشر الدين . وقد كنت في مستشفى جامعة (كولون) في ألمانيا وكان في صدر غرفتي تجاه السرير مباشرة صليب ضخم من البرونز مثبت في الحائط ، ووجدت مثل هذا في كل غرف المستشفى حتى غرف الإدارة والأطباء . فسألت عن السر في ذلك فقيل لي : إنه من مظاهر نشاط الكنيسة لتذكير الناس بالدين ، هذا مع أن المستشفى تابع للجامعة ولا علاقة له مباشرة بالكنيسة .

ولا ننسى الأفلام الدينية التي أخرجتها هوليود أخيرًا بكثرة تستلفت الأنظار .

وكثير منا قد سمع عن جمعية « التسلح الخلقي » المنتشرة في أوربا ، وكانت لها زيارات لبعض بلدان الشرق الأوسط والأقصى ومنها القاهرة ، وقد زرت مقرها في سويسرا قرب (لوزان) وهي تدعو – في الظاهر – إلى التخلق بالفضيلة والرحمة والعدالة وما أشبه هذا ! .

تلك هي بعض مظاهر النشاط الديني والخلقي الجديد في بلاد الغرب ، وهي تدل بجلاء على أن القوم بدأوا يفكرون في الاستفادة من الدين لتخفيف أضرار مدنيتهم ،

وإنا لنجزم بأن الزمام قد أفلت من أيدي رجال الدين وعلماء الأخلاق والاجتماع عندهم ، وأن القطار قد فاتهم ، وأن الكارثة تستفحل يومًا بعد يوم حتى تأتي النهاية الطبيعية لهذه الحضارة . .

وقد يكون من بواعث العودة إلى الدين في أوربا كوسيلة لرفع المستوى الروحي للجماهير ، هو جزعها من الشيوعية وخوفها من انتشارها . ولكن الدين بالشكل الذي صار إليه من الضعف ، وبما ناله من الشك نتيجة لانتشار فلسفات الحضارة الغربية نفسها ، أصبح عاجزًا عن الوقوف في وجه التيار الشيوعي في الغرب ، فلا بد من مقاومته بالتدابير الاجتماعية والاقتصادية ، فالعقلية المادية - كالعقلية الغربية - لا تفهم إلا المادة ولا ترضى إلا بها .

على أن الشيوعية نفسها ثمرة من ثمار هذه الحضارة وبنت من بناتها المنحرفات ! وهي مما زادت في أسواء الحضارة الغربية ونشرها من أخطارها .

جاءت فلسفة ماركس وإنجلز في القرن الثامن عشر ، وهما يهوديان ألمانيان ، فزادت الأمور سوءًا إذ باعدت ما بين الإنسان وبين الاستقرار النفسي والروحي بعدًا شاسعًا ، فانتزعت منه عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر ، وأفقدته الثقة بالقيم الأخلاقية التي ظلت منذ عرف تاريخ الإنسان حتى الآن المعتصم الذي تلوذ به الجماعات لضمان أمنها الجماعي ، وقامت للشيوعية الحديثة أول دولة في العالم ، واستطاعت أن تحسن معيشة أبنائها عما كانوا عليه من قبل ، ولكنها لم تستطع - ولن تستطيع بفلسفتها المادية - أن تنقذ أبناءها من كل أنواع القلق والمخاوف النفسية والاجتماعية ، وزادت على ذلك مخاوف أخرى بما فرضته على شعوبها من خوف على مصائرهم إن هم انتقدوا الحكم أو أساليبه ، وإنّ الخوف الذي يملأ جوانب أعضاء الحزب الشيوعي أنفسهم ليفوق الخوف الذي يملأ نفس المواطن الشيوعي العادي ، إن على عضو الحزب إما أن يكون متحمسًا لآراء القيادة الشيوعية العليا ، مندفعًا إلى تأييدها اندفاعًا أعمى وإما أن يلقى مصيره المحتوم .

فالفلسفة الشيوعية بإنكارها الله والديانات قضت على آخر سلاح يعتصم به الإنسان ضد الخوف والقلق والمصائب والأثرة والعدوان . والدولة الشيوعية - أينما كانت - بحكمها الاستبدادي وإرهابها الدموي ، جعلت الجماهير الواقعة تحت حكمها قطيعًا من الماشية البشرية مسلوب الإرادة محرومًا من المثل العليا التي يتطلع إليها كل مجتمع كريم .

وهكذا تكون الحضارة الغربية بفرعيها الرأسمالي والشيوعي أفقدت الإنسان اطمئنانه

واستقراره ومثله الإنسانية الرفيعة ، حين جعلت الرفاه المادي هو المثل الأعلى الذي تستحث الخطى نحوه ، فإن لم يصل إليه طالبه عاش شقيًا ، وإن وصل إليه عاش ملولًا لا ينتهي من ملله إلا بالانتحار ! ...

— ٤ —

لقد بدأ الغربيون يدركون إفلاس حضارتهم من الناحيتين الروحية والأخلاقية ، وأخذ كثير منهم يتجه نحو الشرق عله يجد في دياناته ما يسد فراغه الروحي ، ويرده إلى إنسانيته الكريمة ، فليس عجيبًا أن ترى منهم – وخاصة في أمريكا – من يعتنق البوذية ، ومنهم من يعتنق البهائية ، والذين يعتنقون منهم الإسلام فريقان : فريق يُرضي بالإسلام قلبه وعقله ، وفريق يرضي به روحه ووجدانه .

قال لي مرةً الأستاذ أبو بكر [1] المستشرق الإنجليزي المسلم الذي كان أستاذًا للّغة الإنجليزية في جامعة فؤاد (القاهرة حاليا) وقد اعتنق الإسلام وهو في القاهرة ، ويشغل الآن وظيفة أمين القسم الشرقي في المكتبة الوطنية بلندن ، قال لي وهو يشرح أسباب اعتناقه للإسلام : إن هذه الحضارة الغربية تفقد الشرف والجمال ! فقلت له : أما فقدانها للشرف فلا أنازعك فيه ! .. وأما فقدانها للجمال فكيف والناس يرونها أروع حضارة عنيت بالجمال : جمال الطبيعة ، وجمال اللباس ، وجمال المدن ، وجمال البيت ، وجمال المرأة أيضًا ؟! ... فقال : إنها فقدت جمال الروح وجمال الذوق الفطري وجمال الخلق .

وفي صيف عام ١٩٥٦ ألقيت في مسجد باريس خطبة الجمعة ، وكان مما تحدثت عنه – بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف وقتئذ – أن ذكرت رسالة الإسلام الرحيمة العادلة ، وكيف تجلت في فتوحاته وحُكمه للشعوب وعرّضت بالحرب الجزائرية وما يقع فيها من مآسٍ دامية جعلتها أكبر مجزرة في التاريخ . وبعد انتهاء الخطبة كان ممن تعرفت عليه من المصلين مصطفى فالسان وهو روماني الأصل ، كان قنصل رومانيا في باريس ثم اعتنق الإسلام وترك العمل الدبلوماسي ، وهو يتزعم الآن مجموعة من الشباب الفرنسيين الذين اعتنقوا الإسلام عن عقيدة وإخلاص فلا يشعر بهم أحد . ويجتمع بهم في بيته مرة واحدة في الأسبوع ، وهم يلبسون ثيابًا شرقية بيضاء ، وبعضهم قد أطلق

---

(١) إني أكتب هذ المقدمة وأنا بعيد عن مذكراتي وأوراقي الخاصة ومكتبتي ؛ ولذلك فاتني ذكر اسمه بالإنجليزية ، وهو معروف لدى أساتذة جامعة القاهرة .

لحيته – على صغر سنه – بذوق وجمال ، يتلون آيات الذكر الحكيم ويتدارسون الإسلام فيما بينهم ، قال لي الشيخ مصطفى فالسان هذا : لقد سمعتك تتحدث عن الرحمة في الفتوحات الإسلامية ، ولعلك تريد بذلك أن تنفي ما يفتريه الغربيون على الإسلام من قسوته في حروبه وفتوحاته ، فلا تتعب نفسك في هذا ، إن لكل أمة خُلُقًا تعرف به ، ومن أبرز أخلاق الغربيين النفاق في ادعاء الرحمة ! .

وكان بعض المسلمين العرب يتحدث إلى لفيف من هؤلاء الشباب الفرنسيين المسلمين عن عظمة الإسلام ومسايرته للتطور والتقدم ، واسترسل في هذا كأنه يتحدث في بلد عربي يتوق إلى القوة والمجد ، فأخذ يؤكد أن الإسلام يدعو إلى اتخاذ القوة وصنع الدبابات والطائرات و . و . إلخ .. فقال له أحدهم : يا أخي نحن إنما هربنا من الحضارة الغربية إلى الإسلام لأنها أتلفت أعصابنا بالحروب وأسلحتها وأفقدتنا إنسانيتنا حين أماتت أرواحنا وأحيت شهواتنا بماديتها ، فحدثنا عن روحانية الإسلام الذي وجدنا فيه كرامتنا الإنسانية واطمئناننا الروحي !

وقالت لنا فتاة سويسرية تسكن في باريس وتتخصص في تخطيط موجات الدماغ : إنني فتاة فقيرة يرسل إليّ أهلي ما لا يكفيني لسد رمقي في هذه المدينة التاجرة ، وهي مع ذلك – كما ترون – مدينة فاجرة تجعل الإنسان أشبه ما يكون بالحيوان الجائع الشره ! وقد رأيت أن أخدم إحدى العائلات لأستعين بذلك على تأمين معيشتي ، وتطلعت إلى الخدمة عند عائلة شرقية عسى أن أجد عندها الجو الروحي الذي يحفظ لي كرامتي وإنسانيتي ، واتفقت مع عائلة هندية (هندوسية) على الخدمة ساعات معينة في اليوم ، ويؤسفني أن أقول إنني لم أجد فيهم ضالتي ، لقد وجدتهم ذوي أرواح (صفراء !..) .

هذه أمثلة على بدء تطلع الغربيين إلى حياة روحية يأنسون إليها بعد أن فجّرت حضارتهم المادية في نفوسهم وحياتهم كل ينابيع الألم والحيرة والاضطراب ، وتستطيع أن تلمس هذا من حديثك مع كل غربي ذي تفكير متزن وإحساس روحي وخلقي .

– ٥ –

إن الحضارة الغربية تمثل أرقى ما وصل إليه الإنسان من حياة مادية ، وليس هذا وحده هو الذي يسعد الناس كما رأيت ، بل لا بد من حضارة جديدة تتابع هذا الرقي المادي وتستمر فيه ، وتأخذ بالناس إلى حياة روحية راقية بجانب ذلك الرقي المادي ، بحيث

تحفظ التوازن دائمًا بين الحياتين المادية والروحية ولا تسمح بطغيان إحداهما على الأخرى ، فهل يمكن أن توجد هذه الحضارة ؟ وهل هنالك أمة تستطيع القيام بهذا الدور ؟

إن العالم الغربي لا يمكن أن يقوم بالدور المرتقب ، فهو الآن في أوج حضارته وقوته المادية وافتتانه بها ، وحين ينهار فسيكون فاقدًا كل المؤهلات التي تؤهله لقيادة العالم نحو الأمن المنشود والحياة الكريمة المبتغاة .

والعالم الشيوعي لا يمكن - بالأحرى - أن يقوم بذلك لأنه أشد إغراقًا في المادية وحربًا للروح والقيم الدينية والأخلاقية ، وسيساهم مع الغربيين في ازدياد شقاء العالم واضطرابه حتى تنهار هذه الحضارة فوق رؤوس أصحابها من غربيين وشرقيين .

والعالم الشرقي ذو الديانات الوثنية الروحية لا يمكن أن يقوم بهذا الدور ؛ لأن الحضارة تقوم على العلم والتفكير الصحيح والتجرد من الخرافات والأوهام ، والوثنية في حد ذاتها نقيض ذلك كله ، ولأن الروحانية التي يحتاج إليها العالم في حضارته المرتقبة هي الروحانية الإيجابية البناءة التي تساهم في رقي الإنسان واطراد تقدمه ، والروحانية الشرقية الوثنية هي روحانية سلبية تفرّ من الحياة ، وتنهزم من أداء الواجب ، وتعتبر رقي الإنسان المادي رجسًا يجب أن يتطهر منه وتشن الحرب عليه .

ليس هنالك من يستطيع القيام بالدور الحضاري المرتقب إلا أمة واحدة هي أمتنا ، ولن يستطيع حمل اللواء لحضارة الغد غيرنا ... وذلك للأسباب التالية :

أولًا - إننا نحمل عقيدة من أرقى العقائد التي تساهم في بناء الحضارات ، فهي عقيدة توحيد من أصفى أنواع التوحيد وأكثره إشراقًا وسموًّا وكمالًا ، وهي عقيدة علم تحترم العقل وتدفعه دفعًا حثيثًا وراء المجهول ليصبح معلومًا ، وهي عقيدة خُلق إنساني معتدل كريم يتجافى عن الإفراط في الرحمة والتفريط في العدالة ، وعن الإفراط في الحب ، والتفريط في الواجب . وهي عقيدة تشريع يهدف إلى اليسر ، ويتوخى المصلحة : مصلحة الفرد ضمن مصلحة المجموع ، ومصلحة المجموع غير مفرط بمصلحة الفرد ، مصلحة الأمة ضمن الإطار الإنساني العام ، ومصلحة الإنسانية كلها من غير محو لفضائل الشعوب وخصائص الأمم وقضاء على كرامتها .

ثانيًا - إننا أصحاب روحانية إيجابية بناءة ، روحانية إلهية تلازم الجندي في حربه ، والعامل في مصنعه ، والعالم في درسه ، والفيلسوف في بحثه ، والقاضي في محكمته ،

والموظف في وظيفته ، والرئيس في رئاسته ، تلازم كل إنسان في جده وهزله ، وحركته وسكونه ، وليله ونهاره ، ويسره وعسره ، وصحته ومرضه ، لا تمنعه في حال عن حال ، بل تنقله من كمال إلى كمال ، وتذكّره بالله الذي خلقه ، والأرض التي درج عليها ، والناس الذين يعيش معهم ، والعالم الذي هو جزء منه في وحدته الكبرى وعبوديته لله رب العالمين .

ثالثًا – إننا أثبتنا في الماضي قدرتنا على إنشاء مثل الحضارة المرتقبة ، ومهما قيل عن حضارتنا من قبل الخصوم والجاحدين فإن أحدًا لا ينكر أنها كانت أكثر من الحضارة الغربية الحديثة رحمة بالناس ، وسموًّا في الخلق ، وعدالة في الحكم ، وإشراقًا في الروح ، واقترابًا من المثل الأعلى للإنسان في مختلف عصوره وأطواره . وما دمنا قد استطعنا أن نقيم تلك الحضارة الإنسانية الرائعة في عصور التخلف العلمي والفكري ، فإننا أقدرعلى أن نقيم مثل تلك الحضارة في عصور التقدم العلمي وانكشاف المجهول من الكون شيئًا بعد شيء .

إننا حين نمسك بزمام الحضارة المرتقبة لن نتخذ من الوصول إلى الفضاء دليلًا على إنكار وجود الله ، ولن نتخذ من الصواريخ عابرة القارات ذريعة إلى تهديد الأمم والشعوب لتظل تحت دائرة نفوذنا ، ولن نتخذ من الإذاعة وسيلة للتضليل ، ولا من السينما آلة للإغراء ، ولا من المرأة متعة للجسم ، ولا من التقدم الحضاري أداة لاستغلال الشعوب المتخلفة واستثمار خيراتها وإذلال كرامتها .

تلك هي الأسباب أو بعض الأسباب التي تجعلنا الأمة الوحيدة التي تستحق حمل لواء الحضارة بعد الغربيين لإنشاء حضارة جديدة تخفف من شقاء الإنسان ، وتحقق له قسطًا أكبر من الأمن والطمأنينة والحياة الإنسانية المستقرة .

وإذا رجعنا إلى أصول عقيدتنا ، وجدنا كتابنا المنزل يشير بصراحة إلى انفرادنا من بين أمم العالم بجدارة القيام بالدور الحضاري الذي تتطلبه الإنسانية في عصرنا الحاضر ، لا لامتيازنا عن غيرنا عرقيًا أو جنسيًا أو فكريًا – فتلك خرافة لم يؤمن بها الإسلام يومًا ما – بل لما ذكرناه في السببين الأول والثاني مما ننفرد به عن غيرنا .

فالآية الكريمة التي تقول لنا : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) إنما تشير بذلك إلى خصائص عقيدتنا

(١) آل عمران : ١١٠ .

وأخلاقنا التي أهلتنا لأن نكون خير أمة أخرجت للناس .

والآية الكريمة التي تقول عنا : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ (١) إنما تشير بذلك إلى خصائص حضارتنا التي جعلتها خير حضارة أخرجت للناس .

والآية الكريمة التي تخاطبنا في كل وقت : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ (٢) إنما تحمّلنا بذلك عبء حمل الرسالة ، رسالة قيادة الناس ودلالتهم إلى طريق الحق والخير دائمًا وأبدًا ، لا في عصر دون عصر ، ولا في جيل دون جيل .

وإذا كنا قد استجبنا لنداء القدر فحملنا اللواء مرة واحدة ، وقدنا الإنسانية إلى مراتع الأمن والهدى والنور ، ثم تركنا اللواء وتهربنا من أداء الرسالة ، فإن هذه الآية الكريمة لتستحث اليوم خطانا لنحمل اللواء مرة أخرى ، ونرفع المشعل من جديد ننقذ به الشعوب التي تتيه اليوم في ظلمات الخوف والقلق والشهوة والظلم واليأس المميت ، ثم لا تجد مخلصًا من ذلك إلا بالانتحار : انتحار الأفراد بالأسلحة أو السموم القاتلة ، وانتحار الشعوب بالقنابل الذرية والهيدروجينية ! .

– ٦ –

سيستخف بهذه الفكرة – فكرة قيامنا بدور حضاري جديد – فريقان من الناس :

الفريق الأول : أولئك الذين استعبدتهم الحضارة الغربية ، وسلبتهم الثقة بأمتهم من أن تقف من الغربيين موقف الند من الند ، فضلًا عن موقف القيادة . وهؤلاء قد عانت أمتنا منهم كثيرًا من المتاعب والنتائج الفكرية السيئة ، ونحمد الله على أن هؤلاء أخذوا يتقلصون شيئًا فشيئًا ، بتأثير حماقات هذه الحضارة وجرائمها على أصحابها وعلى الشعوب المستضعفة ، وبنمو الوعي الفكري والسياسي في أمتنا نموًّا يبشر بأحسن النتائج . وإذا كانت التبعية السياسية « للغرب المستعمر » قد انقضى أمرها وذهب معها ذلك الطراز القديم من قادتنا السياسيين الذين كانوا يرون ذلك ضربًا من المستحيل ، فإن التبعية الحضارية للغرب« المتحضر » سينقضي أمرها ، وسنتخلص من ذلك الطراز القديم من أدعياء قيادة الفكر الحر الذين لم يكونوا في حقيقة الواقع إلا مظهرًا ذليلًا من مظاهر

(١) الحج : ٤١ . (٢) البقرة : ١٤٣ .

الجهل والعبودية والغباوة ! .

الفريق الثاني : أولئك الذين يؤمنون بقرب انهيار الحضارة الغربية بعد أن كثرت شرورها ، ولكنهم لا يتفاءلون مثل تفاؤلنا بإمكان قيامنا بدور حضاري جديد ونحن على ما نحن عليه من بون شاسع بين واقعنا وواقع أمم الحضارة ، ويرون أن الحديث الآن عن تسلمنا لقيادة الحضارة ضرب من الخيال وجري وراء العاطفة !.

ونحن حين نتحدث عن هذا الموضوع لا نزعم أن انهيار الحضارة الغربية وانتقال مركز القيادة الحضارية إلينا سيتم في عشر سنين أو عشرين أو نصف قرن مثلًا ؛ فلقيام الحضارات وانهيارها سنن طبيعية لا تتخلف ، وإذا بدأ الخلل في قاعدة قلعة حصينة فقد يبدو للعيان أمدًا طويلًا أنها في ذروة قوتها ، وهي مع هذا آخذة في الانهيار وستصبح ركامًا .

لقد مررنا منذ بدء نهضتنا بمراحل يقفو بعضها إثر بعض إقتفاء طبيعيًا ، فقد استيقظنا على واقع مؤلم واستعمار جاثم ، فطردنا الاستعمار في بعض أقطارنا ونحن نوشك على طرده من أقطارنا الأخرى ، وبدأنا نتعلم وننظم حياتنا وفق الحياة التي تفرضها الحضارة الحديثة ، وهي الحضارة الغالبة على مقدراتنا الفاتحة لبلادنا ، ثم بدأنا نسير في طريق القوة واستغلال ثروات بلادنا والاستغناء بقدر ما نستطيع عن المنتجات الحضارية المصنوعة في الغرب ، والهدف الذي نسعى إليه الآن هو اللحاق بركب الأمم المتحضرة حتى نقاربها في القوة ومستوى المعيشة ، وفي هذه المرحلة ينبغي أن نصنع لأنفسنا مقياسًا حضاريًا نستمده من مقاييسنا الحضارية على ضوء مشكلات الحضارة الحديثة وحاجياتنا وظروفنا ، كما يجب علينا أن نحدد خطوتنا المقبلة بعد الانتهاء من هذه المرحلة ، أهي أن نظل في فلك الحضارة الحديثة ، ونجري وراء الذين سبقونا بمئات السنين يأخذنا الإعياء من كل جانب ويكون كل همنا أن نلحق بهم ونكون مثلهم ؟ أم أن نرسم لأنفسنا طريقًا آخر يقفز بنا إلى المقدمة من غير أن ينالنا نصب هذه الأمم المتحضرة وإعياؤها وآلامها وانهيارها ؟

نحن بحكم الواقع لا نستطيع أن نصل - في بضع السنوات القادمة - إلى مستوى القوة المادية التي وصل إليها الغربيون ، فليس من السهل أن تكون لنا خلال هذه المدة أقمارنا الصناعية وصواريخنا عابرة القارات ، وهبْ أنّا وصلنا إلى ذلك في بضع سنين ، فإن الغرب يكون قد سبقنا أشواطًا أخرى في هذه الميادين .

فالطريق الصحيح هو أن نستمر في استكمال قوتنا إلى غاية ما نستطيع مع وضع

مقياس حضاري جديد لنا وللإنسانية كلها ، ونحن نملك كل إمكانيات الاستقلال في تخير الطريق الصحيح للحضارة ، ومعنا الوقت الكافي لدراسة مقاتلها ومشاكلها لا لننجو منها في مرحلتنا الحاضرة ، فهذا ما لا سبيل إليه ، بل لننجو منها ونخرج عن دائرة سيرها في مرحلتنا المقبلة ، وهذا ما نجد السبيل إليه ممهدًا لو آمنا بما عندنا وبمقاييسنا التي أثبتت التجارب صحتها ، وبمن يتألف منهم ركْبنا الحضاري ، أي بشعبنا العظيم الذي لم تمت فيه جذوة الطموح ، ولم تخبُ عنده نار النضال ، ولم يستسلم للغزاة رغم شدة الضربات وتكرر الغزوات وتعدد الخيانات ! .

إننا إذا فعلنا ذلك نكون قد أوجدنا أكبر منعطف لتاريخ الإنسانية في عصرها الحديث ، وحسبنا أننا نسيطر بذلك على قارتينا الكبيرتين آسيا وأفريقيا سيطرة روحية وأخلاقية تجعلهما أسعد من باقي القارات وأكثرها أمنًا واطمئنانًا ، ويومئذ لا بد من أن يلتفت إلينا العالم الغربي المنهوك القوى التائه الطريق ، ويأخذ عنا ما يخفف من شقائه وآلامه ، يومئذ تنتقل إلينا قيادة الحضارة وتوجيه التاريخ قبل أن يقرر نهاية الإنسانية بعض « المجانين » ! .

قد أكون مع هذا لا أزال مسترسلًا وراء الخيال ، فحوادث التاريخ لا تسير سيرًا رتيبًا كما يقوم في أذهان الكاتبين ، ومن يدري ماذا سيكون غدًا ؟ فهذا العالم مليء بالمفاجآت ، وقد تقع حادثة في أقصى الأرض فتؤثر على من في الأرض في الطرف الآخر ، بيد أن هذا لا يمنع من أن نطالب بالتفكير في مستقبلنا تفكيرًا مستقلًا ، وحوادث التاريخ تصنعها يد الله بآراء المفكرين وصيحات الأنبياء والمصلحين .

– ٧ –

وبعد فموضوع هذا الكتاب هو أحاديث أذعتها من محطة إذاعة دمشق في الفترة الواقعة بين ٢٠ من المحرم ١٣٧٥ الموافق ٨ من أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥ وبين ٢٣ من ربيع الثاني ١٣٧٥ الموافق ١٥ من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٥ عرضت فيها نماذج من الجوانب الرائعة في حضارتنا ، وهي جوانب لا تزال تأخذ بألباب كل باحث منصف ولم أتقص كل مظاهر الروعة في حضارتنا ولا قصدت تحليلها علميًا ، لأنني كنت أتحدث إلى جماهير المستمعين ممن يتفاوتون في المستوى الفكري والثقافي ، وكان يهمني أن يصغي إليها أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، من صفوة شبابنا ورجال الفكر المؤمن بكرامتنا على الله وعلى التاريخ ، ولم يتسع لي الوقت لمتابعة هذه الأحاديث ، إذ كنت أستعد للسفر في رحلة علمية إلى ديار الغرب تمت عام ١٩٥٦

وقد كنت أود أن أتحدث عن روائع كثيرة ، منها تلك النماذج الإنسانية للروحانية الإيجابية في تاريخ حضارتنا ، ممن كانوا على قدر كبير من الإيمان بالله ، والاتباع للحق ، والسمو في النفس ، والإشراق في الروح ، والجمال في الخلق ، والرحمة للناس ، والعدل في الحكم ، هذا مع مساهمتهم في صميم الحضارة ووجودهم في صميم الحياة ، سواء كانوا ملوكًا أم علماء ، أم زهادًا ، أم فلاسفة ، أم قوّادًا ، أم حكامًا ، أم تجارًا ، أم عمالًا ، رجالًا ونساءً ، شيوخًا وشبابًا ، أغنياء وفقراء ، إنها نماذج للكمال الإنساني الذي لم يكن يعيش في خيال الفلاسفة والحكماء ، بل كان يعيش على ظهر الأرض مع أهل الأرض .

هذه الروحانية الإيجابية بأمثلتها الرائعة هي مما تفردت به حضارتنا عن سائر الحضارات قديمها وحديثها ، فلقد عرف التاريخ رجالًا روحانيين في الأمم المختلفة وخاصة في أمم الشرق الأقصى ، ويعيش اليوم أناس تغلب عليهم النزعة الروحية الصافية ، ولكن هؤلاء وأولئك كانوا سلبيين مع الحضارة ، مترفعين عن المساهمة فيها ، يعيشون في الأديرة ورؤوس الجبال أو في ا لمغاور والصحارى ، أما نماذجنا الروحية في تاريخ حضارتنا فقد كانوا يخوضون معركة بناء الحياة بكل ما تتطلبه المعركة من عمل وجهد وتضحية وفداء ، وهذا هو سر الروعة في هذه النماذج الروحية العجيبة في تاريخ الحضارات .

والقصد اليوم من نشر هذه الأحاديث أن نلفت الأنظار إلى هذه الروائع كدليل على استطاعتنا بناء حضارة أكمل وأسمى من هذه الحضارة ، وأن نذكر الجيل الجديد من أبناء أمتنا بواجبهم في بناء حضارة إنسانية كريمة كما بنى آباؤهم أمثالها ، وهذا أنسب الأوقات لمثل هذا التذكير ، فأمتنا تدخل الآن باب التاريخ من جديد دخولًا كريمًا فيه كل تحفز وانطلاق لبناء مستقبل أفضل وأكمل ، وفي أمتنا بقايا من سجايا الآباء والأجداد فإذا سَمعتْ حديث أمجادهم وآثارهم وحضارتهم هزّها ذلك هزًّا عنيفًا ، ودفعها إلى العمل دفعًا حثيثًا .

فلا تُسمعوه ما أقول فإنه   شجاع متى يُذكرْ له الطعنُ يشتقِ

ولسنا نقصد من عرض هذه الروائع الادعاء بأن كل ما في حضارتنا جميل ومشرق ، فليس في التاريخ حضارة ليست لها هفوات ، وإنما القصد أيضًا أن نثبت أن الجوانب الإنسانية الخالدة في حضارتنا أقوى وأجمل ، وأن نرد بذلك على افتراء الذين يزعمون لحضارتنا كل عيب ونقيصة ، ويتعمدون أن يحذفوها من قائمة الحضارات الأصلية ، وأن نحبط بذلك كيد الذين يعملون على أن يصرفوا أنظار جيلنا الحديث عن روائع

آثارنا الحضارية ، ليجذبوهم إلى حضارة تكشفت مقاتلها للناس ، وإلى تاريخ أمم إن كانت لها صفحة واحدة من الفضائل ، فإن لها آلاف الصفحات من النقائص والرذائل ، وهذا هو هدف الاستعمار الذي يسعى إليه جاهدًا ، وذلك هو صنيع أذنابه ودعاته الذين ما برحوا على تمجيد حضارته عاكفين .

وإذا كُنت قد عرضت في هذا الكتاب نماذج من روائع حضارتنا فإني لأرجو أن يتم الدارسون لتاريخ حضارتنا ما بدأته من عرض هذه الروائع ، بشكل أتم وبحث أوفى وبيان أبلغ وأنصع ، لإعطاء جيلنا الحاضر صورة حقيقية كاملة الروعة عن هذه الحضارة التي كانت تشع النور وتبعث الحياة في القرون الوسطى ، فلا حاضر لأمة تجهل ماضيها ، ولا مستقبل لأمة تنكر خصائصها وفضائلها وهي مما تتصل بالحضارة بأوفى سبب وأقوى نسب ، وإذا كان الوقوف على الماضي للبكاء عليه والنحيب هو شغل الكسالى العاطلين ، فإن تجاهله وإزدراءه مع ما يفيض به من خير واسع ونور رحيب ، هو شأن الحاقدين أو الجاهلين . ومن الخير أن نستفيد من كنوزنا في بناء نهضتنا العتيدة ، لتكون النهضة مأمونة العواقب ، غنية بما يمد لها من أسباب النجاح والبقاء ، واضحة الملامح فيما تهدف إليه من كرامة وهناء ، متصلة أمجادها بأمجاد الماضي ، لتتصل أمجاد المستقبل بأمجادها ، فيستمر الموكب ، وتنسجم الحلقة ويكتمل البناء .

والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق .

مصطفى حسني السباعي

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

هوامش بقلم الدكتور عدنان زرزور

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه ودعا بدعوته إلى يوم الدين . اللهم اجعلنا من دعاة الخير والحق وثبتنا على صراطك المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين .

وبعد ، فإن هذه الفصول القيمة التي خطها أستاذنا الداعية المجاهد مصطفى السباعي ، والتمس مادتها من روائع حضارتنا - وأنعم بهذه العزة وهذا الانتماء - ليست بحاجة إلى أن يتقدم بين يديها وقد تم نشرها في حياة أستاذنا الشيخ (رحمه الله) ، وتولى هو بنفسه التقديم لها والتعريف بها ، وبظروف كتابتها وإذاعتها بين الناس ...

ولكن القارئ الذي عاش مع هذه الفصول يوم نشرت أول مرة منذ سبعة عشر عامًا أو تزيد - ويومها تلقى بعض التلاميذ من الشيخ نسخًا منها وهم على أبواب التخرج من الجامعة ، تشجيعًا وحثًّا على العمل ودعاء بالتثبيت على الطريق - يعود إلى قراءتها الآن ... فيجد أن في وسعه - وقد يكون من واجبه - أن يسجل على هوامشها بعض الخواطر والأفكار .

— ١ —

قد تستغني فصول هذا الكتاب القيم عن تلك الهوامش والخواطر ، إلا من أمثلة جديدة وشواهد أخرى ، وهذه لا تضيف إلى الكتاب شيئًا جوهريًا ذا بال ، إلا أن مقدمة الكتاب وفصليه الأول والثاني قد تتسع لشيء من البيان والتفصيل ، وقد خصها أستاذنا (رحمه الله) بحديث مكثف عن إفلاس الحضارة الغربية ، وعن إيمانه وتبشيره بقيام المسلمين بالدور الحضاري المرتقب ... كما أجمل فيها الخطوط العامة لخصائص الحضارة الإسلامية ، والمعالم الأساسية لآثار هذه الحضارة في التاريخ ... كما تبدى له كل ذلك من خلال قراءاته الواسعة ، ومن خلال حسه « الحضاري » المرهف ، ونفاذ ذهنه الثاقب ونظره البعيد ... هذا النفاذ الذي لم يفارقه (رحمه الله) في جميع مراحل حياته ، وفي جميع أحوالها وملابساتها ، وإن اختلفت صور التعبير عنه ، في الخطبة

والمقالة والمناقشة والمحاضرة والكتاب ... وليس كتابه (رحمه الله) عن عظمائنا في التاريخ إلا الصورة الأخرى لحديثه عن روائع حضارتنا والتعبير المقابل عن وجه الحضارة الإسلامية المشرق ... هذا إلى جانب إشارته الدائمة – التي سمعناها منه أكثر من مرة – إلى ضرورة الكتابة في هذه الأبواب ، ووعده هو (رحمه الله) بالمتابعة في هذا الطريق .

– ٢ –

يقول الأستاذ السباعي في مقدمته لهذا الكتاب : « ليس هنالك من يستطيع القيام بالدور الحضاري المرتقب إلا أمة واحدة هي أمتنا ، ولن يستطيع حمل اللواء لحضارة الغد غيرنا » ، ثم علل ذلك بحملنا لأرقى العقائد ، عقيدة التوحيد الذي لا تشوبه شائبة ، وهي عقيدة تحترم العقل ، كما أنها عقيدة خلق إنساني معتدل ، وعقيدة تشريع يهدف إلى اليسر ، ويتوخى المصلحة على أدق ما يكون التوازن بين الفرد والمجتمع ، وبين الأمة والإنسانية .

وعلل ذلك – ثانيًا – بأننا أصحاب روحانية إيجابية بناءة .. وبأننا أثبتنا في الماضي قدرتنا على إنشاء مثل تلك الحضارة المرتقبة .

ونستطيع من خلال هذه الأسباب أن نقدر – في الطرف المقابل – أسباب إفلاس الحضارة الغربية حين سقطت في مستنقع النفعية والوثنية وفقدت نظريتها الصحيحة عن الكون ، ووزعت الإنسان بانشطار عجيب ، بين الدنيا والآخرة ، والعقل والقلب ، والدين والعلم ، حتى وقع الفكر الأوروبي في أزمة المادية عن طريق إعلاء العلم وتقديس العقل ، وأنكر من ثم جوانب أخرى من الحياة والنفس غير المادة والعقل ، فعمت ظاهرة التشاؤم وجدانه وفكره ، وطبعته بطابع الملل والتمزق والتمرد والضياع ... مما أشار أستاذنا (رحمه الله) إلى طرف منه . وقد يتسع المجال هنا لتأكيده بالظواهر التي شاعت في هذه السنوات الأخرى ، ولكننا نكتفي بالإشارة إلى سقوط السهم الأخير من الشجاعة التي يحتاج إليها المنتحر ... فقد بدأ الفرد الأوربي مرحلة الهروب من طريق آخر هو طريق الموبقات ، والخمور ، والمخدرات ، والتدهور الأخلاقي .. والمجتمع الذي يَفْقِدُ قاعدته الاجتماعية المتينة – شبابه – بالملاهي ، أو بالمخدرات ... أو بالمقابر لا شك أن رصيد حضارته من الإفلاس .. قد زاد عن القدر الذي أشار اليه أستاذنا (رحمه الله) عندما تحدث عن ظاهرة الانتحار في بلد كالسويد على سبيل المثال . ولا نود هنا الحديث عن هذا الجانب ، لكننا نود أن نؤكد على صحة نظر الشيخ (رحمه الله) في دور العقيدة الدينية والروحانية الإيجابية – في مقابل الروحانية السلبية التي لا تزال تعم أرجاء من العالم الثالث – في صنع الحضارات ، وأننا نحن

المؤهلون لذلك في عالم اليوم . كما يؤكد أصحاب الحضارة الأوربية أنفسهم ، وبحسبنا هنا هذه الكلمات القوية المعبرة من العالم الطبيب الجراح الفيلسوف ألبرت أشفيتسر : يقول : « والأمر الذي أود أن يتداوله الناس هو أمر العلاقة بين الحضارة وبين نظريتنا في الكون ، وهي علاقة لا يعيرها أحد التفاتًا في الوقت الحاضر ، فإن العصر الذي نعيش فيه يعوزه إدراك أهمية الظفر بنظرية في الكون ، فإن الاعتقاد العام في هذه الأيام .. هو أن الإنسانية ستتقدم على نحو مرض تمامًا دون حاجة إلى أية نظرية في الكون على الإطلاق » .

« والواقع أن كل تقدم إنساني يتوقف على التقدم في نظريته في الكون ، وعلى العكس نجد أن كل انحلال سببه انحلال مماثل في نظريته عن الكون ، وافتقارنا إلى حضارة حقيقية مرجعه إلى افتقارنا إلى نظرية في الكون » .

« وحينما يتهيأ لنا الوصول إلى نظرية قوية ثمينة في الكون ، نجد فيها اعتقادًا قويًّا ثمينًا ، هنالك فقط يكون في وسعنا إيجاد حضارة جديدة ! »

ثم يقول : « إن الحضارة بكل بساطة ، معناها بذل المجهود – بوصفنا كائنات إنسانية – من أجل تكميل النوع الإنساني وتحقيق التقدم ، من أي نوع كان ، في أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعي . وهذا الموقف العقلي يتضمن استعدادًا مزدوجًا : فيجب أولًا أن نكون متأهبين للعمل إيجابيًّا في العالم والحياة ، ويجب ثانيًا أن نكون أخلاقيين . ولن نستطيع القيام بمثل هذا العمل إلا إذا كنا قادرين على أن نهب العالم والحياة معنى حقيقيًّا » .

ثم يتحدث عن فقدانهم كل نظرية في الكون ! ويتساءل بعد ذلك : « كيف وقعنا في هذه الحالة من الافتقار إلى نظرية في الكون ؟ » ويجيب : « السبب هو أن نظرية الكون الأخلاقية المؤكد للحياة والعالم لم يكن لها أساس ثابت مقنع في الفكر ، ولطالما حسبنا أننا وجدنا مثل هذا الأساس !! لكنها فقدت قوتها دون أن نكون على علم بذلك ، حتى اضطررنا أخيرًا منذ أكثر من جيل إلى الإذعان إلى نقص كامل وافتقار إلى أية نظرية في الكون على الإطلاق !! » .

ويقول أخيرًا : « إن مستقبل الحضارة ليتوقف على تغلبنا على فقدان المعنى واليأس اللذين يميزان أفكار الناس ومعتقداتهم في هذه الأيام ، وعلى بلوغ حالة من الأمل النضير والعزم الفتي . ولن يكون في وسعنا ذلك إلا إذا اكتشف غالبية الناس لأنفسهم موقفًا أخلاقيًّا عميقًا راسخًا يؤكد الدنيا والحياة ، عن طريق نظرية في الكون مقنعة وقائمة على الفكر معًا وبغير مثل هذه التجربة الروحية لا سبيل إلى المباعدة بين عالمنا وبين الانهيار الذي يغذ في السير إليه » .

عن أي عقيدة كان يتحدث الطبيب الفيلسوف ، وبأي نظرية عن الكون كان

« يبشر؟ » كان الرجل يصف هذه النظرية ويحدد شروطها ، وبحسبنا تأكده وتأكيده على الانهيار المقبل بدون عقيدة من هذا القبيل ... ولنا بعد ذلك أن نشير إلى عقيدتنا الإسلامية ، وللقارىء أن يتملى أوصافها في مقدمة هذا الكتاب ، موجزة في كلمات ، ويقرأ معها سائر الأسباب التي تهيِّئ المسلمين - حقًّا - لهذا الدور المأمول .

- ٣ -

في الفصل الاول - وتتمة لهذه النقطة السابقة - يقول الأستاذ السباعي (رحمه الله) : « لعل حجة المستخفين من قومنا بقيمة حضارتنا أنها ليست شيئًا إذا قيست بروائع هذه الحضارة الحديثة واختراعاتها وفتوحاتها في آفاق العلم الحديث ... » ثم يقول : « إن هذا لو صح فإنه لا يسوّغ هذا الاستخفاف لسببين ذكرهما ، وهذان السببان في غاية الدقة والوضوح ، وقد ميز في أولهما بين عنصري الحضارة : الروحي الأخلاقي ، والمادي .. ولم يشك بعد هذا التمييز في أن كل حضارة متأخرة تفوق ما سبقها .. في حين أن العنصر الأخلاقي والروحي الذي تخلد به الحضارات وتؤدي رسالتها في إسعاد الإنسانية ... هذا العنصر لم يسبق الحضارة الإسلامية فيه ولم يلحقها أي حضارة من حضارات التاريخ .

والهامش الذي يمكن كتابته هنا حول السبق المادي الذي سجلته الحضارة الأوربية بالقياس إلى الحضارة الإسلامية ، هو أن عمل الإنسان الأوربي اليوم هو محصلة قوى العصور السابقة جميعًا ، كما يقول بعض العلماء العرب الكبار ، وأن التقدم العلمي - فيما وراء المنهج والظروف الملائمة - بناء تشيده الأجيال ، وتزيد فيه في كل يوم الحسن والجديد ، والجيل الذي يعود في كل مرة ليبدأ من الصفر ، أو ما هو في حكمه ، لا يقوى على البناء والتطوير ... إن الفرق بين أول آلة طباعة صنعها الإنسان وآخر آلة تراها الآن في المطابع أبعد بكثير بين الكتابة باليد وآلة الطباعة الأولى !

وهذا هو ما قدمته عقول عشرة أجيال وأدمغتهم ، ولو فكر إنسان عادي في أن صنع هذه الآلة الهائلة التي يراها اليوم قد تم هكذا مرة واحدة لأعياه التفكير .. ولوقف أمامها بين التصديق والتكذيب .

ثم إن أحدًا لا يجهل الدور الذي لعبته الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط ، ومدى الإفادة التي حققها الأوربيون منها ، كما أشار الى ذلك أستاذنا (رحمه الله) في الفصل الثاني - والذي سنقف عنده في نهاية المطاف - ولكن السؤال الذي يطرح هنا أو هناك : هو أن عصر سيادة الحضارة الإسلامية استمر أكثر من عصر الحضارة الأوربية منذ النهضة إلى العصر الحديث ، فإذا كان المنهج التجريبي على سبيل المثال من ابتكار

الحضارة الإسلامية ، وأن أوربا إنما ورثته عن هذه الحضارة فلماذا لم نلمس آثاره في العالم الإسلامي على النحو الذي نراه في المجتمعات الأوربية الصناعية التي وطئ أبناؤها – أو أبناء العالم الجديد – أرض القمر ، وامتدت ذراعهم إلى أرض المريخ ؟! وأين من حضارة المسلمين الغاز والبخار والذرة والصاروخ ؟!

الجواب هنا لا يكمن في المنهج ، ولا في « زهد » المسلمين بالكشوف والاختراعات وتيسير سبل الحياة المادية والمعاشية للإنسان ... ولا في شيء يتصل بطبيعة الإسلام بوصفه عقيدة وشريعة ومنهج حياة ... ولكن الجواب عن هذا السؤال ، قد يكمن في أن العالم الإسلامي لم تتح له الظروف – الداخلية والخارجية – أن يطور علومه ومعارفه على النحو الذي أتيح لأبناء الحضارة الأوربية ، فقد نهض المسلمون منذ أيامهم الأولى ، باندفاعة لم يشهد لها التاريخ مثيلًا من قبل ، بمهمة تحرير البشرية من الجاهلية أو الجاهليات التي كانت تتحكم في رقاب الناس ، حتى إنه لم ينقض على وفاة النبي ﷺ قرن واحد حتى كانت جحافل المسلمين تقف دون السهوب الفرنسية الواسعة (توفي النبي ﷺ سنة ٦٣٢ م وكانت وقعة بلاط الشهداء – معركة بواتيه – سنة ٧٣٢ م) .

ثم كان على العالم الإسلامي أن يخوض حروبًا مدمرة لا يخلص من واحدة حتى يستعد للأخرى ... حتى أصبح همه الأول المحافظة على كيانه ووجوده !! قبل تطوير علومه ومعارفه . وإذا كان من غير اللازم في الحروب والنكبات أن تصل إلى قلم الكاتب أو مخبر العالم .. فإن الحروب التي خاضها العالم الإسلامي لم تكن من ذلك النوع الذي عرفته أوربا في عصر نهضتها العلمية ؛ لأنها لم تقاتل المغول أو التتار ... الذين كانوا يقيسون النصر بما يحدثونه من تخريب ، وما يرتكبون من فظائع ، وما يحرقون من كتب . ويدمرون من معاهد العلم والعرفان ! انتهى القرن الرابع الهجري وقد بلغ التقدم العلمي أوجه في العالم الإسلامي – على نحو ما فصل في ذلك القول الأستاذ آدم متز في مؤلفه الجامع « عصر النهضة في الإسلام » (١) – ليواجه العالم الإسلامي في القرن الذي يليه الحروب الصليبية المدمرة التي

(١) قام بترجمته وتحقيق نصوصه العالم الفاضل الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ، وجعله تحت عنوان : « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » .

وانظر الفصل الذي ختم به أستاذنا الدكتور يوسف العش (رحمه الله) محاضراته في « عصر الخلافة العباسية » والتي التقطناها عنه في كلية الشريعة عام ١٩٥٨ – ثم طبعت بعد وفاته (رحمه الله) . بعنوان : « الحضارة المادية في عصر الخلافة العباسية » . وانظر بخاصة نقوله عن كتاب « تاج المفرق » مخطوط رقم ١٠٨ جغرافيا ، المكتبة الظاهرية بدمشق – وعن المنتظم لابن الجوزي ١٠/١٠٩ – ١٤٨ وعن تاريخ بغداد للخطيب ١/١٠٠ وغيرها . وقد ختم هذا الفصل بقوله : « ويظهر منها أن أجدادنا لم يفتهم إلا وسائل المدنية المخترعة حديثًا من بخار وكهرباء وذرة » .

اسنمرت قرنين من الزمان – والتي أفادت منها أوربا كما سنعرض لذلك ، وكما أشار اليه أستاذنا السباعي (رحمه الله) والتي خرج منها المسلمون ظافرين في نهاية المطاف .. ولكن هذا الظفر أورثهم نوعًا من فرط الثقة بالنفس عاد عليهم بالضرر الشديد في الوقت الذي بدأت فيه حركة الحياة تدب في أوصال العالم الأوربي !!

ثم كان سقوط بغداد على يد هولاكو في منتصف القرن السابع الهجري ...

وبقية العجب في حروب التتار والمغول أن العالم الإسلامي تلقى ضربات هؤلاء وحمى أوربا – في الوقت ذاته! – من أن تصل إليها هذه الغزوات إلا أشلاء مبعثرة دفنت تحت أنقاض الحضارة الإسلامية التي اجتاحها هؤلاء بوحشية لم يشهد لها التاريخ مثيلًا ... ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ .

هذا ، والأسباب الاخرى – الاقتصادية والجغرافية وحركة الكشوف وما تبعها من تغيير الموازين – كثيرة . ولا مجال هنا للإفاضة في هذه الأسباب ، وبحسبنا هذه الإشارات القليلة ، مع التأكيد – العابر – على الأسباب الدينية في حركة الكشوف الجغرافية تلك ... والتي تدل على الدور الذي لعبته الظروف الخارجية – من وجه آخر – في إذكاء حضارة الغرب هذه الحضارة التي دارت عجلتها – كما هو مشاهد ومعلوم – على الاستعمار كمبرر لم يعرفه العالم الإسلامي من قبل ... ويقول آرنست باركر أستاذ علم السياسة بجامعة كمبردج ، في الفصل الهام الذي كتبه عن الحروب الصليبية – وما تبعها في نهاية المطاف من تغيير الموازين : « وهكذا نرى أن ذلك المشروع الذي كان يرمي إلى تحويل المغول إلى المسيحية دفعة واحدة فيوحد آسيا المسيحية وأوربا المسيحية حتى يطبقا على الإسلام فلا يصبح إلا عقيدة كليلة الانتشار لا وجود لها إلا في جزء من أسبانيا وركن من بحر الروم ، قد تضاءل واختفى! وفي سنة ١٣١٦ اعتنق الإسلام خانات المغول في فارس ، وفي منتصف القرن الرابع عشر عم الإسلام وسط آسيا ، وبين سنتي ١٣٦٨ و ١٣٧٠ أقفلت أسرة منج الوطنية الصينية أبواب الصين في وجه الأجانب فكانت الخاتمة أن قطع السبيل على المسيحية ومهد الطريق للإسلام الذي بلغ شأوًا بعيدًا ، وترامت أطرافه بفضل الأتراك العثمانيين . ولكن بارقًا آخر لمع في خيال الغرب .. وكان هذا الأمل الجديد قمينا بأن يشعل ثورة من أعنف ثورات التاريخ . ذلك أن الطريق الأرضي وقد قفل فلماذا لا تسلك المسيحية سبيل البحر؟ لماذا لا تبحر إلى الشرق فتهاجم الإسلام وتستولي على القسطنطينية من الخلف ؟! »

يقول باركر : « تلك كانت فكرة كبار الملاحين الذين كانوا يحملون الصليب فوق صدورهم ، والذين كانوا يعتقدون مخلصين أنهم بعملهم هذا يجاهدون لاستعادة الأراضي المقدسة » .

ثم يقول : « وإذا كان قد قدر لـ « كولمب » أن يجد الجزائر الكاريبية في طريقه بدلًا من « كاثاي » فإننا نستطيع أن نقول بحق : إن الأسبان الذين عاونوه قد كسبوا قارة جديدة للمسيحية ، وإن الغرب استطاع أن يعيد رجحان الميزان لصالحه بسبيل لم تخطر له على بال .. » وكذلك كان! .

– ٤ –

وأيًا ما كان الأمر في موضوع السبق المادي ، فإن العنصر الروحي الأخلاقي في الحضارة هو الأهم أو هو العنصر الحقيقي إذا ما قيس بالعنصر المادي ، والشأو الذي بلغته الحضارة الإسلامية في هذا المجال ، والدور الذي يمكن أن تؤديه مرة أخرى في عالم اليوم لم يعد بحاجة إلى المزيد من الكتابة والبيان ، وفي فصول هذا الكتاب القيم – وبخاصة تلك التي تحدثت عن النزعة الإنسانية والمساواة العنصرية والرفق بالحيوان وأخلاقنا الحربية – دلالة وغناء .

ولكن القارئ قد يظن في تأكيد أستاذنا (رحمه الله) على العنصر الروحي الأخلاقي نوعا من التعويض أو القناعة بما تملكه العقيدة الإسلامية أو يمكن أن نقدر نحن – مع هذا التقدم المادي – عليه !

وهذا الظن – من عجب – آخر ما يخطر ببال أبناء الحضارة الأوربية الذين بدؤوا يقرؤون – بحسهم الحضاري – بوادر السقوط في هذه الحضارة ! وأول ما يخطر ببال أبناء المسلمين الذين ما يزالون مفتونين – بحسهم المعطل وما لديهم من قابلية للاستعمار – بالمنجزات المادية لتلك الحضارة .

وفي هذا المجال وإضافة لما اشار إليه أستاذنا السباعي (رحمه الله) وتأكيدًا له – أحب مرة أخرى أن أسجل الكلمات المعبرة الدقيقة التي كتبها أشفيتسر حول تقديم العنصر الروحي ، لا بوصفه من أبناء الحضارة الأوربية فحسب ، بل لبحثه في هذا الموضوع من خلال المقدمات والمقاييس التي هي في متناول الجميع !

يبدأ « اشفيتسر » فيقول : إننا نستطيع أن نعرف الحضارة – بصورة عامة – بأنها

« التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء » .

ثم يتساءل بعد ذلك عن مقوماتها ؟ ويجيب عن ذلك بأن أول مقوماتها : أنها تقلل الأعباء المفروضة على الأفراد والجماهير ... هذه الأعباء الناشئة عن الكفاح في الوجود .

يقول أشفيتسر : « وإيجاد الظروف المواتية للجميع في الحياة قدر الإمكان مطلب يطلب لنفسه من ناحية ، ومن ناحية أخرى يطلب من أجل كمال الأفراد روحيًا وأخلاقيًا ، وهو الغاية القصوى من الحضارة » .

ثم يقول : « والكفاح في الوجود مزدوج . فيجب أن يؤكد الإنسان نفسه في الطبيعة وضد الطبيعة ، وكذلك بين إخوانه في الإنسانية وضدهم » وتخفيف الكفاح يتحقق بتقوية سيادة العقل على الطبيعة الخارجية والطبيعة الإنسانية ، وجعله يخدم الأهداف المطلوبة بكل دقة ممكنة » .

« ولهذا فإن الحضارة مزدوجة الطبيعة : فهي تحقق نفسها في سيادة العقل أولًا على قوى الطبيعة ، وثانيًا : على نوازع الإنسان » .

هذا التحليل للازدواج في طبيعة الحضارة دقيق وواضح ، ولكن السؤال الهام – موضوع البحث – أي هذين النوعين من أنواع التقدم هو التقدم الحقيقي في الحضارة ؟ يجيب أشفيتسر بأنه النوع الثاني ، وإن كان أقلهما ظهورًا عند الملاحظة » ويعلل ذلك بأن سيادة العقل على الطبيعة الخارجية لا تمثل تقدمًا خالصًا ، بل تقدمًا تقترن فيه المزايا بالمساوئ التي يمكن أن تعمل في اتجاه البربرية ! .. فلابد أن تكون ثمت سيادة للعقل على نوازع الناس حيث لا يستخدم بعضهم ضد بعض القوة التي أعطتهم إياها السيطرة على هذه القوى « لأن ذلك يلقي بهم في كفاح للوجود أشد ترويعًا من ذلك القائم بين الناس الذين يعيشون على الفطرة والطبيعة البدائية » فدعوى التحضر إذن لا تصدق إلا بالاعتراف بهذا التمييز بين ما هو جوهري للحضارة وما ليس كذلك .

على أنه يمكن عد كلا نوعي التقدم هذين عملًا روحيًا ، بمعنى أن كلا منهما يقوم على نشاط روحي في الإنسان ، لكننا نستطيع أن نعد السيادة على القوى الطبيعية تقدمًا ماديًا ؛ لأننا فيه نسيطر على الأمور المادية ونستغلها لصالح الإنسان . أما سيادة العقل على النوازع الإنسانية فهي عمل روحي بمعنى آخر ، أي بمعنى عمل الروح في الروح ، أي عمل قسم من قوة التفكير في قسم آخر منها .

وأخيرًا : ما هو المقصود بسيادة العقل على النوازع الإنسانية ؟ ... هذه السيادة التي تمثل التقدم الحقيقي في الحضارة ، أو التي تمثل الحضارة الحقيقية ؟ يقول أشفيتسر : « المقصود هو أن الأفراد والجماهير على السواء يجعلون إرادتهم موجهة للخير المادي والروحي للكل وللأفراد الذين يتألف منهم الكل ، أعني أن تكون أفعالهم أخلاقية ، فالتقدم الأخلاقي إذن هو جوهر الحضارة حقًّا ، وليس له غير معنى واحد ، أما التقدم المادي فهو أقل جوهرية ، ويمكن أن يكون له أثر طيب أو سيئ في تطور الحضارة » .

– ٥ –

نقف أخيرًا عند الفصل الثاني : آثار حضارتنا في التاريخ .

يقوم هذا الفصل على إجمال الآثار الخالدة لحضارتنا في خمسة ميادين رئيسية هي : العقيدة والدين ، والفلسفة والعلوم ، واللغة والأدب ، والتشريع ، وأخيرًا ميدان مفهوم الدولة وعلاقة الشعب بالحكومة . وقد تكون أهمية هذه الميادين بحسب هذا الترتيب الذي اختاره أستاذنا (رحمه الله) ، وبخاصة إذا لاحظنا أن الطابع الغالب على هذا الفصل هو بيان أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا أو في النهضة الأوربية . ويعود السبب في هذا الطابع إلى أن التاريخ اللاحق لعصر ازدهار الحضارة الإسلامية إنما هو التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر ! .

وقد قامت حول بيان هذا الأثر – بطريق الشواهد والأرقام – دراسات كثيرة ، ووضعت فيه المصنفات الخاصة ، ولا يزال الموضوع قابلًا للمزيد من هذه الدراسات ، ولكن يبدو أن الأولى من أية إضافة ندونها هنا على هامش هذا الفصل : أن نضع بين يدي القارىء المقدمة الضرورية لمثل هذه الدراسات والمقارنات – بغض النظر عن الساحة التي تغطيها ، والميادين التي تعرض لها – والتي تتضمن بيان الجسور ونقاط الاتصال بين الحضارة الإسلامية والمجتمعات الأوربية في العصر الوسيط ، والذي نقدره ، ونحن نتوفر الآن على بعض هذه الدراسات ، أن بيان هذه الجسور بشيء من العناية والتركيز أمر تفرضه طبيعة « المنهج » من ناحية ، وطبيعة « الواقع التاريخي » من جهة أخرى :

١ – وأقدم هذه الجسور و « نقاط الاتصال » أو نقاط التأثر والنقل والاقتباس : الحروب الصليبية التي استمرت على طول قرنين من الزمان منذ سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧م) حتى سقوط آخر معقل للصليبيين في أيدي المماليك (سنة ١٢٩١) . فقد

أسس الصليبيون ممالك ودويلات على طول المنطقة الساحلية من بلاد الشام ، وفي الداخل أيضًا ، منها : أرمينية ، والرها ، وأنطاكية ، وطرابلس ، والقدس . وعلى الرغم من أن الصليبيين كانوا أولًا وقبل كل شيء : محاربين بل محاربين همجًا متحللين كما وصفهم المؤرخ البريطاني الكبير إدوارد جيبون ،فإن هذا لم يمنعهم من التأثر بالحضارة العربية الإسلامية ، وبخاصة في نواحي الفنون العسكرية والعمارة والزراعة والصناعة والحياة الاجتماعية .. دفعهم إلى ذلك - أو أوقعهم فيه - ما رأوه في العالم الإسلامي من رقي وتقدم في مختلف ميادين الحضارة .. وهو أمر لم يكن يتوقعه قادتهم ودهماؤهم .. كما أن المسلمين لم يتوقعوا أن يجدوهم بمثل ما وجدوهم عليه ، وبخاصة في ميدان الأخلاق وميدان المعارف الطبية (حيث تظهر في الحروب بشكل سافر) - وفي كتاب الأمير الشامي الفارس أسامة بن منقذ (الاعتبار) الشواهد الكثيرة لما نقول - ولهذا فقد كثر تقليد الصليبيين للمسلمين - لا العكس كما حدث في حروب الاستعمار الحديث نظرًا لاختلاف الصورة - حتى كانت بعض طبقات الصليبيين تفرض على نسائها وبناتها - إذا بلغن الحلم - أن يضربن الخمار على وجوههن ، ويأبون عليهن أن يخرجن إلى الأسواق سافرات ، بل إنهم ما كانوا يسمحون لهن بالخروج إلا للضرورة القصوى ، كالذهاب إلى الكنائس والحمامات . كما أطلق بعض الرجال - الصليبيين - اللحى تشبهًا بالشرقيين ، وكانوا يستعملون النعال التي يستعملها المسلمون في بيوتهم ...

وبالجملة فإن الصليبيين نقلوا بعض العادات والتقاليد الشرقية ، وكان اتصالهم بالمسلمين - كما يقول بعض الباحثين - مدعاة لإضعاف سلطة الكنيسة وخلق نواة جديدة للوحدة الأوربية ، كما أصاب نظام الإقطاع في الصميم . ولا يعنينا هنا سوى الإشارة إلى مبدأ اتصال الأوربيين بالمسلمين ، وفي ديارهم ، وأن هذا الاتصال دام نحوًا من قرنين من الزمان .

- ٦ -

٢ - الجسر الثاني : صقلية وجنوبي إيطاليا : جاز المسلمون من إفريقية (بنو الأغلب من تونس) إلى جزيرة صقلية - التي كانت خاضعة في ذلك الوقت للدولة البيزنطية - سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) واستولوا على باليرمو سنة ٨٣١ م ، وعلى مسينا سنة ٨٤٢ م . وأخيرًا استولوا على الجزيرة كلها باستسلام سرقسطة سنة ٨٧٨ م . وبقوا مقيمين في

الجزيرة على الرغم من بعض الغارات الخارجية عليهم حتى مزقتهم الخلافات القبلية وتمكن النورمان بقيادة « روجار بن تانكريد » بعد أن عبر مضيق مسينا سنة ١٠٦٠ م من الاستيلاء على بالرمو سنة ١٠٧٢ في نهاية حروب طويلة . ثم تمكن من إنهاء حكم المسلمين للجزيرة كلها عندما استولى على نوتو سنة ١٠٩٢ (٤٨٤ هـ) . وقد توفي روجار الأول هذا سنة ١١٠١ م .

وقد ازدهرت الحضارة الإسلامية في هذه الجزيرة ، على النحو الذي سنشير إليه في الأندلس ، وبلغ فيها التبادل الثقافي بين المسلمين والأوربيين غايته أثناء الحكم الإسلامي وبعد زواله كذلك .. وارتقى هذا التبادل - الذي قد يبدو غريبًا لدى البعض - إلى قمته في عهد فردريك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠) الذي أولع بالعلوم الإسلامية وعرف لها قدرها . والرسائل الصقلية المتبادلة بينه وبين ابن سبعين خير شاهد على ذلك ، بل ينقل عنه كذلك أنه كان يعرف العربية ويخاطب بها ضيوفه ، ويقال إنه كان أعجوبة زمانه علما وحكمة وسياسة ، وكانت الصلات وثيقة بين شمال إفريقية وصقلية وسالرنو .

ولعله أيضًا قد حصل على كتب ابن رشد جميعها ولما يمض على موته ربع قرن ، كما دعا إليه كبار المترجمين -.وفي مقدمتهم ميشيل اسكوت (١٢٣٥) - ونظم أعمال الترجمة ، وقد حرص الإمبراطور على أن يوزع ترجماته على الجامعات الأوربية ، رغبة في نشر العلم ، وبدافع من منافسة البابا فيما يبدو كذلك .

والواقع أن موقف فردريك هذا كان استمرارًا لموقف الملك روجار الثاني من قبله الذي لم يكتف من وجود المسلمين في صقلية بعد فتحها بأكثر من نصف قرن بالإفادة من علمهم وحضارتهم فحسب (١) ، حتى كان هو المستقدم للشريف الإدريسي صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق من العدوة إليه ليضع له شيئًا في شكل صورة العالم ، فلما وصل إليه أكرم نزله . وبالغ في تعظيمه ... ثم سأله المقام عنده حتى يضع لهم ذلك الكتاب بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب فأجابه إلى ذلك ، وكان يجيء

---

(١) يقول العالم الإيطالي ألدوميلي : « ولكن إذا كان سلطان المسلمين في صقلية قد اتسم بالتسامح إلى حد بعيد ، كما هي العادة ، فإن سلطان الملوك النورمنديين لم يكنْ أقل من ذلك ، على عكس ما جرت به عادة المسيحيين . ولقد كان هؤلاء الملوك ، الذين احتفظ قسم كبير من الأهلين في ظلهم بعقيدة الإسلام ، حماة عظامًا للعلوم ، ولا سيما روجار الثاني » . ثم يقول : « وقد استمرت هذه الحالة المواتية إلى أقصى حد لنمو حضارة لامعة تحت حكم الملك العظيم والإمبراطور فريدريك الثاني هو هنشتوفن .. » . العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي . ص ١٤٤ .

إلى روجار راكبًا بغلة ، فإذا صار عنده تنحى له عن مجلسه فيأبى ، فيجلسان معًا ... وبعد التقصي والاستيعاب تكامل للشريف ما يريد فجعله مصنفًا هو كتاب نزهة المشتاق نفسه ، وتم ذلك في سنة ٥٤٨ هـ ، ويعلق المستشرق - أو المستعرب - الروسي إعناطيوس كراتشوفسكي على هذا العمل في كتابه : تاريخ الأدب الجغرافي العربي بقوله : « روجر وقد عاش على الحد الفاصل بين الحضارتين العالميتين لذلك العصر - أي الإسلامية والأوربية ، وتسمية ما كان عليه الأوربيون في ذلك العصر بالحضارة (١) موضع نظر !! - كان على معرفة جيدة بالاثنتين . وتكليفه عالمًا عربيًا بالذات وضع وصف للعالم المعروف آنذاك ، لدليل ساطع على تفوق الحضارة العربية في ذلك العهد ، وعلى اعتراف الجميع بهذا التفوق . وقد كان بلاط النورمان بصقلية نصف شرقي ، هذا إذا لم يكن أكثر من النصف » ويقول الأستاذ كويلر يونغ في صقلية : « وكانت صقلية ميدانًا للتلاقي الحر بين لغات اليونان واللاتين وعرب البربر ومعارفهم ، « وكانت النتيجة نشوء ثقافة مختلطة كان لها - بفضل تشجيع روجر الثاني وفردريك الثاني نصيب كبير في نقل أحسن ما في المدنية الإسلامية إلى أوربا عن طريق إيطاليا ، فقد صارت بالرمو في القرن الثالث عشر مثل طليطلة في القرن الثاني عشر مركزًا عظيمًا للترجمة ونقل الكتب العربية إلى اللاتينية » .

٣ - وكان المعبر الثالث والأهم ، قبل الحروب الصليبية وقبل بالرمو : الأندلس ، أو أسبانيا الإسلامية .

وإذا بحثنا في التأثير الحضاري والثقافي الهائل للأندلس - على أوربا المسيحية - فإننا نلاحظ الأمور الهامة التالية :

أ - أن هذا التأثير لم يكن خاضعًا في يوم من الأيام للموقف العسكري أو السياسي ، بل الحق ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن الأندلس الإسلامية كان لها - حتى في عصور ضعفها واضمحلالها - نفوذ هائل على أسبانيا المسيحية ، ولم يمنع تغير ميزان القوى لصالح الممالك النصرانية في أسبانيا والبرتغال استمرارها في الاستفادة من ثقافة المسلمين الأندلسيين ، والاضطلاع بدور حمل عناصرها ونقلها الى مختلف بلاد أوربا .

بل إن تغير ذلك الميزان - فيما نلاحظ - كان يتيح الفرصة لإفادة أكبر وتأثر أعظم ،

(١) تكرر هذا المعنى في كتاب كراتشوفسكي الموسوعي في أكثر من موضع .

ولهذا كانت مدينة طليطلة – دون نزاع – أكبر مركز انتقلت منه الثقافة الإسلامية و« العلم العربي » – بحسب تعبير ألدوميلي – إلى الغرب ؛ لأنها كانت أول مدينة أندلسية سقطت في أيدي ألفونس السادس – ملك قشتالة – وكان ذلك كما أشرنا في عام ٤٧٧ هـ (١٠٨٥ م) ولم تفقد هذه المدينة صبغتها العربية – الإسلامية – في هذا السقوط ؛ لأن حركة الإحياء العلمية بدأت في بلاط ألفونس السادس نفسه ، واستمرت في عهد ألفونس السابع . وكان بلاط هؤلاء الملوك مركزًا ثقافيًا يجتمع في جنباته علماء المسلمين والمسيحيين واليهود ، وكانت جهود هؤلاء العلماء منصبة على الترجمة من اللغة العربية – لغة الثقافة والعلم والحضارة الإسلامية – إلى اللغة القشتالية أولا ثم إلى اللغة اللاتينية قبل أن تصبح القشتالية لغة علمية تصلح لما تتسع له اللغة اللاتينية التي لم تختف – في الواقع – في طليطلة وغيرها حتى قبل سقوطها في أيدي النصارى ، وعلى الرغم من استعمال اللغة العربية في « الأعمال الرسمية أو على ألسنة العلماء » كما يقول الدوميلي .

ويمكن القول إن طليطلة كانت أكبر مركز للترجمة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، وخاصة في أواخر هذا القرن حين ولي العرش الأسباني ألفونسو العاشر ، الذي لقب بالعالم أو الحكيم (١٢٨٤) والذي أراد للغة القشتالية (الأسبانية) أن تصبح لغة عالمية فأحلها محل اللاتينية ونظم أعمال الترجمة ، وعني فيها بوضع المراجعين والمحققين على رأس كل جماعة كانت تنهض بهذا العمل . بل إن الترجمة اجتذبت إليها بعض العلماء الأوربيين الآخرين مثل جيزار الكريوني الإيطالي الذي قصد طليطلة وعني خاصة بالمؤلفات العلمية ، فترجم في الطب والفلك والكيمياء والرياضة ، وكان إلى جانبه جندسالينوس الذي عني بالناحية الفلسفية ، وبتلخيص بعض الكتب العربية أيضًا في هذا المجال . ويجب ألا يغيب عن البال أن الترجمة التي تمت في طليطلة في القرن الثاني عشر كانت تتم على مقربة من ابن رشد . وفي الوقت الذي كان يضع فيه شروحه ومؤلفاته في إشبيلية وقرطبة . نضيف إلى ذلك أن المدرسة التي أسست في طليطلة لتعليم العربية والعبرية تخرج منها ريمون مارثان الدومنكاني (ق ١٣) الذي كان على اتصال بتوماس الأكويني ...

ولا شك أن بقاء طليطلة على هذا الوضع طيلة ثلاثة قرون – قبل خروج المسلمين من غرناطة آخر معاقلهم في شبه الجزيرة – كان له الأثر الحاسم في نقل العلوم والمعارف الإسلامية إلى الأسبان أولًا وإلى سائر الأوربيين ثانيًا ؛ لأن طليطلة في هذا الوقت أيضًا

كان يؤمها الدارسون والطلاب من سائر الأصقاع الأوربية ، إلى أمريكا كذلك ، حيث تمكن الأسبان من اكتشاف هذه القارة في عام ١٤٩٢ ، وهو العام الذي خرج فيه المسلمون من غرناطة !! وليس هذا عندنا من عجيب الموافقات التاريخية كما يقول بعض الباحثين . بل إنه من دقيق الصراعات الدينية والحضارية ؛ لأن الملكين الكاثوليكيين - فرناند وأزبيلا ملكي أراغون وقشتالة - اللذين سقطت آخر المعاقل الإسلامية على يديهما ، وقد زهاهما الانتصار التاريخي الكبير ! كانا هما الوحيدين اللذين تقدما لمساعدة كريستوف كولومبس حين تقاعس عنه سائر ملوك أوربا في ذلك الحين ، فانطلقا في حركة التفاف لتطويق العالم الإسلامي ، في مغامرة رهيبة - ولبسط الكلام في هذا موضع آخر - يدل على هذا أيضًا - وهو أمر لا نستطيع بدونه أن نفسر تلك الحركة الهائلة في الترجمة - أن ريمون رول استطاع بعد تلك الحركة بقليل - عام ١٣١٦ - أن يقرر مبدأ تخصيص كرسي للغات الأجنبية في الجامعة الأوربية ، وريمون رول هذا كان أول من نادى من الأوربيين - بعد فشل الحروب الصليبية - بوجوب استبدال الحملة الصليبية ببعثة تبشيرية !!

لن نعدد هنا المراكز الإسلامية الأخرى التي كانت تقتطع - في الحروب التي دعاها الأسبان بحروب الاسترداد - من الأقاليم الإسلامية الأوربية ، والتي بقيت مراكز إشعاع وتنوير في أوربا - استولت مملكة أراجون مثلًا ، على سرقسطة سنة ١١١٨ م - ولكننا نكتفي بالإشارة إلى أن عدم تدمير الحضارة الإسلامية في البلاد المستردة لم يكن ضروريًا لفوائد الثقافة والعلم فحسب ، بل إن العناية بهذه الحضارة وفهمها أمر ضروري كذلك في الصراع الطويل والمرير بينهم وبين المسلمين في سائر البلاد الأخرى في الجزيرة الخضراء .

ب - ثم إن هذا التأثير الحضاري والثقافي لم ينته بسقوط آخر المعاقل الإسلامية في شبه الجزيرة ، بل استمر بعد ذلك أكثر من قرن من الزمان بسبب الجماعات الكبيرة من المسلمين التي بقيت في البلاد على الرغم من قوانين الاضطهاد والملاحقة والتحريق .. التي اتخذتها الكنيسة الكاثوليكية بحقهم ، ويعود السبب في ذلك - عند بعض الباحثين - إلى أن الشعب المسلم كان هو الذي يضطلع بالشطر الأعظم من النشاط الحيوي في أسبانيا ، من زراعة وصناعة وتجارة ، مما دعا كثيرًا من النبلاء والإقطاعيين النصارى إلى الاجتهاد في الحفاظ على رعاياهم المسلمين ، وإلغاء القوانين المتوالية التي كانت تصدر بطردهم من أسبانيا . أو إلى تأجيلها على الأقل !! خصوصًا بعد أن تم

القضاء على طبقة الحكام وعلماء الدين المسلمين ...

والواقع أن هؤلاء المسلمين الذين عرفوا في التاريخ بالموريسيكيين أو المسلمين المدجنين !! نجوا من القتل ومن محاكم التفتيش ؛ لأنهم أظهروا التنصر رضوخًا للأمر الواقع ، وإن كان هذا الإظهار - إلاّمن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان - والرضوخ لم يعصمهم أو ينجيهم من أقسى أنواع الأذى والاضطهاد حتى قيل إن أمة من الأمم أو شعبًا من الشعوب لم يمتحن بمثل ما امتحن به الموريسك !!

وقد تمثل هؤلاء على كل حال اللغة والثقافة الأسبانية وكانوا على ولائهم الحقيقي لدينهم وتقاليدهم الإسلامية . وقد ساهموا - وربما على المستوى الشعبي هذه المرة - في نقل كثير من ثمرات تراثهم إلى الفكر الأسباني .. الأوربي . ولقد كان الكشف عن أدب الموريسيكيين - الذين كتبوا بالأسبانية وإن كانوا قد استخدموا الحروف العربية - من أهم الأحداث في تاريخ الأدب الأسباني في القرن التاسع عشر .. فقد وجد فيه كما يقول بعض الباحثين العرب : « حلقة جديدة من حلقات الاتصال الوثيقة بين الفكر العربي من ناحية ، والأسباني والأوربي من ناحية أخرى . ويزيد من أهميته وخطره أنه يمثل آخر حلقات هذا الاتصال في فترة بدأت الحضارة الأوربية فيها تأخذ سبيلها إلى الاكتمال والنضوج » .

ونحن لا نرى في هؤلاء الموريسيكيين لونًا من ألوان المصابرة والجهاد فحسب ، بل لونًا من ألوان الأمل والثقة بانتصار حضارة الإسلام وثقافته على هؤلاء الأسبان المتعصبين ، ولهذا - وحتى لو لم تثبت الوثائق مدى تأثيرهم في الثقافة الأسبانية - فإننا نفترض أن تأثيرهم الثقافي كان عظيمًا ، إن لم نفترض أنه كان على بعض المستويات أقوى من ذي قبل ؛ لأنهم كانوا يعطون - أو حاولوا أن يعطوا - في هذه المرة ، وبعد تجربة غاية في العنف والمرارة ، المثل الأقرب إلى الثقافة والحضارة والفكر الإسلامي ، ولهذا فإن وضعهم هذا - فيما يبدو - لم يخف على الكنيسة الكاثوليكية ، التي لم تصدقهم في تنصرهم الظاهر ، فأصدرت السلطات قرارات طردهم النهائي بين سنتي ١٦٠٥ و ١٦١٤ ، فخرج منهم في هذا العام الأخير أو في سنة ١٦١٢ - نحو من ستمائة ألف ذهب أكثرهم إلى المغرب وانبثوا في الريف وعمروا تطوان والرباط وسلا وجانبًا من فاس . وذهب كثيرون فسكنوا تلمسان والجزائر وتونس ، ووصل آخرون إلى المشرق (مصر والشام) .

وقد كان لتدخل السلطان العثماني في ذلك الحين - السلطان أحمد - الدور في

إنقاذ هؤلاء المسلمين ، وإنقاذ غيرهم أيضًا في وقت سابق [(١)] .

جـ – ولهذا وذاك فإن من الواضح أن التأثير الحضاري والثقافي للإسلام على البلاد الأوربية قد استمر نحوًا من تسعة قرون ، وهذا التأثير وإن كان قد خضع لقانون المد والجزر ، أو اختلفت درجته تبعًا لبعض الظروف السياسية والعسكرية ، فإنه بقي حيًّا طيلة هذه القرون .. وبعضها – لا جميعها – كاف في إثبات ما ذهب إليه أو أجمع عليه الباحثون ومؤرخو الاجتماع المسلمون والأوربيون على حد سواء .

يضاف إلى ذلك أن التأثير الأعظم والأهم حدث في الأندلس – طليطلة وسائر المدن الأندلسية – يليه في الأهمية تأثير بالرمو وصقلية ، وأخيرًا تأثير الحروب الصليبية . وقد كتب العالم الإيطالي ألدوميلي عن حركة النقل العلمي في شبه جزيرة الأندلس فقال : « أما في شبه جزيرة الأندلس فقد كانت حركة نقل العلم العربي إلى العالم المسيحي أعمق تغلغلًا وأشد قوة ، ودامت مدة أطول عهدا من كل مكان آخر ، كما تحقق هناك التطور الذي كان لابد أن يعتمد عليه تجديد العلم الأوربي » [(٢)] .

ويوازن كثير من الباحثين الأوربيين بين أثر هذه الجسور أو المعابر الثلاثة . ويذهب معظمهم إلى ما ذهب إليه ألدوميلي وإن كان هانس بروتس مؤلف كتاب التاريخ الثقافي للحملات الصليبية يعزو نمو أوربا فيما بين ١١٠٠ و ١٣٠٠ م إلى الحملات الصليبية وحدها ، وهو النمو الذي مهد لقيام عصر النهضة ، وعصر الاكتشافات الجغرافية ، وعصر الإصلاح الديني . في حين أنه يجب اعتبار هذه الحروب كما يرى آرنست باركر أستاذ العلوم السياسية السابق بجامعة كامبردج ، وصاحب الفصل الهام عن الحروب الصليبية واحدًامن عناصر عدة شاركت في هذا النمو . وإذا كان هذا الرأي أقرب إلى الصواب ، فلا ندري إلى أي مدى يمكننا أن نعتبر معه الحروب الصليبية مجرد حافز أو منبه والتأكيد من وراء ذلك على اللقاء الأقوى والأكثر نفاذًا .. والذي تم في الأندلس وصقلية وجنوبي إيطاليا .

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب الأمير شكيب أرسلان (رحمه الله) : تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر المتوسط ص ٢٤ . ولتقاعس العثمانيين – أصلًا – عن إنقاذ غرناطة أسباب وتفسيرات نرجو أن نعود للكلام عليها في مناسبة أخرى إن شاء الله .

(٢) العلم عند العرب ، ص ٤٥٣ – وانظر فيه أيضًا الكلام عن أثر قطلوني إلى جانب طليطلة ص ٤٥٦ وكذلك أثر الملك دينيس الذي حكم البرتغال ١٢٧٩ – ١٣٢٥ والذي قارنه ألدوميلي بألفونس الحكيم والذي ذكر أنه أنشأ جامعة لشبونة سنة ١٢٩٠ وأمر بالترجمة إلى البرتغالية ص ٤٦٩ .

مِنْ
روائع حضارتنا

- ١ -

خصائص حضارتنا

يعرِّف الحضارة بعض الكاتبين في تاريخها بأنها : « نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي » وتتألف الحضارة من العناصر الأربعة الرئيسية : الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ، ومتابعة العلوم والفنون . ولاطراد الحضارة وتقدمها عوامل متعددة من جغرافية واقتصادية ونفسية كالدين واللغة والتربية ، ولانهيارها عوامل هي عكس تلك العوامل التي تؤدي إلى قيامها وتطورها ، ومن أهمها : الانحلال الخلقي والفكري ، واضطراب القوانين والأنظمة ، وشيوع الظلم والفقر ، وانتشار التشاؤم أو اللامبالاة ، وفقدان الموجهين الأكفاء والزعماء المخلصين ... وقصة الحضارة تبدأ منذ عُرف الإنسان ، وهي حلقة متصلة تسلِّمها الأمة المتحضرة إلى من بعدها ، ولا تختص بأرض ولا عرق ، وإنما تنشأ من العوامل السابقة التي ذكرناها . وتكاد لا تخلو أمة من تسجيل بعض الصفحات في تاريخ الحضارة ، غير أن ما تمتاز به حضارة عن حضارة إنما هو قوة الأسس التي تقوم عليها ، والتأثير الكبير الذي يكون لها ، والخير العميم الذي يصيب الإنسانية من قيامها ، وكلما كانت الحضارة عالمية في رسالتها ، إنسانية في نزعتها ، خلقية في اتجاهاتها ، واقعية في مبادئها ، كانت أخلد في التاريخ ، وأبقى على الزمن ، وأجدر بالتكريم .

وحضارتنا حلقة من سلسلة الحضارات الإنسانية ، سبقتها حضارات ، وستتبعها حضارات . وقد كان لقيام حضارتنا عوامل ، ولانهيارها أسباب ، ليست هي مما تعنيه هذه السلسلة من أحاديثنا ، وإنما نريد قبل أن نبدأ الحديث عن روائع هذه الحضارة ، أن نتحدث عن دورها الخطير في تاريخ التقدم الإنساني ، ومدى ما قدمته في ميدان العقيدة والعلم والخلق والحكم والفن والادب من أياد خالدة على الإنسانية في مختلف شعوبها وأقطارها .

إن أبرز ما يلفت نظر الدارس لحضارتنا أنها تميزت بالخصائص التالية :

١ - أنها قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة ، فهي أول حضارة تنادي بالإله الواحد الذي لا شريك له في حكمه وملكه ، هو وحده الذي يُعبد ، وهو وحده الذي يُقصد ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وهو الذي يعز ويذل ويعطي ويمنح ، وما من شيء في السموات والأرض إلا وهو تحت قدرته وفي متناول قبضته .

هذا السمو في فهم الوحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسان وتحرير

الجماهير من طغيان الملوك والأشراف والأقوياء ورجال الدين ، وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين ، وتوجيه الأنظار إلى الله وحده وهو خالق الخلق ورب العالمين .. كما كان لهذه العقيدة أثر كبير في الحضارة الإسلامية تكاد تتميز به عن كل الحضارات السابقة واللاحقة ، وهي خلوها من كل مظاهر الوثنية وآدابها وفلسفتها في العقيدة والحكم والفن والشعر والأدب ، وهذا هو سر إعراض الحضارة الإسلامية عن ترجمة الإلياذة وروائع الأدب اليوناني الوثني ، وهو سر تقصير الحضارة الإسلامية في فنون النحت والتصوير مع تبريزها في فنون النقش والحفر وزخرفة البناء . إن الإسلام الذي أعلن الحرب العوان على الوثنية ومظاهرها لم يسمح لحضارته أن تقوم فيها مظاهر الوثنية وبقاياها المستمرة من أقدم عصور التاريخ ، كتماثيل العظماء والصالحين والأنبياء والفاتحين . وقد كانت التماثيل من أبرز مظاهر الحضارات القديمة والحضارة الحديثة ؛ لأن واحدة منها لم تذهب في عقيدة الوحدانية إلى المدى الذي وصلت إليه الحضارة الإسلامية .

وهذه الوحدة في العقيدة تطبع كل الأسس والنظم التي جاءت بها حضارتنا ، فهنالك الوحدة في الرسالة ، والوحدة في التشريع ، والوحدة في الأهداف العامة ، والوحدة في الكيان الإنساني العام ، والوحدة في وسائل المعيشة وطراز التفكير ، حتى إن الباحثين في الفنون الإسلامية قد لحظوا وحدة الأسلوب والذوق في أنواعها المختلفة ، فقطعة من العاج الأندلسي ، وأخرى من النسيج المصري ، وثالثة من الخزف الشامي ، ورابعة من المعادن الإيرانية ، تبدو رغم تنوع أشكالها وزخرفتها ذات أسلوب واحد وطابع واحد .

٢ – وثاني خصائص حضارتنا : أنها إنسانية النزعة والهدف ، عالمية الأفق والرسالة فالقرآن الذي أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه ومنابته ومواطنه ، في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) . إن القرآن حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحق والخير والكرامة جعل حضارته عقدًا تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية ، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة من أبناء جنس واحد وأمة واحدة ، إلا الحضارة الإسلامية فإنها تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب ، فأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والخليل وسيبويه والكندي والغزالي والفارابي وابن رشد

---

(١) الحجرات : ١٣ .

وأمثالهم ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم ، ليسوا إلا عباقرة قدمت فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتاج الفكر الإنساني السليم .

٣ - وثالث خصائص حضارتنا : أنها جعلت للمبادئ الأخلاقية المحل الأول في كل نظمها ومختلف ميادين نشاطها ، وهي لم تتخل عن هذه المبادئ قط ، ولم تجعلها وسيلة لمنفعة دولة أو جماعة أو أفراد .. ففي الحكم ، وفي العلم ، وفي التشريع ، وفي الحرب ، وفي السلم ، وفي الاقتصاد ، وفي الأسرة .. روعيت المبادئ الأخلاقية تشريعًا وتطبيقًا ، وبلغت في ذلك شأوًا ساميًا بعيدًا لم تبلغه حضارة في القديم و الحديث ، ولقد تركت الحضارة الإسلامية في ذلك آثارًا تستحق الإعجاب وتجعلها وحدها من بين الحضارات التي كفلت سعادة الإنسانية سعادة خالصة لا يشوبها شقاء ..

٤ - ورابع هذه الخصائص : أنها تؤمن بالعلم في أصدق أصوله ، وترتكز على العقيدة في أصفى مبادئها ، فهي خاطبت العقل والقلب معًا ، وأثارت العاطفة والفكر في وقت واحد . وهي ميزة لم تشاركها فيها حضارة في التاريخ . وسر العجب في هذه الخاصة من خصائص حضارتنا أنها استطاعت أن تنشئ نظامًا للدولة قائمًا على مبادئ الحق والعدالة ، مرتكزًا إلى الدين والعقيدة دون أن يقيم الدين عائقًا ما دون رقي الدولة واطراد الحضارة ، بل كان الدين من أكبر عوامل الرقي فيها ، فمن بين جدران المساجد في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة انطلقت أشعة العلم إلى أنحاء الدنيا قاطبة . إن الحضارة الإسلامية هي الوحيدة التي لم يُفصل فيها الدين عن الدولة مع نجاتها من كل مآسي المزج بينهما كما عرفته أوربا في القرون الوسطى . لقد كان رئيس الدولة خليفة وأميرًا للمؤمنين ، لكن الحكم عنده للحق ، والتشريع للمختصين فيه ، ولكل فئة من العلماء اختصاصهم والجميع يتساوون أمام القانون ، والتفاضل بالتقوى والخدمة العامة للناس « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » (١) « الخَلق كلهم عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله » (٢) هذا هو الدين الذي قامت عليه حضارتنا ، ليس فيه امتياز لرئيس ولا لرجل دين ولا لشريف ولا لغني .. ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (٣) .

٥ - وآخر ما نذكره من خصائص حضارتنا : هذا التسامح الديني العجيب الذي لم تعرفه حضارة مثلها قامت على الدين . إن الذي لا يؤمن بدين ولا بإله ، لا يبدو عجيبًا إذا نظر إلى الأديان كلها على حد سواء ، وإذا عامل أتباعها بالقسطاس المستقيم ، ولكن صاحب الدين الذي يؤمن بأن دينه حق وأن عقيدته أقوم العقائد وأصحها ، ثم يتاح له أن

(١) رواه البخاري ومسلم . (٢) رواه البزار . (٣) سورة الكهف ١١٠ .

يحمل السيف ، ويفتح المدن ، ويستولي على الحكم ، ويجلس على منصة القضاء ، ثم لا يحمله إيمانه بدينه ،و اعتزازه بعقيدته ، على أن يجور في الحكم ، أو ينحرف عن سنن العدالة ، أو يحمل الناس على اتباع دينه .. إنّ رجلًا مثل هذا لعجيب أن يكون في التاريخ ، فكيف إذا وجد في التاريخ حضارة قامت على الدين وشادت قواعدها على مبادئه ثم هي من أشد ما عَرف التاريخ تسامحًا وعدالة ورحمة وإنسانية ! .. هذا ما صنعته حضارتنا وسنجد له عشرات الأمثلة فيما نذكره في أحاديثنا المقبلة . وحسبنا ان نعرف أن حضارتنا تنفرد في التاريخ بأن الذي أقامها دين واحد ولكنها كانت للأديان جميعًا .

هذه هي بعض خصائص حضارتنا وميزاتها في تاريخ الحضارات ، ولقد كانت بذلك محل إعجاب العالم ، ومهوى أفئدة الأحرار والأذكياء من كل جنس ودين .. يوم كانت قوية تحكم وتوجه وتهذب وتعلم ، فلمّا انهارت وقامت من بعدها حضارة أخرى ، اختلفت الأنظار في تقدير قيمة حضارتنا ، فمن مزرٍ بها ومن معجب ، ومن متحدث عن فضائلها ، ومن مبالغ في الانتقاص منها ، هكذا تختلف أنظار الباحثين الغربيين اليوم في حضارتنا ، وما كانوا ليفعلوا ذلك لولا أنهم – وهم الذين بيدهم مقاييس الحكم وعنهم تؤخذ الآراء – هم الأقوياء الذين يمسكون بدفة الحضارة اليوم ، وإن الذين يُحكم عليهم وعلى حضارتهم هم الضعفاء الذين تتطلع أبصار الأقوياء إلى استلاب خيراتهم وحكم بلادهم بشره وجشع ، ولعله هو موقف القوي من الضعيف يزري به وينتقص قدره . كذلك فعل الأقوياء في كل عصور التاريخ ، إلا نحن يوم كنا أقوياء ، فقد أنصفنا الناس قويهم وضعيفهم ، وعرفنا الفضل لأهله شرقيهم وغربيهم ، ومن مثلنا في التاريخ ، عدالة حكم ، ونزاهة قصد ، و استقامة ضمير ؟ .

ومن المؤسف أننا لم ننتبه تمامًا لعصبية الأقوياء ضدنا وجورهم في الحكم على حضارتنا ، وكثير منهم إما متعصب لدين أعمت العصبية بصره عن رؤية الحق ، أو متعصب لقومية ، حمله كبرياء القومية على أن لا يعترف لغير أمته بالفضل ، ولكن ما عذرنا نحن في تأثرنا بآرائهم في حضارتنا؟ فيم يزري بعض الناس من أبناء أمتنا بهذه الحضارة التي ركعت الدنيا أمام قدميها بضعة قرون ؟ .

لعل حجة المستخفين من قومنا بقيمة حضارتنا أنها ليست شيئًا إذا قيست بروائع هذه الحضارة الحديثة واختراعاتها وفتوحاتها في آفاق العلم الحديث ، وهذا لو صح لا يبرر الاستخفاف بحضارتنا لسببين :

الأول – أن كل حضارة فيها عنصران : عنصر روحي أخلاقي ، وعنصر مادي .

أما العنصر المادي : فلا شك في أن كل حضارة متأخرة تفوق ما سبقها ، تلك هي

سنّة الله في تطور الحياة ووسائلها ، ومن العبث أن تطالب الحضارة السابقة بما وصلت إليه الحضارة اللاحقة ، ولو جاز هذا لجاز لنا أن نزري بكل الحضارات التي سبقت حضارتنا ، لما ابتدعته حضارتنا من وسائل الحياة ومظاهر الحضارة ما لم تعرفه الحضارات السابقة قط ، فالعنصر المادي في الحضارات ليس هو أساس التفاضل بينها دائمًا وأبدًا .

وأما العنصر الأخلاقي والروحي : فهو الذي تخلد به الحضارات ، وتؤدي به رسالتها من إسعاد الإنسانية وإبعادها عن المخاوف والآلام ، ولقد سبقت حضارتنا كل الحضارات السابقة واللاحقة في هذا الميدان ، وبلغت فيه شأوًا لا نظير له في أي عصر من عصور التاريخ ، وحسب حضارتنا بهذا خلودًا .

إن الغاية من الحضارة هي أن تقرب الإنسان من ذروة السعادة ، وقد عملت لذلك حضارتنا ما لم تعمله حضارة في الشرق والغرب .

الثاني – إن الحضارات لا يقارن بينها بالمقياس المادي ، ولا بالكمية في الأعداد والمساحات ، ولا بالترف المادي في المعيشة والمأكل والملبس ، وإنما يقارن بينها بالآثار التي تتركها في تاريخ الإنسانية ، شأنها في ذلك شأن المعارك والممالك ، فهي لا تقارن بينها بسعة الرقعة ولا بحساب العدد ، والمعارك الفاصلة في التاريخ القديم والوسيط لو قيست بمعارك الحرب العالمية الثانية من حيث إعداد الجيوش ووسائل القتال لكانت شيئًا تافهًا ، ولكنها لا تزال تعتبر معارك لها قيمتها البالغة في التاريخ لما كان لها من الآثار البعيدة . إن معركة كاني التي هزم فيها القائد القرطاجي الشهير « هنيبال » الرومانيين هزيمة منكرة لا تزال من المعارك التي تدرّس في المدارس العسكرية في أوربا حتى الآن . وإن معارك خالد بن الوليد في فتوح الشام لا تزال محل دراسة العسكريين الغربيين وإعجابهم ، وهي عندنا من الصفحات الذهبية في تاريخ الفتوحات العسكرية في حضارتنا . ومع هذا فما كان قدم معركة كاني أو معركة بدر أو معركة القادسية أو حطين ليحول دون النظر إليها على أنها معارك فاصلة في التاريخ .

* * *

وبعد فأعتقد أني بلغت ما أريد من لفت الأنظار إلى دراسة حضارتنا وإن لم أبلغ ما أريد من توفية هذا البحث حقه ، وحسبي أن أعرض في الأحاديث التالية نماذج من روائع حضارتنا نستدل بها على خلود الحضارة التي شادتها الأمة التي وصفها أعدل حاكم وأصدق قائل بأنها خير أمة أخرجت للناس .

- ٢ -

آثار حضارتنا في التّاريخ

تكلمنا في الحديث الماضي عن الخصائص البارزة لحضارتنا ، وقلنا إن الحضارات إنما تخلد بمقدار ما تقدمه في تاريخ الإنسانية من آثار خالدة في مختلف النواحي الفكرية والخلقية والمادية ، وإن حضارتنا لعبت دورًا خطيرًا في تاريخ التقدم الانساني ، وتركت في ميادين العقيدة والعلم والحكم والفلسفة والفن والأدب وغيرها آثارًا بعيدة المدى قوية التأثير فيما وصلت إليه الحضارة الحديثة ، فما هي هذه الآثار ؟ وما هي أهميتها ؟ .

نستطيع أن نجمل الآثار الخالدة لحضارتنا في ميادين خمسة رئيسية :

أولها- في ميدان العقيدة والدين : فقد كان لمبادئ الحضارة الإسلامية أثر كبير في حركات الإصلاح الدينية التي قامت في أوربا منذ القرن السابع حتى عصر النهضة الحديثة ، فالإسلام الذي أعلن وحدة الله وانفراده بالسلطان وتنزيهه عن التجسيم والظلم والنقص ، . كما أعلن استقلال الإنسان في عبادته وصلته مع الله وفهمه لشرائعه دون وساطة رجال الدين ، كان عاملًا كبيرًا في تفتح أذهان الشعوب إلى هذه المبادئ القوية الرائعة ، وقد كانت الشعوب يومئذ ترسف في أغلال من الخصام المذهبي العنيف والخضوع لسلطان رجال الدين على أفكارهم وآرائهم وأموالهم وأبدانهم! فمن الطبيعي وقد وصلت فتوحاته في الشرق والغرب إلى ما وصلت إليه ، أن تتأثر الأمم المجاورة له بمبادئه في العقيدة قبل كل شيء .

وهذا ما حدث فعلًا ، إذ قام في القرن السابع الميلادي في الغربيين من ينكر عبادة الصور ، ثم قام بعدهم من ينكر الوساطة بين الله وعباده ، ويدعو إلى الاستقلال في فهم الكتب المقدسة بعيدًا عن سلطان رجال الدين ومراقبتهم . ويؤكد كثير من الباحثين أن لوثر في حركته الإصلاحية كان متأثرًا بما قرأه للفلاسفة العرب والعلماء المسلمين من آراء في الدين والعقيدة والوحي ، وقد كانت الجامعات الأوربية في عصره لا تزال تعتمد على كتب الفلاسفة المسلمين التي ترجمت منذ عهد بعيد إلى اللاتينية ، ونستطيع أن نؤكد بأن حركة الفصل بين الدين والدولة التي أعلنت في الثورة الفرنسية كانت وليد الحركات الفكرية العنيفة التي سادت أوربا ثلاثة قرون أو أكثر ، وكان لحضارتنا فضل في إيقاد جذوتها عن طريق الحروب الصليبية والأندلس .

ثانيها – في ميدان الفلسفة والعلوم : من طب ورياضيات وكيمياء وجغرافيا وفلك . فلقد أفاقت أوربا على صوت علمائنا وفلاسفتنا يدرسون هذه العلوم في مساجد أشبيلية وقرطبة وغرناطة وغيرها ، وكان رواد الغربيين الأُوَل إلى مدارسنا شديدي الإعجاب والشغف بكل ما يستمعون إليه من هذه العلوم في جو من الحرية لا يعرفون له مثيلًا في بلادهم . ففي الوقت الذي كان فيه علماؤنا يتحدثون في حلقاتهم العلمية ومؤلفاتهم عن دوران الأرض وكرويتها وحركات الأفلاك والأجرام السماوية ، كانت عقول الأوربيين تمتلئ بالخرافات والأوهام عن هذه الحقائق كلها ! ومن ثم ابتدأت عند الغربيين حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية ، وغدت كتب علمائنا تدرَّس في الجامعات الغربية . فقد ترجم كتاب (القانون) في الطب لابن سينا في القرن الثاني عشر ، كما ترجم كتاب (الحاوي) للرازي – وهو أوسع من القانون وأضخم – في نهاية القرن الثالث عشر ، وظل هذان الكتابان عمدة لتدريس الطب في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر ، أما كتب الفلسفة فقد استمرت أكثر من ذلك ، ولم يعرف الغرب فلسفة اليونان إلا عن طريق مؤلفاتنا وترجماتنا . ومن هنا يعترف كثير من الغربيين المنصفين بأننا كنا في القرون الوسطى أساتذة أوربا مدة لا تقل عن ستمائة سنة . قال العلامة جوستاف لوبون : ظلت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية المصدر الوحيد تقريبًا للتدريس في جامعات أوربا خمسة قرون أو ستة قرون ، ويمكننا أن نقول إن تأثير العرب في بعض العلوم كعلم الطب مثلًا دام إلى أيامنا ، فقد شُرحت كتب ابن سينا في مونبلييه في أواخر القرن الماضي » ، ويقول هذا العالم أيضًا : « على كتب العرب وحدها عوَّل روجر بيكون وليونارد البيزي وأرنو الفيلفوفي وريمون لول وسان توما وألبرت الكبير والأذفونش العاشر القشتالي » .. قال مسيو رينان : « إن ألبرت الكبير مدين لابن سينا ، وسان توما مدين في فلسفته لابن رشد » ، ويقول العلامة المستشرق سيديو : « كان العرب وحدهم حاملين لواء الحضارة الوسطى فدحروا بربرية أوربا التي زلزلتها غارات قبائل الشمال ، وسار العرب إلى منابع فلسفة اليونان الخالدة » فلم يقفوا عند حد ما اكتسبوه من كنوز المعرفة بل وسعوه وفتحوا أبوابًا جديدة لدرس الطبيعة » ، ويقول أيضًا : « والعرب حين زاولوا علم الهيأة عنوا عناية خاصة بالعلوم الرياضية كلها فكان لهم فيها القدح المعلّى ، فكانوا أساتذة لنا في هذا المضمار بالحقيقة » ويقول : « وإذا بحثنا فيما اقتبسه اللاتين من العرب في بدء الأمر وجدنا أن جربرت الذي أضحى بابا باسم سلفستر الثاني أدخل إلينا بين سنة ٩٧٠ وسنة ٩٨٠ ما تعلمه في الأندلس من المعارف الرياضية ،

وأن أوهيلارد الإنجليزي طاف بين سنة ١١٠٠ وسنة ١١٢٨ في الأندلس ومصر فترجم من العربية كتاب الأركان لإقليدس الذي كان الغرب يجهله ، وأن أفلاطون التيقولي ترجم من العربية كتاب الأُكَر لثاذوسيوس ، وأن رودلف البروجي ترجم من العربية كتاب الجغرافيا في المعمور من الأرض لبطليموس ، وأن ليونارد البيزي ألّف حوالي سنة ١٢٠٠ رسالة في الجبر الذي تعلمه من العرب ، وأن كنيانوس النبري ترجم عن العرب في القرن الثالث عشر كتاب إقليدس ترجمة جيدة شارحًا له ، وأن ڤيتليون البولوني ترجم كتاب البصريات للحسن بن الهيثم في ذلك القرن ، وأن جيرارد الكريموني أذاع في ذلك القرن أيضًا علم الفلك الحقيقي المتين بترجمته المجسطي لبطليموس والشرح لجابر إلخ .. ، وفي سنة ١٢٥٠ أمر الأذفونش القشتالي بنشر الأزياج الفلكية التي تحمل اسمه ، وإذا كان روجر الأول قد شجع على تحصيل علوم العرب في صقلية ولا سيما كتب الإدريسي ، فإن الإمبراطور فردريك الثاني لم يبد أقل حضًّا على دراسة علوم العرب وآدابهم ، وكان أبناء ابن رشد يقيمون ببلاط هذا الإمبراطور فيعلمونه تاريخ النباتات والحيوانات الطبيعي . ويقول هومبلد في كتابه عن الكون : والعرب هم الذين أوجدوا الصيدلية الكيماوية ، ومن العرب أتت الوصايا المحكمة الأولى التي انتحلتها مدرسة ساليرم فانتشرت في جنوب أوربا بعد زمن ، وأدّت الصيدلة ومادة الطب اللتان يقوم عليهما فن الشفاء إلى دراسة علم النبات والكيمياء في وقت واحد ومن طريقين مختلفين ، وبالعرب فُتح عهد جديد لذلك العلم .. وأوجبت خبرة العرب بالعالم النباتي إضافتهم إلى أعشاب ذليفوريدس ألفي نبات ، واشتمال صيدليتهم على عدة أعشاب كان يجهلها الإغريق جهلًا تامًّا . ويقول سيديو عن الرازي وابن سينا بأنهما سيطرا بكتبهما على مدارس الغرب زمنًا طويلًا . وعرف ابن سينا في أوربا طبيبًا فكان له على مدارسها سلطان مطلق مدة ستة قرون تقريبًا ؛ فترجم كتابه القانون المشتمل على خمسة أجزاء فطُبع عدة مرات لعدّه أساسًا للدراسات في جامعات فرنسا وإيطاليا .

ثالثها – في ميدان اللغة والأدب : فقد تأثر الغربيون وخاصة شعراء الأسبان بالأدب العربي تأثرًا كبيرًا ، فقد دخل أدب الفروسية والحماسة والمجاز والتخيلات الراقية البديعة إلى الآداب الغربية عن طريق الأدب العربي في الأندلس على الخصوص . يقول الكاتب الأسباني المشهور أبانيز : « إن أوربة لم تكن تعرف الفروسية ولا تدين بآدابها المرعية ولا نخوتها الحماسية قبل وفود العرب إلى الأندلس وانتشار فرسانهم وأبطالهم في أقطار الجنوب » ، ويدلنا على مدى تأثر الأدباء الغربيين بالعربية وآدابها في تلك العصور ما نقله

لنا دوزي في كتابه عن الإسلام من رسالة ذلك الكاتب الأسباني (الغارو) الذي كان يأسى أشد الأسى لإهمال لغة اللاتين والإغريق والإقبال على لغة المسلمين ، فيقول : « إن أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية ، وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها ، وساء ذلك معاصرًا كان على نصيب من النخوة الوطنية أوفى من نصيب معاصريه فأسف لذلك مُرّ الأسف وكتب يقول : إن إخواني المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ، ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لإدحاضها والرد عليها بل لاقتباس الأسلوب العربي الفصيح ، فأين اليوم – من غير رجال الدين – من يقرأ التفاسيرالدينية للتوراة والإنجيل ؟ وأين اليوم من يقرأ الأناجيل وصحف الرسل والأنبياء ؟ واأسفاه ! إن الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدبًا أو لغة غير الأدب العربي واللغة العربية ، وإنهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان ويترنمون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية ، في حين يسمعون بالكتب المسيحية فيأنفون من الإصغاء إليها محتجين بأنها شيء لا يستحق منهم مؤنة الالتفات . فيا للأسى ! إن المسيحيين قد نسوا لغتهم فلن تجد فيهم اليوم واحدًا في كل ألف يكتب بها خطابًا إلى صديق ، أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب ، وقد ينظمون بها شعرًا يفوق شعر العرب أنفسهم في الأناقة وصحة الأداء » .

ومن عباقرة الأدب في أوربا في القرن الرابع عشر وما بعده من لاشك أبدًا في تأثير الآداب العربية على قصصهم وآدابهم ، ففي سنة ١٣٤٩ كتب بوكاشيو حكاياته المسماة بالصباحات العشرة وهي تحذو حذو ألف ليلة وليلة ، ومنها اقتبس شكسبير موضوع مسرحيته العبرة بالخواتيم كما اقتبس لسنغ الألماني مسرحيته ناتان الحكيم .

وكان شوسر إمام الشعر الحديث في اللغة الإنجليزية أكبر المقتبسين من بوكاشيو في زمانه ، فقد لقيه في إيطاليا ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم حكايات كانتربري .

أما دانتي فيؤكد كثير من النقاد أنه كان في « القصة الإلهية » التي يصف فيها رحلته إلى العالم الآخر متأثرًا برسالة الغفران للمعري ووصف الجنة لابن عربي ، ذلك أنه أقام في صقلية على عهد الإمبراطور فريدريك الثاني الذي كان مولعًا بالثقافة الإسلامية ودراستها في مصادرها العربية ، وقد دارت بينه وبين دانتي مساجلات في مذهب أرسطو كان بعضها مستمدًّا من الأصل العربي ، وكان دانتي يعرف شيئًا غير قليل من

سيرة النبي ﷺ فاطلع منها على قصة المعراج والإسراء ووصف السماء .

أما بترارك فقد عاش في عصر الثقافة العربية بإيطاليا وفرنسا ، وطلب العلم في جامعتي مونبلييه وباريس وكلتاهما قامتا على مؤلفات العرب وتلاميذهم في الجامعات الأندلسية .

وقد تأثرت القصة الأوربية في نشأتها بما كان عند العرب من فنون القصص في القرون الوسطى ، وهي المقامات وأخبار الفروسية ومغامرات الفرسان في سبيل المجد والعشق ، وكان لألف ليلة وليلة بعد ترجمتها إلى اللغات الأوربية في القرن الثاني عشر أثر كبير جدًّا في هذا المجال حتى أنها طبعت منذ ذلك الحين حتى الآن أكثر من ثلاثمائة طبعة في جميع لغات أوربا ، حتى ليرى عدد من النقاد الأوربيين أن رحلات جليفر التي ألفها سويفت ، ورحلة روبنسون كروزو التي ألفها ديفوه مدينة لألف ليلة وليلة ولرسالة حي بن يقظان للفيلسوف العربي ابن طفيل .

ولايشك أحد في أن هذه الكثرة الهائلة لطبعات ألف ليلة وليلة دليل على إقبال الغربيين على قراءتها ومن ثم على تأثرهم بها .

ولا حاجة بنا إلى أن نذكر ما دخل اللغات الأوربية على اختلافها من كلمات عربية في مختلف نواحي الحياة حتى أنها لتكاد تكون كما هي في اللغة العربية ، كالقطن ، والحرير الدمشقي ، والمسك ، والشراب ، والجرة ، والليمون ، والصِّفر ،وغير ذلك مما لا يحصى .

وحسبنا في هذا المقام قول للأستاذ ماكييل: « كانت أوربا مدينة بأدبها الروائي إلى بلاد العرب ، وإلى الشعوب العربية الساكنة في النجد العربي السوري تدين بأكبر قسم أو بالدرجة الرئيسية لتلك القوى النشيطة التي جعلت القرون الوسطى الأوربية مختلفة روحا وخيالًا عن العالم الذي كان يخضع لروحه » .

رابعها – في ميدان التشريع : فقد كان لاتصال الطلاب الغربيين بالمدارس الإسلامية في الأندلس وغيرها أثر كبير في نقل مجموعة من الأحكام الفقهية والتشريعية إلى لغاتهم ، ولم تكن أوربا في ذلك الحين على نظام متقن ولا قوانين عادلة . حتى إذا كان عهد نابليون في مصر ترجم أشهر كتب الفقه المالكي إلى اللغة الفرنسية ، ومن أوائل هذه الكتب « كتاب خليل » الذي كان نواة القانون المدني الفرنسي ، وقد جاء متشابهًا إلى حد كبير مع أحكام الفقه المالكي ، يقول العلامة سيديو : « والمذهب المالكي هو الذي يستوقف نظرنا على الخصوص لما لنا من الصلات بعرب إفريقية ، وعهدت

الحكومة الفرنسية إلى الدكتور بيرون في أن يترجم إلى الفرنسية كتاب المختصر في الفقه للخليل بن اسحاق بن يعقوب المتوفى سنة ١٤٢٢ م » .

خامسها – في مفهوم الدولة وعلاقة الشعب بالحكومة : فقد كان العالم القديم والوسيط ينكر على الشعب حقه في الإشراف على أعمال حكامه ، كما يجعلون الصلة بينه وبين الحاكم صلة بين العبد وسيده ، فالحاكم هو السيد المطلق يتصرف بالشعب كما يشاء ، وكانت المملكة تعتبر ملكًا خاصًا للملك تورث عنه كما تورث بقية أمواله ، ويستبيحون من أجل ذلك أن تقوم الحرب بين دولة وأخرى من أجل المطالبة بحصة أميرة في العرش أو للخلاف على ميراث الأصهار !

أما العلاقة بين الأمم المتحاربة : فهي استباحة الغالب لكل ما في يد المغلوب وما في وطنه من مال وعرض وحرية وكرامة ، وظل الأمر كذلك حتى قامت الحضارة الإسلامية تعلن فيما تعلن من مبادئها أن الشعب هو صاحب الحق في الإشراف على حكامه ، وأن هؤلاء ليسوا إلا أجراء يسهرون على مصالح الشعب وكرامته بأمانة ونزاهة ، وفي هذا يقع لأول مرة في التاريخ أن يحاسب فرد من أفراد الشعب حاكمه عما يلبس ، من أين جاء به ، فلا يحكم عليه بالإعدام ، ولا يقاد إلى السجن ، ولا ينفى من الأرض ، ولكن يقدم له الحاكم حسابه حتى يقتنع ويقتنع الناس! ولأول مرة في التاريخ يقول أحد أفراد الرعية لحاكمه الأكبر : السلام عليك أيها الأجير! فيعترف الحاكم بأنه أجير الشعب ، عليه ما على الأجير من حق الخدمة بإخلاص ، والنصح بأمانة . أعلنت الحضارة الإسلامية هذا فيما أعلنته وطبقته بعد ذلك ، فما هي إلا نسمة الحرية والوعي تهب في الشعوب المجاورة للمجتمع الإسلامي فتتململ ثم تتحرك ثم تثور ثم تتحرر . وهذا ما وقع في أوربا ، فلقد جاء الغربيون إلى بلاد الشام في الحروب الصليبية ورأوا من قبل في ممالك الخلافة الأندلسية أن الشعوب تراقب حكامها وأن الحكام لا تخضع لإشراف أحد غير شعبها ، وقارن الملوك الغربيون بين تحرر ملوك العرب والمسلمين من سلطان أية طبقة إلا مجموع الشعب ، وبين خضوعهم هم لسلطان روما وتخويفهم بالحرمان والطرد بين ساعة وأخرى إذا لم يقدموا خضوعهم لملك روما الديني! فثاروا بعد رجوعهم إلى بلادهم حتى تحرروا ، ثم ثارت شعوبهم عليهم حتى تحررت . وكانت الثورة الفرنسية بعد ذلك فلم تعلن من المبادئ أكثر مما أعلنته حضارتنا قبل اثني عشر قرنًا!

وكان مما أعلنته حضارتنا في حروبها : احترام العهود ، وصيانة العقائد ، وترك المعابد

لأهلها ، وضمان حريات الناس وكرامتهم ، فأثارت في الشعوب المغلوبة لحكمها روح العزة والكرامة ، ونبهت فيهم معاني الإنسانية الكريمة العزيزة .

وكان في التاريخ لأول مرة أن يشكو والد مغلوب الحاكم الغالب إلى رئيس الدولة الأعلى من أن ولد الحاكم قد ضرب ولده الصغير خفقتين بالسوط على رأسه من غير حق .. ويغضب رئيس الدولة الأعلى ويحاسب ولد الحاكم ويقتص منه ، ويقرّع الحاكم ويؤنبه ويقول له : متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا ؟! إن هذه روح جديدة تبعثها حضارتنا في الأفراد والشعوب وقد كان هذا الوالد الذي شكا ضرب ولده ، كان قبل حكمنا وحضارتنا يعذب ويضرب ويسلب ماله ويضطهد في عقيدته فلا يثور ولا يتألم ولا يحس بالعزة والكرامة ، حتى إذا أشرقت عليه شمس حضارتنا رفع صوته ليقول لأمير المؤمنين : أنا عائذ بالله وبك من الظلم ، وما كان الظلم الذي اشتكاه سفك دم ولا انتهاك عرض ولا سلب دين ولا اغتصاب أرض ، وإنما كان ضربتين من ولد صغير لولده الصغير !

إن الغربيين اتصلوا بحضارتنا في القرون الوسطى عن طريق بلاد الشام ، وعن طريق الأندلس ، وكانوا قبل اتصالهم بنا لا يعرفون ثورة ملك على رئيس دين ، ولا انتفاضة شعب على ملك ، ولا يجدون أن من حقهم أن يحاسبوا حاكمًا أو ينصروا مظلومًا . وكانوا حين يختلف بعضهم مع بعض في العقيدة والمذهب يذبح بعضهم بعضًا كما يذبح الجزار غنمه! فلما اتصلوا بنا بدأت نهضتهم وثورتهم ثم كان تحررهم ، فهل ينكر بعد هذا أثر حضارتنا في تحرير العالم وإنقاذ الشعوب ؟ .

* * *

وبعد ، فهذه هي بعض الآثار الخالدة لحضارتنا في خمسة ميادين رئيسية هي أبرز مظاهر الحياة في الأمم والحضارات .. ومن أجل ذلك كان لنا نحن أبناء هذه الحضارة دَين على الشعوب التي حررتها حضارتنا ، يجب أن نسترده لا بالتفاخر الكاذب ولا بالأماني والأباطيل ، بل بمعرفتنا لقدر أنفسنا ، وقيمة حضارتنا وسمو تراثنا ، واستحقاقنا لأن نكون الأمة الوسط التي تشهد على الناس ، وتقودهم إلى الخير والحق والكرامة . ولعلنا فاعلون إن شاء الله .

- ٣ -

النزعة الإنسانيّة

لا يسع الباحث في حضارتنا الخالدة وآثارها إلا أن يعنى بالنزعة الإنسانية التي تميزت بها حضارتنا عن كل الحضارات ، فنقلت الإنسانية من أجواء الحقد والكراهية والتفرقة والعصبية إلى أجواء الحب والتسامح والتعاون والتساوي أمام الله ، ولدى القانون ، وفي كيان المجتمع تساويًا لا أثر فيه لاستعلاء عرق على عرق ، أو فئة على فئة ، أو أمة على أمة .. وإن هذه النزعة لتتجلى في مبادئ حضارتنا وتشريعها وواقعها .

أما النزعة الإنسانية في مبادئها فذلك حين يعلن الإسلام أن الناس جميعًا خلقوا من نفس واحدة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ (١) . فالأصل البشري لأبناء البشرية قاطبة هو أصل واحد . ومهما تفرق الناس بعد ذلك إلى أمم وقبائل وبلدان وأجناس ، فإنما هو كتفرق البيت الواحد والأخوة من أب واحد وأم واحدة ، وما كان كذلك فسبيل هذا الاختلاف في أجناسهم وبلدانهم أن يؤدي إلى تعاونهم وتعارفهم وتلاقيهم على الخير ، ومن ذلك انبثق المبدأ الإنساني الخالد ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ (٢) وقد ترفع الحياة بعد ذلك أفرادًا وتخفض آخرين ، وقد تغتني فئات ويفتقر كثيرون ، وقد يحكم شخص ويخضع شعب ، وقد تبيضُّ بشرة أقوام وتسود ألوان أمم أخرى .

إنَّ هذا وإن كان من سنة الحياة ، بل هو نظامها الذي لا يتبدل ، فليس من شأنه أن يميز من ارتفع على من اتضع ، ولا من اغتنى على من افتقر ، ولا من حكم على من خضع ، ولا ذا اللون الأبيض على ذي اللون الأسود ، بل الكل سواء ، سواء عند الله في آدميتهم وإنسانيتهم لا تمايز بينهم إلا بالتقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (٣) ، وهم سواء أمام القانون في الخضوع له ، لا تمايز بينهم إلا بالحق ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (٤) . وهم سواء في كيان المجتمع ، يتأثر قويهم بضعيفهم . ومجموعهم لعمل أفراد منهم « مثل المؤمنين

(١) النساء : ١ .
(٢) الحجرات : ١٣ .
(٣) الحجرات : ١٣ .
(٤) الزلزال : ٧ ، ٨ .

في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » (١) ، وهكذا يستمر الإسلام في إعلان الوحدة الإنسانية بين الناس كأخوة من أب وأم ، والوحدة الاجتماعية في المجتمع كشجرة تهتز أغصانها جميعًا إذا لمستها الرياح لا فرق بين أعلاها وأدناها . ومن المفيد هنا أن نلاحظ كثرة خطاب القرآن للناس بهذه الألفاظ التي تشعرهم بوحدة أصلهم الإنساني ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ .. ﴾ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ .. ﴾ كما خاطب أبناء الدين الواحد بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ﴾ ﴿ أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، دون أن يميز بالخطاب أمة على أمة أو فريقًا على فريق .

وأما النزعة الإنسانية في تشريعنا الحضاري ، فإنك لتلمس ذلك واضحًا في كل باب من أبواب التشريع ، في الصلاة يقف الناس جميعًا بين يدي الله لا يخصص مكان لملك أو عظيم أو عالم . وفي الصوم يجوع الناس جوعًا واحدًا لا يفرد من بينهم أمير أو غني أو شريف . وفي الحج يلبس الناس لباسًا واحدًا ، ويقفون موقفًا واحدًا ، ويؤدون منسكا واحدًا ، لا تمييز بين قاص ودان ، وقوي وضعيف ، وأشراف وعامة . فإذا انتقلت من ذلك إلى أحكام القانون المدني وجدت الحق هو الشرعة السائدة في العلاقة بين الناس ، والعدل هوالغرض المقصود من التشريع ، ودفع الظلم هو اللواء الذي يحمله القانون ليفيء إليه كل مضطهد ومظلوم . فاذا انتقلت من ذلك إلى القانون الجزائي وجدت العقوبة واحدة لكل من يرتكبها من الناس ، فمن قَتل قُتل ، ومن سرق عوقب ، ومن اعتدى أُدّب ، لا فرق بين أن يكون القاتل عالمًا أو جاهلًا ، والمقتول أميرًا أو فلاحًا ، ولا فرق بين أن يكون المعتدي أمير المؤمنين أو صانع النسيج ، والمعتدى عليه أعجميًا أو عربيًا ، شرقيًا أو غربيًا ، فالكل سواء في نظر القانون ﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ (٢) . ويسمو التشريع إلى أرفع من هذا حين يثبت الكرامة الانسانية للناس جميعًا بقطع النظر عن أديانهم وأعراقهم وألوانهم فيقول ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ (٣) هذه الكرامة هي التي تضمن للناس جميعًا حقهم في الحياة والعقيدة والعلم والعيش . هي للناس جميعًا ، ومن واجب الدولة أن تكفلها لهم على قدم المساواة بلا استثناء . ويسمو التشريع فوق هذا إلى ذروة عالية من السمو الانساني حين يجعل أساس المثوبة والعقاب للناس لا على ظواهر أفعالهم بل على نواياهم : « إن الله لا ينظر إلى صوركم

---

(١) رواه مسلم وأحمد .
(٢) البقرة : ١٧٨ .
(٣) الإسراء : ٧٠ .

ولكن إلى قلوبكم » (١) ، فالنية هي محل المؤاخذة أو الإثابة : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » (٢) ، والنية المقبولة عند الله هي نية الخير والنفع للناس وابتغاء وجه الله ومرضاته دون غرض مادي أو نفع تجاري ﴿ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣) ، وهذا الخير الذي تفعله ابتغاء وجه الله لا يصح أن تطلب ممن استفاد منه ثوابًا ولا أجرًا ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (٤) ، ويبلغ التشريع أعلى ذروة من النزعة الإنسانية حين يقرر وحدة العوالم كلها من إنسان وحيوان ونبات وجماد وأرض وأفلاك في سلك العبودية لله والخضوع لنواميس الكون ، وما أروع ما يطلبه القرآن من المسلم أن يذكره في كل ركعة من ركعات صلاته ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (٥) ، إنه لواجب أن يذكر المسلم أنه جزء من الكون مخلوق لإله واحد متصف بالرحمة البالغة الشاملة ، فليكن المسلم في هذا العالم الذي يعيش فيه وهو محتاج اليه مثالًا للرحمة التي يتصف بها الله وهو غني عن العالمين .

هذه هي مظاهر النزعة الإنسانية في مبادئ حضارتنا وتشريعها حين أعلنت للناس ، فكيف كان واقعها حين حكمت وانتصرت ؟ هل ظلت تلك المبادئ ميثاقًا كميثاق حقوق الإنسان في شرعة الأمم تحتفل الدول بذكرى إعلانه يومًا في كل عام ، بينما تمتهنه الدول الكبرى في كل ساعة وفي كل يوم وفي كل شهر من شهور السنة ؟ ... هل ظلت تلك المبادئ حبيسة في البلد الذي أعلنت فيه كما احتبست مبادئ الثورة الفرنسية في فرنسا وحرّمت على مستعمراتها والبلدان الواقعة تحت حكمها أو انتدابها ؟ هل نصبت تماثيل جديدة كما نصب تمثال الحرية في نيويورك أول ما يراه القادم إلى تلك الديار ، بينما تنطق أعمال أمريكا في خارجها نطقًا يلعن الحرية ويهزأ بها ويضطهد عشاقها الأحرار ؟ .. لنستمع إلى التاريخ فهو أصدق شاهد ، لنستمع إلى روائع النزعة الإنسانية في حضارتنا وكيف أعلنتها حقائق ناطقة في تصرفات أفرادها وحكامها :

تغاضب أبو ذر ، وهو عربي من غفار ، مع بلال الأسود الحبشي مولى أبي بكر (رضي الله عنه) . وكان أبو ذر وبلال صحابيين ممن آمن بالإسلام ورسوله . وتطور

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه أئمة السنة كلهم .
(٣) الحج : ٧٨ .
(٤) الدهر : ٨ ، ٩ .
(٥) الفاتحة : ٢ ، ٣ .

النزاع بينهما إلى أن أخذت أبا ذر الحدة فقال لبلال : يا ابن السوداء! فشكاه بلال إلى النبي ﷺ فقال لأبي ذر : « أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية ! » فقال أبو ذر وقد ظن الجاهلية هي الانحراف الأخلاقي الشهواني الذي لا يأتيه إلا الشباب : على ساعتي هذه من كبر السن ؟ ... قال : « نعم ، هم إخوانكم » [١] . فندم أبو ذر وتاب حتى أنه أمر بلالًا أن يطأه على وجهه مبالغة في التوبة والندم .

وسرقت امرأة من بني مخزوم في عهد النبي ﷺ وجيء بها إليه لتعاقب ، فأهم ذلك قريشًا وقالوا : من يشفع لنا عند رسول الله في إسقاط الحد عنها؟ ثم ذكروا أن أسامة بن زيد حبيب إلى قلب الرسول فكلموه في أن يشفع لها عنده ، فكلمه بذلك فغضب (عليه الصلاة والسلام) غضبًا شديدًا وقال لأسامة : أتشفع في حد من حدود الله ؟! ثم قام في الناس خطيبًا فقال : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » [٢] .

وجاء قيس بن مطاطية (وكان منافقًا) إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل (أي محمد ﷺ) فما بال هؤلاء ؟ (يعني سلمان وصهيبًا وبلالًا) فقام إليه معاذ بن جبل فأخذ بتلابيبه (أي قبض على ثيابه من جهرة نحره) ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بمقالته ، فقام رسول الله مغضبًا يجر رداءه حتى أتى المسجد ثم نودي أن الصلاة جامعة (نداء إلى الاجتماع العام وفي صلاة العيدين) فخطب في الناس وقال : « يا أيها الناس ! إن الرب واحد والأب واحد وإن الدين واحد » [٣] .

وجاء عدي بن حاتم الطائي إلى المدينة يومًا وهو لم يُسلم بعد ، وحضر مجلس الرسول ﷺ وحوله أصحابه بعد منصرفهم من إحدى الغزوات يلبسون الدروع السابغات ، فراعه هيبة الصحابة لنبيهم واحترامهم له ، وبينما هو كذلك إذ جاءت إلى النبي ﷺ امرأة فقيرة من إماء المدينة وقالت له : أريد يا رسول الله أن أسر إليك شيئًا فقال لها : « انظري في أي سكك المدينة أخلو لك » ثم نهض معها ووقف طويلًا يستمع إليها ثم

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما . (٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد .

(٣) رواه ابن عساكر بسنده إلى الزهري ، وتمامه : ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي .

عاد ... فلما رأى عدي هذا تملكته روعة هذه النزعة الإنسانية في رسول الله فأسلم .

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة بعد نضال استمر إحدى وعشرين سنة ووقف موقف المنتصر ممن حاربوه وأخرجوه وكذبوه ، لم يذكر يومئذ إلا دعوته ومبادئها التي كان ينادي بها يوم كان مستخفيًا في دروب مكة ، ثم يوم كان حاكمًا في المدينة يضع الأساس في بناء الحضارة الخالدة في التاريخ – يومئذ أعلن تطبيق المبادىء التي طالما نادى بها من قبل ، قبل أن ينتصر انتصاره النهائي ، فقال وهو على باب الكعبة ، وقريش ذات الكبرياء والفوارق الاجتماعية الظالمة تسمع ما يقول : « يا معشر قريش إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم خلق من تراب » ثم تلا قول الله تبارك وتعالى وهو ما كان ينادي به قبل أن ينتصر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (١) .

ولما كان عهد أبي بكر كان مثال الرئيس المتواضع الذي تملأ الإنسانية قلبه ونفسه ، فإذا هو وهو خليفة يأتي لبنات الحي ممن فقدن آباءهن في الحروب فيحلب لهن غنمهن ويقول : أرجو أن لا تغيرني الخلافة عن خُلق كنت أعتاده من قبل .

وكان عمر مثال الخليفة الغيور على الشعب البار بالضعفاء ، الشديد في الحق ، الناس عنده سواء ، بل يحرم نفسه ليعطي الناس ، ويجوع ليشبعوا ، وكان يتفقد الناس في بيوتهم ومنازلهم وقصصه في ذلك مشهورة ومعروفة :

رأى مرة في السوق شيخًا كبيرًا يسأل الصدقة فقال له : ما أنت يا شيخ؟ قال : أنا شيخ كبير أسأل الجزية والنفقة ، وكان يهوديًّا من سكان المدينة . فإذا بعمر الإنساني العظيم يقول له : ما أنصفناك يا شيخ . أخذنا منك الجزية شابًّا ثم ضيعناك شيخًا . وأخذ بيده الى بيته فرضخ له ماكان من طعامه . ثم أرسل إلى خازن بيت المال يقول : افرض لهذا وأمثاله ما يغنيه ويغني عياله! ..

ومشى عمر مرة في سكك المدينة فإذا بصبيّة تطيش هزالًا ، تقوم مرة وتقع أخرى ، فقال عمر : يا حوبتها ! يا بؤسها ! من يعرف هذه منكم ؟ فقال ابنه عبد الله : أما تعرفها يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا . قال : هذه إحدى بناتك ! قال عمر : وأي بناتي هذه ؟ قال : هذه فلانة بنت عبد الله بن عمر (أي ابنته) فقال عمر : ويحك وما صيرها إلى

(١) الحجرات : ١٣ .

ما أرى ؟ قال له ابنه : منعك ما عندك . فقال عمر : إنك والله مالك عندي غير سهمك في المسلمين وسعك أو أعجزك ! هذا كتاب الله بيني وبينكم .

وقدمت إلى المدينة قافلة من التجار وفيها النساء والأطفال فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف : هل لك أن تحرسهم هذه الليلة ؟ فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما ، فسمع عمر بكاء صبي فتوجه نحوه وقال لأمه : اتقي الله وأحسني إلى صبيك ، ثم عاد إلى مكانه ، فسمع بكاءً فعاد إلى أمه فقال : اتقي الله وأحسني إلى صبيك ، ثم عاد إلى مكانه ، فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال : ويحك إني لأراك أم سوء ! مالي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة ؟ قالت وهي لا تعرفه أنه أمير المؤمنين : ياعبد الله لقد أبرمتني منذ الليلة ! إني أريغه عن الفطام فيأبى (أي أحمله على الفطام كرهًا فيأبى) قال : ولمَ ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض الا للفطيم (أي لا يعطي للآباء عن أولادهم إلا من فطم) قال : وكم له ؟ قالت كذا وكذا شهرًا قال :ويحك لا تعجليه . فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبه البكاء . فلما سلم قال : يا بؤسًا لعمر كم قتل من أولاد المسلمين .. ثم أمر مناديًا فنادى أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام ، وكتب بذلك إلى الآفاق .

ولعمري ما يروي التاريخ أروع ولا أبلغ من هذه الحادثة . وما في حضارات الأمم كلها ما يعدل روعة عمر في ديمقراطيته إذ أخذ بنفسه يسهر على القافلة وأصحابها نيام ، وهو يومئذ أمير المؤمنين – أي قاهر كسرى وقيصر ووارث ملكيهما – يفعل ما لا يفعله اليوم إلا حارس طلب إليه ان يحرس مثل هذه القافلة ، وهيهات مع هذا أن يفعل مثل ما فعل عمر ، أن يتنبه للطفل يبكي ويطلب إلى الأم أن ترعى ولدها ثلاث مرات .. من منا يفعل فعل عمر مع أولاد القافلة ؟ مَنِ من عظماء التاريخ قارب عمر في شعوره الإنساني العظيم ؟

ولنستمع الى ما هو أروع من هذا في تاريخ حضارتنا .. حدث أسلم خادم عمر قال : خرجت مع عمر ليلة وبعدنا عن المدينة ونحن نتفقد أهل المنازل النائية ، فبصرنا بنار من بعيد فقال عمر : إني أرى ها هنا ركبانًا قصّر بهم الليل والبرد ، انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فإذا بامرأة معها صبيان وقدر منصوبة على نار ، وصبيانها يتضاغون (أي يتصايحون ويبكون) فسلم عمر ثم سأل المرأة : ما بالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد ، قال : وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : الجوع ، قال : وأي شيء في هذا القدر ؟ قالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا .. والله بيننا وبين عمر !

(تشكو عمر وتدعو عليه) فقال : أي رحمك الله وما يدري عمر بكم؟ قالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا ؟ فأقبل عليّ فقال : انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عدلًا من دقيق ، وكبة من شحم ، وقال : احمله علي ، قلت : أنا أحمله عنك . قال : أنت تحمل وزري يوم القيامة لا أم لك ؟! فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئًا ، فجعل يقول لها : ذري علي وأنا أحر لك ، وجعل ينفخ تحت القدر وكانت لحيته عظيمة ، فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته حتى طبخ لهم ، ثم أنزلها وقال : ابغني شيئًا ، فأتته بصفحة فأفرغها فيها ، فجعل يقول لها : أطعميهم وأنا أسطح لهم (أي أبسطه حتى يبرد) ، فلم يزل حتى شبعوا ، وترك عندها فضل ذلك وقام وقمت معه ، فجعلت تقول : جزاك الله خيرًا ، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين! فيقول : قولي خيرًا ، إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله! ثم تنحى ناحية عنها ، ثم استقبلها فربض مربضًا ، فقلت له : لك شأن غير هذا ؟ فلا يكلمني ، حتى رأيت الصبية يصطرعون ، ثم ناموا وهدأوا . فقام يحمد الله ثم أقبل علَي فقال : يا أسلم ، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت .

ومن هذا النمط الإنساني الفذ في تاريخ الإنسانية ما وقع لعمر أيضًا ذات ليلة إذ كان على عادته يتفقد الناس ، فمر برحبة من رحاب المدينة فإذا ببيت شعر ينبعث منه أنين امرأة وعلى بابه رجل قاعد ، فسلم عليه عمر : وسأله من هو ، فأجابه بأنه رجل من البادية جاء يصيب من فضل أمير المؤمنين ، فقال عمر ما هذ الصوت الذي أسمعه في البيت؟ قال الرجل وهو لا يدري أنه عمر أمير المؤمنين : انطلق (رحمك الله) لحاجتك ولا تسأل عما لا يعنيك ، فألح عليه عمر يريد معرفة الأمر فأجابه : امرأة تَمخَّض – أي على وشك الولادة – وليس عندها أحد ، فعاد عمر إلى منزله وقال لامرأته أم كلثوم بنت علي (رضي الله عنه) : هل لك في أجر ساقه الله إليك ؟ قالت : وما هو ؟ فأخبرها الخبر وأمرها أن تأخذ معها ما يحتاج إليه الوليد الجديد من ثياب ، وما تحتاج إليه المرأة من دهن ، وأن تأخذ معها قدرًا وتضع فيه حبوبًا وسمنًا ، فجاءت به فحمل القدر ومشت خلفه حتى انتهى إلى البيت وقال لامرأته : ادخلي إلى المرأة ، وجلس هو مع الرجل ، وأوقد النار ، وطبخ ما جاء به ، والرجل جالس لا يعلم من هو . وولدت المرأة فقالت زوجة عمر من داخل البيت : بشر يا أمير المؤمنين صاحبك بغلام ، فلما سمع الأعرابي ذلك علم أنه مع أمير المؤمنين ، فكأنه هابه ، فأخذ يبتعد عنه وعمر يقول له :

مكانك كما أنت ، ثم حمل القدر وأمر زوجته أن تأخذه لتطعم المرأة ، فلما أكلت ناول الرجل القدر وقال له : كل ويحك فإنك سهرت الليل كله ، ثم خرجت زوجته وقال للرجل : إذا كان غدًا فائتنا نأمر لك بما يصلحك ، فلما أصبح أتاه ففرض لابنه في الذرّية وأعطاه .

أما إني لا أعلم في كل ما قرأت من تاريخ العظماء أروع ولا أنبل ولا أسمى إنسانية من مثل هذه الحادثة ، ولقد ذكروا في تاريخ واشنطن محرر أمريكا أنه كان مارًّا ذات يوم في بعض شوارع المدينة التي سميت باسمه فرأى بعض الجنود يحاولون رفع حجر ويعجزون عن ذلك والضابط واقف لا يحاول إعانتهم ، فقال له واشنطن : ساعدهم على حمله ، فأبى الضابط وقال : إني لا أتنازل إلى هذا . فألقى واشنطن رداءه وساعدهم حتى حملوا الحجر ، ثم قال لهم : كلما احتجتم إلى مساعدة فاسألوا عن دار واشنطن . إنها نادرة تدل على خلق عظيم ... ولكن أين هي مما صنع عمر ، إذ ترك في الليل نومه وراحته وأخذ يفتش عن شعبه ، فلما علم بامرأة حامل على وشك الولادة وليس لها من يساعدها عاد إلى بيته وأحضر زوجته وسارا معًا في ظلام الليل هو يحمل الطعام وهي تحمل الثياب حتى وصلا إلى الخباء فقامت زوجته – وهي في تعبيرنا الحديث سيدة الدولة الاولى – مقام القابلة . وقام هو مقام الطاهي . أين مثل هذا في سمو النفس الإنسانية التي بلغت ما لم يبلغه رئيس على وجه الأرض؟ .. إنها إحدى عظمات عمر ، وهي إحدى روائع حضارتنا التي صاغت من عمر بن الخطاب ابن الصحراء إنسانًا يقف على رأس قمة العظماء كما تقف حضارتنا في مقدمة الحضارات .

* * *

وبعد فليس عمر وحده هو الذي صنعته حضارتنا رجلًا يمثل الإنسانية الكاملة الرحيمة ، ففي أبي بكر وفي عثمان وفي علي وفي عمر بن عبد العزيز وفي صلاح الدين وفي غيرهم من علماء حضارتنا وعظمائها وقادتها وعبّادها وفلاسفتها ، في كل واحد من هؤلاء مَثل خالد على سمو النزعة الإنسانية في حضارتنا الخالدة .

- ٤ -

المساواة العنصرية

وهذا جانب آخر من جوانب النزعة الإنسانية في حضارتنا الخالدة ، ذلك هو تقرير المساواة حقًّا بين الناس من غير نظر إلى ألوانهم . فبعد أن أعلن القرآن مبدأ المساواة في قوله : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) وقف الرسول في حجة الوداع ليعلن في خطابه الخالد : « الناس من آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى » (٢) ولم تكن هذه المساواة لتقف عند حدود المبادئ التي تعلن في مناسبات متعددة - كما يقع من زعماء الحضارة الحديثة اليوم - بل كانت مساواة مطبقة تنفذ كأمر عادي لا يلفت نظرًا ، ولا يحتاج إلى تصنع أو عناء ، فقد نفذت في المساجد حيث كان يلتقي فيها الأبيض والأسود على صعيد واحد من العبودية لله (عز وجل) والخشوع بين يديه ، ولم يكن الأبيض ليجد غضاضة أو حرجًا في وقوف الأسود بجانبه . ونفذت في الحج حيث تلتقي العناصر البشرية كلها من بيضاء وملونة على صعيد واحد وبثياب واحدة من غير تمييز بين أبيض وأسود أو استعلاء من البيض على السود . بل إننا لنجد ما هو أسمى من هذا ، فقد أمر رسول الله ﷺ بلالًا الحبشي يوم فتح مكة أن يصعد فوق الكعبة ليؤذن من فوقها ويعلن كلمة الحق ، والكعبة هي الحرم المقدس عند العرب في الجاهلية ، وهي القبلة المعظمة في الإسلام ، فكيف يصعد عليها عبد ملوّن كبلال ؟ .. كيف يطؤها بقدميه ؟ إن مثل هذا أو قريبًا منه لا يتصور في الحضارة الحديثة في أمريكا مثلًا ، ولكن حضارتنا فعلته قبل أربعة عشر قرنًا ، فما كان صعود بلال على سطح الكعبة إلا إعلانًا لكرامة الإنسان على كل شيء وأن الإنسان يستحق هذه الكرامة لعلمه وعقله وأخلاقه وإيمانه لا لبشرته وبياضه ، فما يقدم الإنسان بياضه إذا أخَّره عمله ، ولا يؤخره سواده إذا قدمه ذكاؤه واجتهاده .

ولذلك لم يرض رسول الله لأبي ذر وهو من أكرم صحابته أن يسب آخر فيقول له : يا ابن السوداء .. لم يرض منه ذلك بل قرّعه وقال له : « أعيَّرته بسواد أمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية! » وهذا حدّ فاصل بين العلم والجهل بين الحضارة الإنسانية ، والحضارة الجاهلية .

إن الحضارة التي لا يستعلي فيها عرق على عرق ولا لون على لون هي الحضارة التي

---

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) ابن سعد عن أبي هريرة .

يصنعها الإنسان العاقل الكريم وتسعد بها الإنسانية الواعية الكريمة . والحضارة التي يعلو فيها الأبيض ويمتهن الأسود ، ويسعد بها ذوو البشرة البيضاء ويشقى بها الملونون هي الحضارة الجاهلية التي ترتد بها الإنسانية إلى الوراء مئات القرون عمياء متكبرة جاهلة حمقاء . إنك امرؤ فيك جاهلية ... هذا وصف للحضارة الجاهلية التي تنادي بالتمييز العنصري ، وهو ما كافحته حضارتنا في كل ميادين الحياة ، في المسجد والمدرسة والمحكمة والقيادة ، مع الأصدقاء والأعداء على السواء .

لمّا جاء المسلمون لفتح مصر وتوغلوا فيها حتى وقفوا أمام حصن بابليون رغب المقوقس في المفاوضة مع المسلمين فأرسل إليهم وفدًا ليعلم ما يريدون ، ثم طلب منهم أن يرسلوا إليه وفدًا ، فأرسل اليه عمرو بن العاص عشرة نفر فيهم عبادة بن الصامت ، وكان عبادة أسود شديد السواد طويلًا حتى قالوا إن طوله عشرة أشبار ، وأمره عمرو أن يكون هو الذي يتولى الكلام . فلما دخلوا على المقوقس تقدمهم عبادة بن الصامت فهابه المقوقس لسواده وقال لهم : نحّوا عني هذا الأسود وقدموا غيره ليكلمني ، فقال رجال الوفد جميعًا : إن هذا الأسود أفضلنا رأيًا وعلمًا وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنّما نرجع جميعًا إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله ، فقال لهم : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبعي أن يكون هو دونكم ؟ قالوا : كلا ! إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعًا وأفضلنا سابقة وعقلًا ورأيًا وليس ينكر السواد فينا ، فقال المقوقس لعبادة : تقدم يا أسود وكلمني برفق فإني أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك علي ازددت لك هيبة ، فقال عبادة – وقد رأى فزع المقوقس من السواد : إن في جيشنا ألف أسود هم أشد سوادًا مني .

ألا ترى إلى هذه الحضارة ما أروعها وأسمى إنسانيتها ؟ .. لقد كان الناس جميعًا – حتى المتحضرون في القرن العشرين – يرون السواد منقصة ، وكانوا لا يرون الأسود أهلًا لأن يكون في عداد البيض ، فكيف يتقدمهم ويقودهم ويفضلهم في الرأي والعلم ؟ .. فجاءت حضارتنا تحطم هذه المقاييس ، وتسفه هذه الآراء ، وتقدم الأسود على الأبيض حين يقدمه علمه ورأيه وشجاعته . وليس عبادة بن الصامت إلا واحدًا من هؤلاء السود الذين رفعتهم حضارتنا إلى مرتبة القيادة والزعامة .

وكان عبد الملك بن مروان يأمر المنادي أن ينادي في موسم الحج أن لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح إمام أهل مكة وعالمها وفقيهها ، أتدرون كيف كان عطاء هذا؟

لقد كان أسود ، أعور ، أفطس ، أشل ، أعرج ، مفلفل الشعر ، لا يتأمل المرء منه طائلًا ... كان إذا جلس في حلقته العلمية بين الآلاف من تلاميذه بدا كأنه غراب أسود في حقل من القطن! هذا الأسود الأعور الأفطس جعلته حضارتنا إمامًا يرجع إليه الناس في الفتوى ، ومدرسة يتخرج على يده الألوف من البيض ، وهو عندهم محل الإكبار والحب والتقدير .

ولقد كان في حضارتنا المجلون في كل ميادين العلم والأدب ، وهم سود البشرة لم يمنعهم سوادهم أن يكونوا أدباء ينادمون الخلفاء كنصيب الشاعر ، ولا فقهاء يؤلفون المراجع المعتبرة في الفقه الإسلامي كعثمان بن علي الزيلعي شارح الكنز في الفقه الحنفي والحافظ جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف الزيعلي (٧٦٢ هـ) مؤلف نصب الراية ، وكلاهما أسودان من زيلع من بلاد الحبشة .

وليس من أبناء العربية من يجهل كافورًا الإخشيدي العبد الأسود وقد حكم مصر في القرن الرابع الهجري ، وهو الذي خلده المتنبي في مدحه وهجائه .

وقصارى القول أن حضارتنا لم تعرف هذا التمييز العنصري بين البيض والسود ، ولم يكن فيها مجتمعات خاصة للسود لا يساكنهم فيها أبيض ، ولا اضطهاد خاص بهم يجعلهم محل نقمة البيض وازدرائهم ، وإنما كانت حضارتنا إنسانية تنظر إلى الناس جميعًا بمنظار الحق والخير ، ولا ترى البياض والسواد إلا بياض الأعمال وسوادها ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (١) .

ولقد كان مثل هذا القول يبدو غريبًا منذ خمسين سنة ، فمن بدهيات الأمور أن التفريق بين البيض والسود عمل همجي لا تلجأ إليه حضارة راقية ، وأن حضارتنا لم يكن منها أن تفعل ذلك وهي أشهر حضارة عرفت بنشر الإخاء والمساواة بين الناس ، ولكننا منذ قيام هيئة الأمم وإعلان ميثاق حقوق الإنسان نجد أنفسنا في حاجة إلى مثل هذا الحديث بعد أن رأينا وسمعنا الأحاديث المفجعة عن التمييز العنصري في جنوب أفريقيا ، والجرائم الاستعمارية المروعة في كينيا ، وعن حالة الزنوج والملونين في أمريكا ، ومن العجيب أن الذين ينادون بالتمييز العنصري من حكام جنوب أفريقيا ، ويقومون بالاضطهاد السياسي والاقتصادي لزنوج كينيا ، وينزلون أشد المحن والبلايا بزنوج أمريكا

---

(١) الزلزال : ٧ ، ٨ .

ليسوا شرقيين حتى يتهموا بالرجعية والتأخر والهمجية كما هو شأن الغربيين في اتهام الشرقيين دائمًا ، وإنما هم دول راقية من أكبر الدول في هيئة الأمم! فأمريكا أكبر دولة تسيطر على هيئة الأمم ، وإنجلترا أكبر دولة في أوربا تباهي بديمقراطيتها ، وجنوب أفريقيا ممثلة في هيئة الأمم بطبقة من الحكام الأوربيين البيض الذين استعمروا تلك المنطقة وأخذوا يتكلمون باسمها ، ودول أمريكا الجنوبية لها مقام مرموق ورأي مسموع في أوساط هيئة الأمم . وهذه الدول هي التي تقوم في القرن العشرين بأبشع جريمة إنسانية عرفها التاريخ ، جريمة اضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان ، لا لضعفه ولا لجهله بل للون بشرته !

إن حكومة جنوب أفريقيا لا تزال تصر رغم الضجة التي أثارتها الكتلة الآسيوية الأفريقية في هيئة الأمم على التمييز بين البيض والملونين في الحقوق والواجبات والامتيازات . وإنجلترا لا تزال تقوم في كينيا بأعمال التقتيل الجماعي ضد الوطنيين الأحرار من جموع الماوماو . بل لا تزال تصر على تنفيذ قانون الأراضي الصادر في عام ١٩١٥ وهو الذي يجعل لـ (٢٩) ألف أوربي من الحقوق في أراضي كينيا ما ليس لأربعة ملايين وخمسة وخمسين ألف أفريقي يطاردون في أراضيهم وفي عملهم وفي سكناهم ، وهم سكان البلاد وأصحاب الثروة والحق فيها! يقول السير أليوت أول مندوب سام لكينيا عين عام ١٩٠٠ في بيان سياسة حكومته في كينيا : إن داخل المحمية (أي كينيا) أرضًا للرجل الأبيض ، وإن من النفاق عدم الاعتراف بأن مصالح البيض يجب أن تكون لها الغلبة ، وينبغي أن يكون الهدف الأساسي من السياسة التي نتبعها والتشريعات التي نسنها أن ننشئ مستعمرة بيضاء . واستمرت هذه السياسة هدف حكام كينيا الأوربيين حتى اليوم : أن تصبح الأرض كلها للأوربي الأبيض يتصرف بخيراتها كما يشاء .

ومن عجيب قانون الأراضي هناك أن للحاكم أن يمنح الأرض لمن يشاء وأن كل أرض لا تزيد مساحتها على ٥٠٠٠ فدان يجوز منحها بأجر اسمي لمدة ٩٩٩ سنة ! فما أتت سنة ١٩٢٥ حتى كان متوسط ما يملك المستعمر الأبيض ٥٠٠ فدان مقابل ثمانية أفدنة للرجل الوطني . أما سياسة عزل الوطني الأسود عن المستعمر الأبيض فقد قامت على أساس تخصيص أماكن معينة للسود لا يجوز أن يتعدوها . وحين يضطر البيض المستعمرون إلى تشغيل العمال السود - لرخص أجورهم - يجب عليهم بمجرد الانتهاء من العمل أن يهبطوا من مزارع البيض إلى أكواخهم أو مساكنهم في المناطق المنخفضة بعيدًا عن مساكن البيض!

وإذا انتقلنا إلى أمريكا وجدنا ما يذهل ويؤلم : هناك في القارة الجديدة ، حيث تمثال الحرية يستقبل في ميناء نيويورك كل قادم إليها وقد كتب تحته « أعطونا جماهيركم المتعبة ، الفقيرة ، التواقة إلى أن تتنفس في حرية . ابعثوا إليّ بنفاية شاطئكم المزدحم ، أولئك الذين لا مأوى لهم ولا وطن ، فها أنا أرفع مشعلي قرب الباب الذهبي » .

أجل في بلاد الحرية التي أقيم تمثالها في أكبر ميناء بحري من مدنها وموانئها ، تجري مأساة اضطهاد الزنوج ، وهي أبشع جريمة إنسانية عرفها التاريخ . إننا لا نتجنى على القوم فنزعم ما ليس صحيحًا ، بل القوم أنفسهم يعترفون بهذه الحقيقة ، وها هو جيمس بيزنز عضو مجلس الشيوخ الأمريكي يقول : ليس لأيما رجل ملون تعمر قلبه الرغبة في المساواة السياسية عمل ما في ولايات الجنوب ، إن هذه البلاد ملك للرجل الأبيض ، ويجب أن تظل كذلك !

إن مظاهر اضطهاد الزنوج في أمريكا متنوعة متعددة الميادين :

ففي الميدان الثقافي لا يسمح - في عشرين ولاية من الولايات الأمريكية - للزنوج أن يتعلموا في مدرسة واحدة مع البيض! وتنص الفقرة ٢٠٧ من دستور ولاية ميسيسيبي على ما يلي : « يراعى في هذا الحقل - حقل التربية والتعليم - أن يفصل أطفال البيض عن أطفال الزنوج فتكون لكل فريق مدارسه الخاصة » .

وفي ولاية فلوريدا تقضي قوانينها بأن تفصل الكتب المدرسية الخاصة بالطلاب الزنوج في معزل عن الكتب الخاصة بالطلاب البيض!

وفي ميدان الزواج يمتنع في كل الولايات تقريبًا زواج بيضاء بزنجي أو أبيض بزنجية وتنص دساتير بعض الولايات كولاية ميسيسيبي على بطلان مثل هذا الزواج ، بل على بطلان زواج الأبيض بشخص يكون ثُمن الدم الذي يجري في عروقه دم زنجي!

وفي ميدان العمل تقضي قوانين بعض الولايات بأنه لا يسمح للعمال الزنوج أن يقيموا مع العمال البيض على صعيد واحد في المصانع ، ولا يجوز للزنوج أن يدخلوا أو يخرجوا من الأبواب عينها التي يدخل منها البيض ويخرجون !

وفي ميدان الشؤون الاجتماعية تقضي قوانين أربع عشرة ولاية بعزل الركاب البيض في القطر الحديدية عن السود ، وتفرض إقامة عربات خاصة للسود في القطارات والأتوبيس وغرف الهاتف وفي المستشفيات ، حتى في مستشفيات الأمراض العقلية

يفرق بين المجنون الأبيض والمجنون الأسود ! وأغرب من هذا أن صاحب مقبرة للكلاب في واشنطن أعلن عام ١٩٤٧ أنه لا يقبل جثث الكلاب التي يملكها زنوج ، ويعلل ذلك بأنه يعلم أن جماعة الكلاب لا تجد غضاضة في أن تدفن كلها في جبانة واحدة ، ولكنه لاحظ أن زبائنه البيض قد ساءهم أن تعامل كلابهم المدللة هذه المعاملة المنكرة بعد الوفاة أي مساواتها بكلاب الزنوج !

وكثيرًا ما يعتذر الأمريكيون السياسيون من هذا الوضع الإنساني المخجل بأن كراهية الزنوج تكون على أشدها في الولايات الجنوبية ، أي التي هي أقل حضارة من الولايات الشمالية ، ولكن الواقع يكذب هذه الأعذار ، ففي جميع المدن الشمالية الكبرى تجد الكثرة الساحقة من السكان الزنوج محشورة في أحياء قذرة تتألف من بيوت خشبية متداعية تسرح فيها الفئران والجرذان وتندلع في جنباتها كل يوم ألسنة النيران ، والغرفة الواحدة في حي هارلم – حي الزنوج في نيويورك – تحتوي على تسعة عشر زنجيًا! حتى تقول إحدى الصحف هناك : لو اتخذنا كثافة السكان في حي هارلم قاعدة وحاولنا أن نطبقها على سكان الولايات المتحدة كلها لكان في ميسورنا أن نحشرهم جميعًا في نصف نيويورك !

وعلى مرمى النظر من البيت الأبيض في واشنطن وفي ظل نصب لنكولن التذكاري الجميل ينبسط حي بشع يعيش فيه مئتان وخمسون ألف زنجي ، أي ربع سكان العاصمة ، كما يعيش الحيوانات في زرائبها! وفي هذه العاصمة يحظر عليهم أن يدخلوا الفنادق والمطاعم والمسارح والمدارس والمستشفيات الخاصة بالبيض ، حتى الكنائس ... فقد دخل زنجي من جمهورية بناما كنيسة كاثوليكية في واشنطن ، وفيما هومستغرق في صلاته سعى إليه أحد القسس وقدم له قصاصة من ورق قد كتب فيها عنوان كنيسة زنجية كاثوليكية ، وحين سئل القس عن سر هذا التصرف أجاب : إن في المدينة كنائس خاصة بالكاثوليك الزنوج يستطيع هذا المرء الأسود أن يقف فيها بين يدي ربه ! هذا وهم الذين يبشرون بأن السيد المسيح (عليه السلام) كان للإنسانية كلها .

بهذه المهانة وهذا الاحتقار وفي هذا الجو من المرض والفقر والبؤس [1] يعيش ١٥

---

(١) في تقرير نشره مكتب التربية الأمريكي درس الأستاذ براون أحوال العيش في الأحياء الزنجية في كثير من أنحاء الولايات المتحدة فقال : إن تعبيد الطرق وإنارة الشوارع ومد أنابيب الأقذار ، وحماية البوليس ، كثيرًا ما تنتهي حيث يبدأ القسم الزنجي من المدينة ، وليس يوجد في كثير من المناطق أيما مستشفى يستطيع الزنجي أن=

مليون زنجي أي عُشر سكان الولايات المتحدة ، التي تتزعم هيئة الأمم وتنادي بأن رسالتها هي رسالة الحرية للشعوب والسلام بين جماهيرها !

ونرى من المناسب أن نستشهد في هذا المقام بما كتبه هاري هايوود الأمريكي عن حقيقة هذه الحرية في كتاب تحرير الزنوج : « ليس من شك في أن العرق لم يتخذ في بلد ما – باستثناء أفريقية الجنوبية – وسيلة إلى استعباد شعب من الشعوب كما اتخذ في هذه البلاد . لقد انتهى الرق بوصفه امتلاكًا للعبيد ، ولكنه باق ما يزال بوصفه نظامًا طبقيًا ، وإنما يقصد به اليوم الى إبقاء الملونين في مراكز أدنى من ذلك الذي يتمتع به البيض ، ويتوسل إلى ترسيخه بطرائق مختلفة ، فهي حينًا أحكام قتل أو إعدام ينزله الجمهور الأرعن في الزنجي ، بمعزل عن السلطة الحاكمة ، وهي حينًا تشريعات مجحفة وإجراءات قانونية ظالمة ، وهي حينًا عادات وتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان » .

ويقول الاقتصادي الأمريكي فكتور بيرلو : « والذي لا ريب فيه أن الصناعيين من أهل الشمال الذين سيطروا على الحكومة الفدرالية في عهد الحرب الأهلية لم يكونوا راغبين في تحرير الشعب الزنجي تحريرًا صحيحًا ، كل ما كانوا يسعون بسبيله هو أن يحلّوا محل مالكي العبيد الجنوبيين في استغلال الشعب الزنجي أقصى ما يكون الاستغلال ، والحق أن النهج السياسي الذي اتبعه الحزب الجمهوري والجيش في الولايات الجنوبية كان تحالفًا مع مالكي العبيد السابقين لإخضاع الشعب الزنجي من جديد » .

ويقول : « لقد انتشرت سموم التعصب العرقي في طول البلاد وعرضها ، وتسربت إلى مجاري الحياة الأمريكية جميعًا ، فإذا بجماهير الشعب تتعود اصطناع تعابير الاستخفاف والاحتقار في معرض الإشارة إلى الشعب الزنجي والأقليات القومية الأخرى » .

ويقول جاك ليت و لي مورتيمر : لقد اشتهرت أمريكا بين شعوب العالم بأن شعارها

= يطرق بابه ، أما الخدمات الطبية والتمريضية فهي في الأغلب غير وافية أو مفقودة بالكلية وإليك هذه الإحصاءات المؤلمة على المستوى الصحي للزنوج : في شيكاغو ونيويورك بلغت نسبة الإصابات بالسل بين المواطنين الزنوج سنة ١٩٤٧ خمسة أضعاف نسبتها بين المواطنين البيض ، وبلغت في نيويورك ، نيوجيرزي سبعة أضعاف هذه النسبة تقريبًا ، وبلغت نسبة الوفيات بين الأمهات الزنجيات اللواتي وضعن أطفالهن ضعف نسبتها بين الواضعات من الأمهات البيض ، في حين سجلت نسبة الوفيات بين الأطفال الزنوج ارتفاعًا قدره ٧٠ بالمئة عما هي عليه بين الأطفال غير الملونين ، أما متوسط عمر الإنسان بين الأمريكيين الزنوج فكان أدنى من متوسط عمر الإنسان بين الأمريكيين البيض بعشر سنوات كاملة .

هو تمثال الحرية ، ومعنى ذلك أن من واجبنا أن نرحب بكل قادم ولاجئ يحتمي ببلادنا ويحلّ بأرضنا ، إن هربًا من الاضطهاد أو بُعدًا عن الظلم ، ويبدو أن معنى هذه الحرية قد زال تمامًا منذ وُضع فيها التمثال على قاعدته » .

وبعد ، ففي عام ١٩٤٦ في مدينة كولومبيا قصد زنجي وأمه إلى محل لإصلاح أجهزة الراديو خاص بهما ، وبعد أن دفعا الأجرة المطلوبة تبين لهما بأن الجهاز لا يزال على حاله لم يصلح فيه شيء فقالت الأم الزنجية : ثلاثة عشر دولارًا والراديو لا يزال أخرس؟ فأمر صاحب المحل بطردهما ، ورفس أحد المستخدمين الأم برجله فخرت على وجهها ، فغضب الزنجي لأمه وضرب المعتدي عليها فأهوى به إلى الأرض ، فما كان من جاره الا أن صرخ في الجماهير : اقتلوا ابن الفاعلة! وتجمهرت الجماهير وأخذت تنادي : فلنقتص منهما ! والاقتصاص من الزنوج عند الأمريكان فصل رؤوسهم عن أجسادهم فورًا بدون محاكمة ولا عقوبة! وأخيرًا أنقذا من بين أيدي الجماهير وسيقا إلى السجن فلم يرض الجمهور ذلك بل هرع إلى حي الزنوج ليقتص من الزنجية وولدها ، وحاصرت الشرطة الحي المنكود ، وطورد الزنوج المساكين في بيوتهم ومحلاتهم فنهبت وأحرقت وأطلق الرصاص على أولئك المساكين فوقع كثير بين قتيل وجريح .

هذا كله لأن زنجية شكت إلى صاحب محل أنها دفعت أجرة إصلاح الراديو من غير أن تستفيد شيئًا ، وهذا مثل من حضارتهم !

وفي عام ١٠٠ من الهجرة أي منذ ثلاثة عشر قرنًا شكت جارية سوداء تسمى فرتونة إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بأن لها حائطًا قصيرًا يقتحم منه عليها فيُسرق دجاجها ، فأرسل عمر فورًا إليها يخبرها أنه أرسل إلى والي مصر يطلب إليه أن يصلح لها حائطها ويحصن لها بيتها ، وكتب إلى واليه في مصر أيوب بن شرحبيل : إن فرتونة مولاة ذي أصبح قد كتبت إليّ تذكر قصر حائطها وأنه يسرق منه دجاجها وتسأل تحصينه لها . فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها! فلما وصله الكتاب ركب بنفسه إلى الجيزة ليسأل عن فرتونة حتى عثر على محلها فإذا هي سوداء مسكينة فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين وحصن لها بيتها .

هذا ما فعلناه قبل ثلاثة عشر قرنًا .. وهذا مثل من حضارتنا .

- ٥ -

التسامح الديني

وهذا جانب جديد من جوانب النزعة الإنسانية في حضارتنا الخالدة ، جديد في تاريخ العقائد والأديان ، وجديد في تاريخ الحضارات القديمة التي ينشئها دين معين أو أمة معينة . لقد أنشأ الإسلام حضارتنا فلم يضق ذرعًا بالأديان السابقة ، ولم يتعصب دون الآراء والمذاهب المتعددة ، بل كان شعاره ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ (١) ومن أجل ذلك كان من مبادئ حضارتنا في التسامح الديني :

١ - أن الأديان السماوية كلها تستقي من معين واحد : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (٢) .

٢ - وأن الأنبياء إخوة لا تفاضل بينهم من حيث الرسالة ، وأن على المسلمين أن يؤمنوا بهم جميعًا : ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣) .

٣ - وأن العقيدة لا يمكن الإكراه عليها بل لا بد فيها من الاقتناع والرضا ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (٤) . ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) .

٤ - وأن أماكن العبادة للديانات الإلهية محترمة يجب الدفاع عنها وحمايتها كحماية مساجد المسلمين ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (٦) .

٥ - وأن الناس لا ينبغي أن يؤدي اختلافهم في أديانهم إلى أن يقتل بعضهم بعضًا ، أو يتعدى بعضهم على بعض ، بل يجب أن يتعاونوا على فعل الخير ومكافحة الشر ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ (٧) . أما الفصل بينهم فيما يختلفون فيه فالله وحده هو الذي يحكم بينهم يوم القيامة : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ

---

(١) الزمر : ١٧ - ١٨ . (٢) الشورى : ١٣ .
(٣) البقرة : ١٣٦ . (٤) البقرة : ٢٥٦ .
(٥) يونس : ٩٩ . (٦) الحج : ٤٠ . (٧) المائدة : ٢ .

ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىۡءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَىۡءٍ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَـٰبَ‌ۗ كَذَٲلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ‌ۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ (١) .

٦ – وأن التفاضل بين الناس في الحياة وعند الله بمقدار ما يقدم أحدهم لنفسه وللناس من خير وبر « الخلق كلهم عيال الله فأحبهم اليه أنفعهم لعياله » (٢) . ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَٮٰكُمۡ‌ۚ ﴾ (٣) .

٧ – وأن الاختلاف في الأديان لا يحول دون البر والصلة والضيافة : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ‌ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلٌّ لَّهُمۡ‌ۖ وَٱلۡمُحۡصَنَـٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ (٤) .

٨ – وإن اختلف الناس في أديانهم فلهم أن يجادل بعضهم بعضًا فيها بالحسنى ، وفي حدود الأدب والحجة والاقناع : ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ ﴾ (٥) ولا تجوز البذاءة مع المخالفين ، ولا سب عقائدهم ولو كانوا وثنيين : ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٍ‌ۗ ﴾ (٦) .

٩ – فإذا اعتُدي على الأمة في عقيدتها ، وجب رد العدوان لحماية العقيدة ودرء الفتنة : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ۬ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ‌ۖ ﴾ (٧) . ﴿ إِنَّمَا يَنۡهَٮٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمۡ فِى ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمۡ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡ‌ۚ ﴾ (٨) .

١٠ – فإذا انتصرت الأمة على من اعتدى عليها في الدين ، أو أراد سلبها حريتها ، فلا يجوز الانتقام منهم بإجبارهم على ترك دينهم ، أو اضطهادهم في عقائدهم ، وحسبهم أن يعترفوا بسلطان الدولة ويقيموا على الإخلاص لها حتى يكون « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » .

هذه هي مبادئ التسامح الديني في الإسلام الذي قامت عليه حضارتنا ، وهي توجب على المسلم أن يؤمن بأنبياء الله ورسله جميعًا ، وأن يذكرهم بالإجلال والاحترام ، وأن لا يتعرض لأتباعهم بسوء ، وأن يكون معهم حسن المعاملة ، رقيق الجانب ، لين القول ، يحسن جوارهم ويقبل ضيافتهم ، ويصاهرهم حتى تختلط الأسرة ، وتمتزج الدماء ،

---

(١) البقرة : ١١٣ .
(٢) رواه البزار .
(٣) الحجرات : ١٣ .
(٤) المائدة : ٤ .
(٥) العنكبوت : ٤٦ .
(٦) الانعام : ١٠٨ .
(٧) البقرة : ١٩٣ .
(٨) الممتحنة : ٩ .

وأوجب الإسلام على الدولة المسلمة أن تحمي أماكن عبادتهم ، وأن لا تتدخل في عقائدهم ، ولا تجور عليهم في حكم ، وتسويهم بالمسلمين في الحقوق والواجبات العامة ، وأن تصون كرامتهم وحياتهم ومستقبلهم كما تصون كرامة المسلمين وحياتهم ومستقبلهم .

وعلى هذه الأسس قامت حضارتنا ، وبها رأت الدنيا لأول مرة دينًا ينشئ حضارة فلا يتعصب على غيره من الأديان ، ولا يطرد غير المؤمنين به من مجال العمل الاجتماعي والمنزلة الاجتماعية . وظل هذا التسامح شرعة الحضارة الإسلامية منذ وضع أساسها محمد ﷺ ، حتى أخذت في الانهيار ، فضاعت المبادئ ، ونسيت الأوامر ، وجهل الناس دينهم ، فابتعدوا عن هذا التسامح الديني الكريم .

في حياة الرسول :

لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وفيها من اليهود عدد كبير ، كان من أول ما عمله من شؤون الدولة أن أقام بينه وبينهم ميثاقًا تحترم فيه عقائدهم وتلتزم فيه الدولة بدفع الأذى ، ويكونون مع المسلمين يدًا واحدة على من يقصد المدينة بسوء . فطبق بذلك رسول الله ﷺ مبادئ التسامح الديني في البذور الأولى للحضارة الإسلامية .

وكان للرسول جيران من أهل الكتاب ، فكان يتعاهدهم ببره ويهديهم الهدايا ويتقبل منهم هداياهم ، حتى أن امرأة يهودية دست له السم في ذراع شاة أهدتها إليه لما كان من عادته أن يتقبل هديتها ويحسن جوارها . ولما جاء وفد نصارى الحبشة أنزلهم رسول الله في المسجد وقام بنفسه على ضيافتهم وخدمتهم ، وكان مما قاله يومئذ : « إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين فأحب أن أكرمهم بنفسي » .

وجاءه مرة وفد نصارى نجران فأنزلهم في المسجد وسمح لهم بإقامة صلاتهم فيه ، فكانوا يصلون في جانب منه ، ورسول الله والمسلمون يصلون في جانب آخر . ولما أرادوا أن يناقشوا الرسول في الدفاع عن دينهم ، استمع إليهم وجادلهم ، كل ذلك برفق وأدب وسماحة خلق . قبل الرسول من المقوقس هديته ، وقبل منه جارية أرسلها إليه وتسرى بها رسول الله ﷺ وولدت له إبراهيم الذي لم يعمر إلا أشهرًا قليلة . ومن وصاياه للمسلمين : « استوصوا بالقبط خيرًا فإن لكم فيهم نسبًا وصهرًا » .

وعلى هدي الرسول الكريم في تسامحه الديني ذي النزعة الإنسانية الرفيعة سار خلفاؤه من بعده . فإذا بنا نجد عمر بن الخطاب حين يدخل بيت المقدس فاتحًا يجيب سكانها المسيحيين إلى ما اشترطوه : من أن لا يساكنهم فيها يهودي ، وتحين صلاة العصر وهو في داخل كنيسة القدس الكبرى ، فيأبى أن يصلي فيها كيلا يتخذها

المسلمون من بعد ذريعة للمطالبة بها واتخاذها مسجدًا ! ونجده وقد شكت إليه امرأة مسيحية من سكان مصر أن عمرو بن العاص قد أدخل دارها في المسجد كرهًا عنها ، فيسأل عمرًا عن ذلك فيخبره أن المسلمين كثروا وأصبح المسجد يضيق بهم وفي جواره دار هذه المرأة وقد عرض عليها عمرو ثمن دارها وبالغ في الثمن فلم ترض ، مما اضطر عمرو إلى هدم دارها وإدخاله في المسجد ، ووضع قيمة الدار في بيت المال تأخذه متى شاءت . ومع أن هذا مما تبيحه قوانيننا الحاضرة وهي حالة يعذر فيها عمرو على ما صنع ، فإن عمر لم يرض ذلك ، وأمر عمرًا أن يهدم البناء الجديد من المسجد ويعيد إلى المرأة المسيحية دارها كما كانت !

هذه هي الروح المتسامحة التي سادت المجتمع الذي أظلته حضارتنا بمبادئها ، فإذا بنا نشهد من ضروب التسامح الديني ما لا نجد له مثيلًا في تاريخ العصور حتى في العصر الحديث !

فمن مظاهر التسامح الديني أن كانت المساجد تجاور الكنائس في ظل حضارتنا الخالدة ، وكان رجال الدين في الكنائس يعطون السلطة التامة على رعاياهم في كل شؤونهم الدينية والكنسية ، لا تتدخل الدولة في ذلك ، بل إن الدولة كانت تتدخل في حل المشاكل الخلافية بين مذاهبهم وتنصف بعضهم من بعض . فقد كان الملكانيون يضطهدون أقباط مصر في عهد الروم ويسلبونهم كنائسهم ، حتى إذا فتحت مصر رد المسلمون إلى الأقباط كنائسهم وأنصفوهم؟ وتطاول الأقباط بعد ذلك على الملكانيين انتقامًا مما فعلوه بهم قبل الفتح العربي ، فشكوا ذلك إلى هارون الرشيد فأمر باسترداد الكنائس التي استولى عليها القبط بمصر وردها إلى الملكانيين بعد أن راجعه في ذلك بطريرك الملكانيين .

أما حرية رجال الدين في طقوسهم ، وإبقاء سلطاتهم على رعاياهم دون تدخل الدولة في ذلك ، فقد شعر المسيحيون من سكان البلاد بالحرية في ذلك ما لم يشعروا ببعضه في حكم الروم . ولعل أحدًا منا لا ينسى موقف السلطان محمد الفاتح حين استولى على القسطنطينية مقر البطريركية الأرثوذكسية في الشرق كله ، فقد أعلن يومئذ تأمين سكانها - وكلهم نصارى - على أموالهم وأرواحهم وعقائدهم وكنائسهم وصلبانهم وأعفاهم من الجندية ، ومنح رؤساءهم سلطة التشريع والفصل في الخصومات التي تقع بين رعاياهم ، دون أن تتدخل الدولة فيها! فرأى في ذلك سكان القسطنطينية فرقًا كبيرًا بين ما كانوا يعاملون به في عهد البيزنطيين وبين معاملة السلطان محمد الفاتح لهم ، إذ كان البيزنطيون يتدخلون في الخلافات المذهبية ويفضلون أتباع كنيستهم على أتباع الكنائس الأخرى ، فارتاحوا إلى الحكم الجديد ، وانشرحتْ نفوسهم لهذا التسامح

الديني الذي لم يعهدوا له مثيلًا من أبناء ملتهم الحاكمين من قبل ، حتى كان بطريرك الروم بما أعطي من السلطان أشبه بحكومة وسط حكومة ، وظل هو وجماعته متمتعين بخير حال نحو خمسمائة سنة وهم مستقلون بالفعل ولا يتقاضاهم استقلالهم جندًا ولا مالًا . ومن المؤسف أن هذا التسامح الديني الذي لا مثيل له في التاريخ كان مبدأ الامتيازات الأجنبية التي استغلها الغربيون في أواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحاضر استغلالًا سيئًا للقضاء على مظاهر السيادة الوطنية في البلاد .

ومن مظاهر التسامح الديني في حضارتنا أن كثيرًا من الكنائس كان يصلي فيها المسلمون والمسيحيون في وقت واحد إبان الفتح الإسلامي! فقد رأينا كيف سمح النبي لنصارى نجران أن يصلوا في مسجده بجانب المسلمين وهم يصلون صلاتهم . وفي كنيسة يوحنا الكبرى في دمشق التي أصبحت الجامع الأموي فيما بعد رضي المسيحيون أن يأخذ المسلمون نصفها ، ورضي المسلمون أن يصلوا فيها صلاتهم ، فكنت ترى في وقت واحد أبناء الديانتين يصلون متجاورين ، هؤلاء يتجهون إلى القبلة ، وأولئك يتجهون إلى الشرق . وإنه لمظهر عجيب فريد في التاريخ له مغزى عميق في الدلالة على التسامح الديني الذي بلغته حضارتنا !

ومن مظاهر التسامح الديني أن كانت الوظائف تعطى للمستحق الكفء ، بقطع النظر عن عقيدته ومذهبه ، وبذلك كان الأطباء المسيحيون في العهدين الأموي والعباسي محل الرعاية لدى الخلفاء ، وكان لهم الإشراف على مدارس الطب في بغداد ودمشق زمنًا طويلًا . كان ابن أثال الطبيب النصراني طبيب معاوية الخاص ، وكان سرجون كاتبه . وقد عين مروان أثناسيوس مع آخر اسمه إسحاق في بعض مناصب الحكومة في مصر ، ثم بلغ مرتبة الرئاسة في دواوين الدولة ، وكان عظيم الثراء واسع الجاه ، حتى ملك أربعة آلاف عبد وكثيرًا من الدور والقرى والبساتين والذهب والفضة ، وقد شيد كنيسة في الرها من إيجار أربعمائة حانوت كان يملكها فيها ، وبلغ من شهرته أن وكل إليه عبد الملك بن مروان تعليم أخيه الصغير عبد العزيز الذي أصبح واليًا على مصر فيما بعد وهو والد عمر بن عبد العزيز .

ومن أشهر الأطباء الذين كانت لهم الحظوة عند الخلفاء جرجيس بن بختيشوع ، وكان مقربًا من الخليفة المنصور واسع الحظوة عنده ، يحرص على راحته وسروره ، حتى كان لجرجيس زوجة عجوز ، فأرسل إليه المنصور ثلاث جوار حسان فرفض قبولهن قائلًا : إن ديني لا يسمح لي بأن أتزوج غير زوجتي ما دامت في الحياة ، فسر منه المنصور

وازداد له إكرامًا . ولما مرض أمر المنصور بحمله إلى دار العامة (أي دار الضيافة) ، وخرج إليه ماشيًا يسأل عن حاله ، فاستأذنه الطبيب في رجوعه إلى بلده ليدفن مع آبائه ، فعرض عليه المنصور أن يسلم ليدخل الجنة فأبى وقال : رضيت أن أكون مع آبائي في جنة أو نار ، فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار .

وكان سلمويه بن بنان النصراني طبيب المعتصم ، ولما مات جزع عليه المعتصم جزعًا شديدًا وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة ديانته ! .

وكان بختيشوع بن جبرائيل طبيب المتوكل وصاحب الحظوة لديه ، حتى أنه كان يضاهي الخليفة في اللباس وحسن الحال وكثرة المال وكمال المروءة .

وكذلك كانت الحظوة للشعراء والأدباء لدى الخلفاء والأمراء . بقطع النظر عن أديانهم ومذاهبهم . وكلنا يعلم مكانة الأخطل في العهد الأموي ، وقد كان يدخل على عبد الملك دون إذن وهو مرتد عباءة من الحرير عليها تعويذة ، وقد تدلى من عنقه صليب ذهبي مشدود إلى سلسلة ذهبية والخمر تقطر من لحيته! وهو الذي هجا الأنصار في قصيدة طويلة يقول فيها : « واللؤم تحت عمائم الأنصار » فتألم الأنصار لذلك وأرسلوا كبيرهم النعمان بن بشير صاحب رسول الله ﷺ فدخل على عبد الملك بن مروان ورفع عمامته وقال : أترى هنا لؤمًا يا أمير المؤمنين؟ فطيب الخليفة خاطره دون أن يتعرض للأخطل بسوء !

وكان الأفراد كالخلفاء يصادقون من تروق لهم مصادقتهم بقطع النظر عن دينهم . كان إبراهيم بن هلال (الصابي) أي من الصابئة – وهم قوم المجوس لهم ديانة خاصة بهم – قد بلغ أرفع مناصب الدولة ، وتقلد الأعمال الجليلة في تقدمه الشعراء ، وكانت بينه وبين زعماء الأدب والعلم من المسلمين صلات حسنة ، وصداقات وشيجة ، حتى أنه لما مات رثاه الشريف الرضي شيخ الهاشميين العلويين ونقيبهم بقصائد خالدة ، منها قصيدته الدالية التي يقول فيها :

أرأيت من حملوا على الأعواد ... أرأيت كيف خبا ضياء النادي

ما كنت أعلم قبل حطك في الثرى ... أن الثرى يعلو على الأطواد

وظل الشريف بعد ذلك يحن إليه ويقول الشعر في رثائه في كل مناسبة ، ومن رثائه بعد ذلك وقد مر على قبره فأجهش في البكاء :

أقول لركب رائحين تعرجوا ... أريكم به فرعًا من المجد ذاويا

رثيتك كي أسلوك فازددت لوعة … فكان المراثي لا تحد المرازيا
وأعلم أن ليس البكاء بنافع … عليك ولكني أمني الأمانيا

وكانت الحلقات العلمية في حضرة الخلفاء تجمع بين مختلف العلماء على اختلاف أديانهم ومذاهبهم . كانت للمأمون حلقة علمية يجتمع فيها علماء الديانات والمذاهب كلها ، وكان يقول لهم : ابحثوا ما شئتم من العلم من غير أن يستدل كل واحد منكم بكتابه الديني ، كيلا تثور بذلك مشاكل طائفية .

ومثل ذلك كانت الحلقات العلمية الشعبية . قال خلف بن المثنى : لقد شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يعرف مثلهم في الدنيا علمًا ونباهة ، وهم الخليل بن أحمد صاحب النحو (وهو سني) ، والحميري الشاعر (وهو شيعي) ، وصالح بن عبد القدوس (وهو زنديق ثنوي) ، وسفيان بن مجاشع (وهو خارجي صفري) ، وبشار بن برد (وهو شعوبي خليع ماجن) ، وحماد عجرد (وهو زنديق شعوبي) . وابن رأس الجالوت الشاعر (وهو يهودي) ، وابن نظير المتكلم (وهو نصراني) ، وعمر بن المؤيد (وهو مجوسي) ، وابن سنان الحراني الشاعر (وهو صابئي) ، كانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ويتناقلون الأخبار ، ويتحدثون في جو من الود لا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف الشديد في دياناتهم ومذاهبهم! ولقد سرى هذا التسامح إلى البيوت والأسر فكان يجتمع في البيت الواحد أربعة إخوة أحدهم سني ، والثاني شيعي ، والثالث خارجي ، والرابع معتزلي ، وكانوا يعيشون على أتم وفاق . حتى أنه لقد كان في البيت الواحد التقي والفاجر ، هذا ينصرف إلى عبادته وذاك يستغرق في مجونه . ومما تذكره كتب الأدب من هذا السبيل أن أخوين كانا يسكنان دارًا واحدة ، وكان أحدهما تقيًا يسكن في الطابق الأرضي والآخر ماجنًا يسكن في الطابق العلوي ، فسهر ليلة هذا الماجن وعنده بعض أصحابه يغنون ويطربون ويضجون ، مما أزعج التقي ومنعه النوم ، فمد التقي رأسه إلى أخيه الماجن وناداه : ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ ، فأجابه الماجن فورًا : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ .

ومن مظاهر التسامح الديني في حضارتنا الاشتراك بالأعياد الدينية بمباهجها وزينتها . فمنذ العهد الأموي كانت للنصارى احتفالاتهم العامة في الشوارع تتقدمها الصلبان ورجال الدين بألبستهم الكهنوتية . وقد دخل البطريرك ميخائيل مدينة الإسكندرية في احتفال رائع وبين يديه الشموع والصلبان والأناجيل ، والكهنة يصيحون : قد أرسل الرب إلينا الراعي

المأمون الذي هو مرقس الجديد . وكان ذلك في عهد هشام بن عبد الملك .

وجرت العادة أيام الرشيد بأن يخرج النصارى في موكب كبير وبين أيديهم الصليب وكان ذلك في يوم عيد الفصح .

ويذكر لنا المقدسي في أحسن التقاسيم أن الأسواق في شيراز كانت تزين في أعياد النصارى ، وأن المصريين كانوا يحتفلون ببدء زيادة النيل في وقت عيد الصليب .

ويذكر لنا المقريزي في خططه أن الناس – في عهد الإخشيديين – كانوا يحتفلون بعيد الغطاس احتفالًا كبيرًا ، ففي عام ٣٣٠ هـ جرى الاحتفال بعيد الغطاس احتفالًا رائعًا ، وجلس محمد بن طغج الإخشيدي بقصره المختار في جزيرة المنيل ، وقد أسرج حوله ألف قنديل ، وجاراه الشعب فأوقد المشاعل والقناديل والشموع ، وزخرت القوارب بآلاف من النصارى والمسلمين ، ولم يبق من كثرة الناس موضع لقدم على أسطح الدور وشواطئ النهر ، ولبس الجميع أحسن ما عندهم من الثياب وأبهجها ، وأخرجوا الكثير من المآكل والمشرب ، ووضعوهما في أوان من الفضة والذهب ، وكانت ليلة لم تغلق فيها الدروب ، وغطس معظم الناس اعتقادًا منهم أن الاستحمام لليلة الغطاس أمان من المرض وإبراء من الداء .

ومن الغريب أن مثل هذه المظاهر من الود ظلت حتى في الحروب الصليبية حيث كان الغرب يشن أقسى الحملات التاريخية على بلاد الإسلام باسم الصليب ، وهذا هو الرحالة ابن جبير يقول لنا في رحلته : ومن أعجب ما يحدث أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقي الجمعان منهم ويقع المصاف بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض . واختلاف القوافل عن مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وهي من الأمنة على غاية ، وتجار النصارى يؤدون في بلاد المسلمين ضريبة على سلعهم ، والاتفاق بينهم الاعتدال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية والدنيا لمن غلب .

* * *

وبعد ، فإن التسامح الديني في حضارتنا مما لا يعهد له مثيل في تاريخ العصور الماضية ، وقد أجمع المؤرخون الغربيون ممن يحترمون الحق على هذا التسامح وأشادوا به .

يقول المستر درابر الأمريكي المشهور : إن المسلمين الأولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام ، بل فوضوا اليهم

كثيرًا من الأعمال الجسام ورقوهم إلى مناصب الدولة ، حتى أن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا بن ماسويه ، ولم يكن ينظر إلى البلد الذي عاش فيه العالم ، ولا إلى الدين الذي ولد فيه ، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة .

ويقول المؤرخ الشهير المعاصر (ولز) في صدد بحثه عن تعاليم الإسلام : « إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم ، وأنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة ، كما أنها إنسانية السمة ، ممكنة التنفيذ ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي عمّا في أية جماعة أخرى سبقتها ... » إلى أن يقول عن الإسلام : « إنه مليء بروح الرفق والسماحة والأخوة » .

ويقول السر مارك سايس في وصف الإمبراطورية الإسلامية في عهد الرشيد : « وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمون على السواء يعملون في خدمة الحكومة » .

ويقول (ترنون) : « لم يكن للدين دخل في معاملة الشعراء والمغنين » .

ويقول (ليفي بروتستال) في كتابه أسبانيا الإسلامية في القرن العاشر : « إن كاتب الذمم كثيرًا ما كان نصرانيًا أو يهوديًا ، والوظائف مما يتقلده النصارى واليهود ، وقد كانوا يتصرفون للدولة في الأعمال الإدارية والحربية ، ومن اليهود من كانوا ينوبون عن الخليفة بالسفارات إلى دول أوروبا الغربية » .

ويقول رينو في تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط : « إن المسلمين في مدن الأندلس كانوا يعاملون النصارى بالحسنى ، كما أن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين فيختتنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير » .

ويقول أرنولد وهو يتحدث عن المذاهب الدينية بين الطوائف المسيحية : « ولكن مبادىء التسامح الإسلامي حرمت مثل هذه الاعمال التي تنطوي على الظلم ، بل كان المسلمون على خلاف غيرهم إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهدًا في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس ، مثال ذلك : أنه بعد فتح مصر استغل اليعاقبة فرصة إقصاء السلطات البيزنطية ليسلبوا الأرثوذكس كنائسهم ، ولكن المسلمين أعادوها أخيرًا إلى أصحابها الشرعيين بعد أن دلل الأرثوذكس على ملكهم لها ... » وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة التصديق .

وإذا كنا قد توسعنا في التدليل على التسامح الديني في حضارتنا ، فإنما نريد أن نرد

فرية هؤلاء الغربيين المتعصبين على تاريخنا بأننا كنا قساة أكرهنا الناس على الدخول في ديننا وعاملنا غير المسلمين بكل مذلة واضطهاد . وكان من الخير لهم أن لا يفتحوا على أنفسهم هذا الباب ، فإن مخازيهم في التعصب الديني ضد المسلمين في الحروب الصليبية وفي إسبانيا وفي العصر الحاضر مما يطأطئون منه رؤوسهم حياء وخجلاً ، بل إن مخازيهم في اضطهاد بعضهم لبعض مما لا ينكره كل دارس للتاريخ ، وهذه مذابح الكاثوليك والبروتستانت ، وخاصة مذبحة سانت بارتلمي ، والحروب الدينية التي شنتها البابوية على مخالفيها من شعوب أوربا ، ومآسي محاكم التفتيش في القرون الوسطى ، كل ذلك دليل لا يُردّ على أن الغربيين من أشد الناس تعصبًا وحقدًا على مخالفيهم في الرأي والعقيدة ولو كانوا من أبناء جلدتهم! وأنهم لم يعرفوا التسامح الديني خلال تاريخهم في العصور القديمة كلها ، ولا يزالون حتى اليوم يتحكم فيهم هذا التعصب الديني المقيت ضد المسلمين تحت ستار شفاف من السياسة والاستعمار .

ونرى خير ما نختتم به هذا البحث في التدليل على تسامحنا وتعصبهم ، شهادة لحبر كبير من أحبار النصرانية ليس بمتَّهم في تحيّزه . لقد تحدث بطريرك أنطاكية ميخائيل الأكبر وقد عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر – بعد أن خضعت الكنائس الشرقية للحكم الإسلامي خمسة قرون – عن تسمح المسلمين واضطهاد الروم للكنائس الشرقية : « وهذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرد بالقوة والجبروت والذي يديل دولة البشر كما يشاء فيؤتيها من يشاء ويرفع الوضيع ، لما رأى شرور الروم ، الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم وأنزلوا فينا العقاب في غير رحمة ولا شفقة ، أرسل أبناء إسماعيل (العرب) من الجنوب (الجزيرة العربية) ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم ، وفي الحق أننا إذا كنا قد تحملنا شيئًا من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا وإعطائها لأهل خلقيدونية فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم ، ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها – وفي ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حوران – مع ذلك لم يكن كسبًا هينًا أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا ، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام » .

ألست ترى معي أن قول جوستاف لوبون : « إن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا دينًا سمحًا مثل دينهم » هو إنصاف للحق قبل أن يكون إنصافًا للمسلمين ؟! .

- ٦ -

أخلاقنا الحربيّة

وإليكم جانبًا جديدًا من جوانب النزعة الإنسانية في حضارتنا ، وهو جانب تنفرد به حضارتنا أيضًا . إن حسن الخلق ، ولين الجانب ، والرحمة بالضعيف ، والتسامح مع الجار والقريب ، تفعله كل أمة في أوقات السلم مهما أوغلت في الهمجية . ولكن حسن المعاملة في الحرب ، ولين الجانب مع الأعداء ، والرحمة بالنساء والأطفال والشيوخ ، والتسامح مع المغلوبين ، لا تستطيع كل أمة أن تفعله ، ولا يستطيع كل قائد حربي أن يتصف به . إن رؤية الدم تثير الدم ، والعداء يؤجج نيران الحقد والغضب ، ونشوة النصر تسكر الفاتحين فتوقعهم في أبشع أنواع التشفي والانتقام ، ذلك هو تاريخ الدول قديمها وحديثها ، بل هو تاريخ الإنسان منذ سفك قابيل دم أخيه هابيل : ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) . وهنا يضع التاريخ أكليل الخلود على قادة حضارتنا عسكريين ومدنيين ، فاتحين وحاكمين ، إذ انفردوا من بين عظماء الحضارات كلها بالإنسانية الرحيمة العادلة في أشد المعارك احتدامًا ، وفي أوقات الحالات التي تحمل على الانتقام والثأر وسفك الدماء ، وأقسم لولا أن التاريخ يتحدث عن هذه المعجزة الفريدة في تاريخ الأخلاق الحربية بصدق لا مجال للشك فيه ، لقلت إنها خرافة من الخرافات ، وأسطورة لا ظل لها على الأرض ! .

جاءت حضارتنا والعالم كله يسير على سنة الغاب . القوي يقتل الضعيف ، والمسلّح يسترق الأعزل ، والحرب شرعة معترف بها بين جميع الشرائع والديانات والأمم والشعوب ، من غير قيد ولا حدّ ، ومن غير تفريق بين حرب جائزة وحرب ظالمة ، فكل من استطاع أن يغلب أمة على أرضها ، ويكرهها على ترك عقيدتها ، ويسترق رجالها ونساءها ، فعل من غير تحرج ولا تأثم . فلم ترض حضارتنا أن تقر هذه الشرعة الظالمة التي تردت فيها الإنسانية إلى مستوى الحيوانية الشرسة ، بل أعلنت أن الأصل في العلائق بين الأمم التعارف والتعاون : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (٢) . وبذلك كان السلم هو العلاقة الطبيعية بين الشعوب :

---

(١) المائدة : ٢٧ .

(٢) الحجرات : ١٣ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾ (١) فإذا أبت أمة إلا الحرب والعدوان على أمة أخرى ، كان على هذه الأمة أن تستعد لمجابهة العدوان ، فإنَّ ترك الاستعداد يغري بالعدوان ويسرع به : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ ﴾ (٢) . فإذا عدلت تلك الأمة عن نية العدوان ورهبت السلم المسلّح ، كان على الأخرى أن تركن إلى السلم وتحرص عليه : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ (٣) . وإن أبت إلا الحرب ، فالقوة تدفع القوة ، والعدوان يدفع بمثله : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾ (٤) . وهنا تعلن مبادئ حضارتنا تحريم الحروب للغزو ونهب الأموال ، وإذلال كرامة الشعوب ، وإنما الحرب المشروعة ما كانت لغايتين اثنتين :

١ - دفاع عن عقيدة الأُمة وأخلاقها .

٢ - ودفاع عن حرية الشعب واستقلاله وسلامه : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ ﴾ (٥) . وليست حرية العقيدة هي المطلوبة للأمة التي تعلن الحرب فحسب ، بل عليها أن تضمن حرية العقائد كلها ، وتحمي أماكن العبادة لكل الديانات : ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ ﴾ (٦) . وأروع ما نادت به حضارتنا : أن الدفاع عن الضعفاء المستذلين في الشعوب الأخرى واجب علينا كما يجب الدفاع عن حريتنا وكرامتنا : ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (٧) . هذه الحرب التي تعلن للدفاع عن العقيدة وعن الحرية والسلم هي الحرب المشروعة التي توصل إلى الله وتمنح الجنة لشهدائنا ، هي الحرب التي وصفتها حضارتنا بأنها حرب في سبيل الله ، وما عداها فهي حرب في سبيل الطغيان والفساد . وما أروع هذه المقارنة بين الحرب الجائزة في حضارتنا ، والحرب المعروفة عند الأمم كلها في هذه الآية القرآنية الكريمة : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ

---

(١) البقرة : ٢٠٨ .
(٢) الأنفال : ٦٠ .
(٣) الأنفال : ٦١ .
(٤) البقرة : ١٩٠ .
(٥) البقرة : ١٩٣ .
(٦) الحج : ٤٠ .
(٧) النساء : ٧٥ .

ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (١) . حضارتنا تعلن الحرب في سبيل الله ، أي طريقه ، وطريق الله خير وحق وكرامة ، والناس يعلنون حربًا للطغيان والشيطان ، والشيطان شر وبغي وفساد . . وإذا كانت هذه الغاية من حروب حضارتنا ، لم يجز لها حين تعلن الحرب في سبيل الحق والخير أن تنقلب إلى أداة تصنع الباطل والشر . ومن أجل ذلك كان من مبادئ حضارتنا في الحرب أن لا تقاتل إلا من يقاتلها ويعتدي عليها : ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ (٢) ، فإن تجاوزنا ذلك فقاتلنا من لم يقاتل وآذينا من لم يؤذ ، كنا معتدين ننحرف بالحرب الإنسانية عن غاياتها وأهدافها : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ (٣) . ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ۝ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (٤) . فإذا قامت الحرب كان علينا أن لا ننسى مبادئنا ، فنقسو ونفسد ونظلم وننشر الخراب والدمار ... كلا .. فالحرب الإنسانية الخالصة لله يجب أن تظل إنسانية في وسائلها وعند اشتداد وطيسها . ومن هنا جاءت الوصايا التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ : « لا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا ، ولا شيخًا كبيرًا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلًا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » (٥) .

أرأيت كيف تكون الحرب الإنسانية التي تشرع في سبيل الله لا للشر والعدوان ؟ .. وتستمر هذه الحرب متقيدة بهذه المبادئ الإنسانية الرحيمة حتى تنتهي بأحد أمرين : إما الصلح ، وإما النصر . أما الصلح : فالعهود فيه محترمة ، والوفاء بما تضمنته واجب : ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ ﴾ (٦) . وأما النصر : فهو انتصار الجماعة التي غضبت للحق واستشهدت في سبيله ، فلن تفعل حين انتصارها إلا ما يوطد أركان الحق في الأرض ، ويمنع البغي والفساد بين الناس : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ

---

(١) النساء : ٧٦ .
(٢) البقرة : ١٩٤ .
(٣) البقرة : ١٩٠ .
(٤) الشورى : ٤١ ، ٤٢ .
(٥) من وصية أبي بكر لجيش أسامة .
(٦) النحل : ٩١ .

ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (١) . وهذا كما ترون تحديد لأعمال الدولة المنتصرة ورسالتها بعد النصر : سمو بالروح ، وعدالة في المجتمع ، وتعاون على الخير ونفع الناس ، ومكافحة للشر والفساد في الأرض .

هذه هي مبادئ الحرب في حضارتنا ، وتلك هي أخلاقنا الحربية : عدل ورحمة ووفاء .

وليس يكفي هذا في رأينا للإشادة بروح حضارتنا المسالمة في الحرب ، فالمبادئ وحدها ليست دليلًا على سمو أمة وإنسانيتها ، ولطالما رأينا أممًا تحمل للناس أرفع المبادئ وهي تعيش معهم في أقساها وأخسها وأبعدها عن الإنسانية والرحمة! وما حوادث الاستعمار في بلادنا بسر ، ولا سجل فظائعه وقسوته عنا ببعيد ؛ إذًا فلننظر في الواقع التطبيقي لهذه المبادئ كيف كان في حضارتنا ، هنا تسودٌّ وجوه وتبيضٌّ وجوه ، وهنا نمتاز عن الشعوب كلها ، ونقف وحدنا لا يشاركنا في نزعتنا الإنسانية في الحرب شعب ولا حضارة .

ولنبدأ قبل كل شيء برسول الله ﷺ فهو رائد حضارتنا وواضع أساسها وشريعتها ، وهو التعبير الصادق عن أخلاقها وأهدافها ورسالتها ، ولسنا نعلم أحدًا من الأنبياء والمرسلين والمصلحين عُذب واضطهد وأوذي في سبيل دعوته كما وقع لرسول الله ﷺ ، ثلاثة عشر عامًا في مكة ... كلها كيد وأذى وسب وتعذيب له ولجماعته ، ومؤامرات على حياته وحياة أصحابه . وعشر سنوات في المدينة ... هي كفاح ومعارك متواصلة ، لم يخلع فيها لباس الحرب إلا حين خضعت له جزيرة العرب قبيل وفاته! ومن خاض الحروب وحمل السيف ، وقاتل وقوتل ، وعودي واضطهد ، كان من أشد الناس شوقًا إلى الدماء ، وظمأ إلى الانتقام . فكيف كان خلق رسول الله في حروبه؟ كيف طبق صاحب الحضارة مبادئها التي أعلنها للناس ؟ .

حين انهزم المسلمون في أُحُد لمخالفتهم وصايا الرسول ، وأحاط الأعداء به يجهدون جهدهم لقتله ، ودافع عنه أصحابه دفاعًا مستميتًا ، خرج من المعركة جريحًا ، قد كسرت رباعيته ، وشج وجهه ، ودخلت حلقتان من حلقات المغفر في وجنته . فقال له بعض الصحابة : لو دعوت عليهم يا رسول الله ، فقال لهم : « إني لم أبعث لعانًا ،

---

(١) الحج : ٤١ .

ولكني بعثت داعية ورحمة .. اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » . هذا هو منطق الحق الذي يُضطر للحرب ، هذا هو منطق النبي الذي لا يحارب ظمأ إلى سفك الدماء ، ولكن رغبة في هداية الضالين .

وفي معركة أُحد قُتل أسد الله حمزة ، عم النبي وأشهر أبطال العرب ، قتله رجل يقال له وحشي ، بتحريض من هند زوج أبي سفيان . ولما خر البطل ، أخذت هند تفتش عن قلب حمزة حتى احتزته ، ثم مضغته مبالغة في التشفي والانتقام! ثم أسلمت هند وأسلم وحشي . فماذا كان من رسول الله؟ لم يزد على أن استغفر لهند ، وقبل إسلام وحشي وقال له : إن استطعت أن تعيش بعيدًا عنا فافعل . هذا كل ما كان من رسول الله مع قاتل عمه حمزة ومع ماضغة قلبه! ورأى في بعض حروبه امرأة من الأعداء مقتولة ، فغضب وأنكر وقال : « ألم أنهكم عن قتل النساء؟ ما كانت هذه لتقاتل » . هذا هو رسول الله المحارب يطبق مبادئه الإنسانية وهو يخوض الغمار ويقود الكتائب .

ولما فتح مكة ودخلها الرسول ظافرًا على رأس عشرة آلاف من أبطاله وجنوده ، واستسلمت قريش ، ووقفت تحت قدميه على باب الكعبة ، تنتظر حكم الرسول عليها بعد أن قاومته إحدى وعشرين سنة . . ما زاد ﷺ على أن قال : « يا معشر قريش ! ماذا تظنون أني فاعل بكم ؟ .. » قالوا خيرًا : أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : « اليوم أقول لكم ما قال أخي يوسف من قبل : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ . اذهبوا فأنتم الطلقاء » ... إنه أيها الناس محمد الرسول معلم الإنسانية الخير ، لا القائد السفاح الذي يسعى لمجده وسلطانه فتسكره نشوة النصر .

وسيرة أصحابه وخلفائه من بعده في حروبهم وفتوحاتهم كانت قبسًا من هذا النور ، وسيرًا في هذا الطريق ، وتنفيذًا لتلك المبادئ ، لم يفقدوا أعصابهم في أشد الأوقات حرجًا ، ولم ينسوا مبادئهم في أعظم الفتوحات انتصارًا .

ثار بعض سكان لبنان على عاملها علي بن عبد الله بن عباس ، فحاربهم وانتصر عليهم ، ورأى من الحكمة أن يفرقهم ويجلي فريقًا منهم عن ديارهم إلى أماكن أخرى ، وهذا أقل ما يمكن أن يفعله اليوم حاكم في أرقى الأمم ، فما كان من الإمام الأوزاعي ، إمام الشام ومجتهدها وعالمها ، إلا أن كتب إلى والي لبنان رسالة ينكر عليه ما فعل ، من إجلاء بعض اللبنانيين عن قراهم ، ومعاقبة من لم يشترك في الثورة كمن اشترك فيها . وكان مما كتب إليه في ذلك : « وقد كان من إجلاء أهل الذمة في جبل لبنان ، ممن لم

يكن ممالئًا لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت ، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وحكم الله تعالى ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ، وهو أحق ما وُقف عنده واقتُدي به ، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله ﷺ فإنه قال : من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة » (١) . فما كان من والي لبنان إلا أن ردهم إلى قراهم معززين مكرمين !

أنا لا أريد أن أعلق علي هذه الحادثة ، وحسبي أن أذكّر الناس بما كان يعاملنا به الفرنسيون في ثورتنا ، . يوم كانوا في هذه البلاد ، وما يعاملون به الآن سكان الشمال الإفريقي العربي من تقتيل عشرات الألوف بالجملة ، وتخريب عشرات المدن والقرى فوق رؤوس سكانها حتى تسوى بالأرض ، وتصبح قاعًا صفصفًا . وحسبي أن أذكّر الناس بمآثر الإنجليز في فلسطين إبان الثورات العربية فيها ... حسبي هذا لأصل إلى ما أريد من لفت الأنظار إلى روائع حضارتنا في الحروب والفتوحات .

ولما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز ، وفد اليه قوم من أهل سمرقند ، فرفعوا إليه أن قتيبة قائد الجيش الإسلامي فيها دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين غدرًا بغير حق . فكتب عمر إلى عامله هناك أن ينصب لهم قاضيًا ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين من سمرقند أخرجوا . فنصب لهم الوالي (جميع بن حاضر الباجي) قاضيًا ينظر في شكواهم ، فحكم القاضي وهو مسلم ، بإخراج المسلمين! على أن ينذرهم قائد الجيش الإسلامي بعد ذلك ، وينابذهم وفقًا لمبادئ الحرب الإسلامية ، حتى يكون أهل سمرقند ، على استعداد لقتال المسلمين فلا يؤخذوا بغتة . فلما رأى ذلك أهل سمرقند ، رأوا ما لا مثيل له في التاريخ من عدالة تنفذها الدولة على جيشها وقائدها! قالوا : هذه أمة لا تحارب ، وإنما حكمها رحمة ونعمة . فرضوا ببقاء الجيش الإسلامي ، وأقروا أن يقيم المسلمون بين أظهرهم . أرأيتم ... جيش يفتح مدينة ويدخلها ، فيشتكي المغلوبون للدولة المنتصرة ، فيحكم قضاؤها على الجيش الظافر ويأمر بإخراجه ، ولا يدخلها بعد ذلك إلا أن يرضى أهلها ! .. أرأيتم في التاريخ القديم والحديث حربًا يتقيد أصحابها بمبادئ الأخلاق والحق كما تقيد به جيش حضارتنا؟ إني لا أعلم في الدنيا كلها مثل هذا الموقف لأمة من أمم الأرض .

---

(١) رواه أبو داود والبيهقي في سننهما .

ولما فتحت جيوشنا الظافرة دمشق وحمص وبقية المدن السورية ، وأخذوا من أهلها مبالغ من المال صلحًا لقاء حمايتهم والدفاع عنهم ، رأى قادتنا بعد أن جمع هرقل لهم الجموع لينازلهم في معركة فاصلة ، أن يخلوا المدن المفتوحة ويتجمعوا في مكان واحد ينازلون به الروم مجتمعين . وخرج جيشنا من حمص ودمشق والمدن الأخرى ، وجمع خالد أهل حمص وأبو عبيدة أهل دمشق ، وغيرهما من القادة أهل المدن الأخرى وقالوا لهم : إنا كنا قد أخذنا منكم أموالًا على أن نحميكم وندافع عنكم ، ونحن الآن خارجون عنكم لا نملك حمايتكم ، فهذه أموالكم نردها إليكم ! فقال أهل المدن : ردكم الله ونصركم ، والله لحكمكم وعدلكم أحب إلينا من جور الروم وظلمهم . والله لو كانوا مكانكم لما دفعوا إلينا شيئًا أخذوه ، بل كانوا يأخذون معهم كل شيء يستطيعون حمله! نعم كما تفعل الجيوش في العصر الحاضر اليوم حين تضطر للجلاء عن مدينة لا تترك فيها أثرًا ينتفع منه العدو . فهل سمعتم بمثل هذا؟ أما والله لولا أني أؤمن بالمثل العليا وانتصارها ، ولو كنت ممن يخضعون المبادئ للغايات السياسية كما يفعل ساسة هذا العصر ، لقلت إن قادة جيشنا بلغوا في التمسك بالمبادئ والمثل العليا حد الغفلة والبلاهة ، ولكنهم قوم مؤمنون يكرهون أن يقولوا ما لا يفعلون .

وفي حروب التتار في بلاد الشام ، وقع بأيديهم كثير من أسرى المسلمين والنصارى واليهود ، ثم تدخل شيخ الإسلام ابن تيمية مع أمير التتار في أمر الأسرى وفك أسرهم ، فأجابه الأمير إلى فك أسرى المسلمين فقط دون النصارى واليهود ، فأبى شيخ الإسلام ذلك وقال له : لا بد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ، ولا ندع أسيرًا لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة .

وهل أتاكم نبأ الحروب الصليبية التي شنها علينا الغربيون في القرون الوسطى؟ . . أما سمعتم كيف كنا نفي ويغدرون . ونصفح وينتقمون ، ونصون الدماء ، ويخوضون فيها إلى الركب وهم يتلذذون ويطربون؟ .

حين وصل الصليبيون في الحملة الثانية إلى معرة النعمان حاصروها حتى اضطر أهلها للاستسلام ، بعد أن أخذوا من رؤساء الحملة عهودًا مؤكدة بالمحافظة على النفوس والأموال والأعراض . فما كادوا يدخلونها حتى ارتكبوا من الفظائع ما تشيب له الولدان . وقدر بعض المؤرخين الإفرنج الذين كانوا في هذه الحملة عدد الذين قتلوهم بين رجال ونساء وأطفال بمائة ألف! ثم تابعوا سيرهم إلى بيت المقدس ، وشددوا الحصار على

أهلها ، ورأى أهلها أنهم مغلوبون لا محالة فطلبوا من قائد الحملة (طنكرد) الأمان على أنفسهم وأموالهم . فأعطاهم رايته يرفعونها على المسجد الأقصى ويلجؤون إليه آمنين على كل شيء . ودخلوا المدينة بعد ذلك ، فيا لهول المجزرة ، ويا لقسوة الإجرام ! .. لجأ سكان القدس إلى الأقصى الذي رفعوا فوقه راية الأمان ، حتى إذا امتلأ بمن فيه من شيوخ وأطفال ونساء ذُبحوا ذبح النعاج ، فسالت الدماء من المعبد حتى ارتفعت إلى ركبة الفارس . وطهرت المدينة بذبح كل من فيها تمامًا ، حتى كانت شوارعها تعج بالجماجم المحطمة والأذرع والأرجل المقطعة والأجسام المشوهة . ويذكر مؤرخونا أن عدد الذين ذبحوا في داخل المسجد الأقصى فقط سبعين ألفًا! منهم جماعة كبيرة من الأئمة والعباد والزهاد فضلًا عن النساء والأطفال . ولا ينكر مؤرخو الفرنج هذه الفظائع ، وكثير منهم يتحدثون عنها فخورين ! .

وبعد ٩٠ سنة من هذه المجزرة فتح صلاح الدين بيت المقدس فماذا فعل ؟ .. لقد كان فيها ما يزيد على مائة ألف غربي بذل لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ، وسمح لهم بالخروج لقاء مبلغ قليل يدفعه المقتدرون منهم ، وأعطاهم مهلة للخروج أربعين يومًا ، فجلى منها أربعة وثمانون ألفًا لحقوا بإخوانهم في عكا وغيرها ، ثم أطلق كثيرًا من الفقراء من غير الفدية . وأدى أخوه الملك العادل الفدية عن ألفي رجل منهم . وعامل النساء معاملة لا تصدر عن أرقى ملك منتصر في العصر الحديث . ولما أراد البطريرك الافرنجي أن يخرج ، سمح له بالخروج ومعه من أموال البِيع والصخرة والأقصى والقيامة ما لا يعلمه إلا الله . واقترح بعض حاشية صلاح الدين عليه أن يأخذ ذلك المال العظيم ، فأجابه السلطان : « لا أغدر به » ولم يأخذ منه إلا ما كان يأخذه من كل فرد . ومما يزيد في روعة هذا العمل الإنساني الذي عمله صلاح الدين في فتح بيت المقدس ، أنه أرسل مع جماهير الغربيين الذين نزحوا من القدس لينضموا إلى إخوانهم من يحميهم ويوصلهم إلى أماكن الصليبيين في صور وصيدا بأمان ، مع أنه لا يزال في حرب معهم! فهل تستطيعون أن تضبطوا أعصابكم حين تسمعون مثل هذا؟ واسمعوا بقية القصة .. اجتمع كثير من النساء اللواتي دفعن الجزية وذهبن إلى السلطان يتوسلن إليه قائلات أنهن إما زوجات أو أمهات أو بنات لبعض من أُسِر أو قتل من الفرسان والجنود ولا عائل لهن ولا مأوى ، ورآهن يبكين فبكى معهن تأثرًا وشفقة ، وأمر بالبحث عن الأسرى من رجالهن ، وأطلق الذين وجدهم وردهم إلى نسائهم . أما اللواتي مات أولياؤهن فقد منحهن مالًا كثيرًا ، جعلهن يلهجن عليه بالثناء أينما سرن . ثم سمح لهؤلاء الذين

أعتقهم أن يتوجهوا مع نسائهم وأولادهم إلى سائر إخوانهم اللاجئين في صور وعكا . . فعل هذا بينما قصد بعض الفقراء الغربيين الذين تركوا القدس بعد فتحها إلى أنطاكية . فأبى أميرها الصليبي أن يقبلهم فهاموا على وجوههم حتى آواهم المسلمون . وذهب فريق منهم إلى طرابلس وهي تحت حكم اللاتين . فطردوهم وأبوا قبولهم وسرقوا أمتعتهم التي منحهم إياها المسلمون !

إن قصة صلاح الدين مع الغربيين في الحروب الصليبية تشبه الأساطير ، ولولا أن الغربيين أنفسهم لا يكاد ينتهي عجبهم من نبل هذا البطل الخالد وسمو أخلاقه ، لكان هنالك مجال لاتهام مؤرخينا بالمبالغة . والغربيون أنفسهم هم الذين يذكرون عن صلاح الدين أنه بلغه مرض ريتشارد قلب الأسد - أكبر قواد الحملات الصليبية وأشجعهم - فأرسل إليه صلاح الدين طبيبه الخاص يحمل إليه العلاج والفواكه التي لا يمكن أن يحصل عليها ذلك القائد الصليبي . هذا والحرب بينهما مستعرة ، وجيشاهما في صراع! وهم الذين يذكرون أن امرأة غربية ألقت بنفسها على خيمة السلطان صلاح الدين تبكي وتولول وتشكو إليه أن اثنين من جنود جيشه خطفا لها ولدها ، فبكى صلاح الدين وأرسل من يفتش عن الولد حتى وجدوه وسلّم إليها . وأرسلت بحراسة الجيش إلى معسكرها آمنة مطمئنة ، فماذا يقول قائل بعد هذا ؟ .

ولما فتح السلطان محمد الثاني القسطنطينية ، دخل إلى كنيسة آيا صوفيا ، وكان قد لجأ إليها رجال الكنيسة ، فأحسن استقبالهم وأكد حمايته لهم ، وطلب من المسيحيين الفزعين الموجودين فيها أن يذهبوا إلى بيوتهم آمنين . ثم نظم شؤون المسيحيين ، فترك لهم حق اتباع كنائسهم الخاصة ، وقوانينهم الملية ، وتقاليدهم المتعلقة بأحوالهم الشخصية ، وترك للقساوسة انتخاب بطريرك لهم ، فانتخبوا (جناديوس) واحتفل السلطان بانتخابه بنفس الأبهة التي كانت متبعة في عهد البيزنطيين ، وقال له : لتكن بطريركًا على صداقتي في كل وقت وظرف ، ولتتمتع بكل الحقوق والامتيازات التي كانت لمن سبقك . ثم أهداه فرسًا جميلًا ، وجعل له حرسًا خاصًا من الإنكشارية (وهم حرس السلطان الخاص) وصحبه (باشاوات) الدولة إلى المكان الذي أعد له ، ثم أعلن السلطان الفاتح اعترافه بقوانين الكنيسة الأرثوذكسية ، ووضعها تحت رعايته ، وجمعت واشتريت كل آثار القديسين ومخلفاتهم التي نهبت يوم الفتح ، وسلمت إلى الكنائس والأديرة ! .

فعل السلطان محمد الفاتح هذا دون أن يكون بينه وبين المسيحيين في القسطنطينية عند الفتح شروط يلزم بالوفاء بها ، وإنما تبرع بهذه الحماية والرعاية ، ما جعلهم يشعرون من بعده أنهم في رعاية الدولة الإسلامية الجديدة أكثر أمنًا وسلامًا وحرية دينية منهم حين كانوا تحت رعاية الدولة البيزنطية! واستمر الأباطرة العثمانيون يحسنون معاملتهم للرعايا المسيحيين في الدول المجاورة التي يفتتحونها ، كاليونان والبلغار وغيرهما ، مما لم يكن معهودًا مثله في ذلك الوقت في سائر أوربا . حتى أن أصحاب (كلفن) في المجر وترانسلفانيا ، وأصحاب مذهب التوحيد من المسيحيين ، الذين كانوا في ترانسلفانيا ، طالما آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع في أيدي أسرة هبسبورج المتعصبة! ونظر البروتستانت في سليزيا إلى تركيا بعيون الرغبة ، وتمنوا بسرور أن يشتروا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامي ، وبينما كان المسلمون يعاملون المسيحيين تحت حكمهم بهذا التسامح الديني الكريم ، كان المسيحيون في بلاد أوربا يعانون من وطأة حكامهم وتعصب الطوائف الدينية بعضها ضد بعض ما أسال الدماء وأذاع الفتنة والرعب . واستمع إلى ما يقوله بطريرك أنطاكية (مقاريوس) في القرن السابع عشر ، عن الفظائع التي أوقعها الكاثوليك البولنديون ضد إخوانهم الأرثوذكس ، قال : « إننا جميعًا قد ذرفنا دمعًا غزيرًا على آلاف الشهداء الذين قتلوا في هذه الأعوام الأربعين أو الخمسين على يد أولئك الأشقياء الزنادقة أعداء الدين (أي الكاثوليك) وربما كان عدد القتلى سبعين ألفًا ، فيا أيها الخونة ! يا مردة الرجس! يا أيتها القلوب المتحجرة ! ماذا صنع الراهبات والنساء؟ ما ذنب هؤلاء الفتيات والصبية والأطفال الصغار حتى تقتلوهم ؟ ولماذا أسميهم البولنديين الملعونين ؟ لأنهم أظهروا أنفسهم أشد انحطاطًا وأكثر شراسة من عباد الأصنام المفسدين ، وذلك بما أظهروه من قسوة في معاملة المسيحيين ، وهم يظنون بذلك أنهم يمحون اسم الأرثوذكس . أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد ، فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان ، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين ، يهودًا أو سامرة ، أما هؤلاء البولنديون الملاعين ، فلم يقنعوا بأخذ الضرائب والعشور من إخوان المسيح ، بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر ، بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح ، الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس ، ولا بأن يتركوا لهم قسًا يعرفون أسرار دينهم » .

ولا بد لي وأنا أتحدث عن احترام السلطان محمد الفاتح لأيا صوفيا وحقوق المسيحيين في القسطنطينية ، من أن أذكر ما فعله الصليبيون حين قدموا من أوربا فاستولوا

على القسطنطينية عام ١٢٠٤ .. اسمع ما يقوله البابا أنسنت الثالث في وصف ما فعله هؤلاء في إخوانهم الأرثوذكس : « إن أتباع المسيح وناصري دينه الذين كان يجب أن يستلوا سيوفهم ضد عدو المسيحية الأكبر (يعني الإسلام) قد سفكوا الدم المسيحي الحرام ، وغرقوا في بحاره . هؤلاء لم يحترموا الدين ولا السن والجنس ، فارتكبوا الزنى في وضح النهار . لقد سلّمت الراهبات والعذارى والأمهات لوحشية الجنود ... ولم يكتف هؤلاء بسلب ذخائر الإمبراطور ولا نهب متاع الأفراد ، بل لقد وضعوا أيديهم على أرض الكنائس وثروتها ، وانتهكوا حرمات الكنائس وسلبوا أيقوناتها وصلبانها وآثارها ومخلّفات القديسين » . واسمع ما يقوله المؤرخ شارل ديل : « لقد دخل الجنود السكارى كنيسة سانت صوفيا ، وأتلفوا الكتب المقدسة ، وداسوا بأقدامهم صور الشهداء ، وجلست عاهرة على كرسي البطريرك ، وارتفع صوتها بالغناء! لقد قضي على آيات الفن في المدينة ، وأذيبت التماثيل لتسك نقودًا » . واعترف أحد الرهبان الذين شاهدوا هذا الحادث الأليم فقال : « إن أتباع محمد ما كانوا يعاملون المدينة مثلما عاملها جنود المسيح » . أجل إنهم لم يفعلوا ذلك حين فتحوها كما رأيت من صنيع السلطان محمد الفاتح ، ولم يكن منهم وهم مسلمون أن يتدنوا إلى التعصب الديني السمج الأثيم الذي بدا من الكاثوليك نحو إخوانهم الأرثوذكس ! .

ولا أريد أن أفيض في المقارنة بين أخلاق الفاتحين المسلمين في الأندلس ، وحسن معاملتهم للمغلوبين ، ورحمتهم بهم ورعايتهم لشعورهم ، وبين ما فعله الأسبان حين استولوا على غرناطة (آخر مملكة للإسلام في الأندلس) بعد أن أعطوا المسلمين بضعًا وستين عهدًا باحترام ديانتهم ومساجدهم وأموالهم وأعراضهم ، ولكنهم لم يرعوا عهدًا ، ولم يفوا بذمة ، ولم يعفّوا عن سفك الدماء وإزهاق الأرواح وسلب الثروات ، فلم يكد يمضي على سقوط غرناطة اثنتان وثلاثون سنة حتى أصدر البابا أمره عام ١٥٢٤ بتحويل جميع مساجد أسبانيا إلى كنائس ! ولم تمر بعد ذلك أربع سنوات أخرى حتى لم يبق في أسبانيا كلها مسلم واحد! هذا هو وفاؤهم بالعهود .. وذلك هو وفاؤنا .

ومن عجيب أن قسوتهم ونكثهم للعهود كانت فيما بينهم بعضهم مع بعض ، لا تقل عما هي عليه في موقفهم منا .. إنهم القساة الغلاظ الأكباد في كل بلد يغلبونه شرقيًا كان أو غربيًا ، وهم القساة الغلاظ الأكباد مع كل ضعيف يهزمونه مسلمًا كان أو نصرانيًا . وها هم أنفسهم يتحدثون عن قسوتهم .

كتب القس أودوالدويلي أحد رهبان القديس دينيس الذي كان يشغل وظيفة قسيس خاص للويس السابع وصحبه في الحملة الصليبية الثانية عن بعض مشاهداته فقال : « بينما كان الصليبيون يحاولون شق طريقهم برًّا عن طريق آسيا الصغرى إلى بيت المقدس ، منوا بهزيمة فادحة على أيدي الترك في ممرات فريجيا الجبلية عام ١١٤٨ ، وبلغوا مدينة أتاليا الساحلية بشق الأنفس ، وهنا تمكن جميع الذين استطاعوا أن يرضوا المطالب الفادحة التي كان يفرضها عليهم تجار الإغريق من الإبحار إلى أنطاكية ، بينما خلفوا وراءهم المرضى والجرحى وعامة الحجاج تحت رحمة الخونة من حلفائهم الإغريق ، الذين أخذوا مبلغ خمسمائة مارك من لويس على شريطة أن يمدوا الحجيج بقوة من الحرس ، وأن يعنوا بالمرضى حتى يصبحوا من القوة بحيث يمكن إرسالهم ليلحقوا بسائر زملائهم . ولكن لم يكد الجيش يغادر المكان حتى أخبر الإغريق الترك بموقف الحجيج الأعزل ، وراقبوا في صمت ما أصاب هؤلاء التاعسين من المجاعة والمرض وسهام العدو التي جرت عليهم الدمار والخراب وهم في طريقهم إلى معسكرهم . وحاولت جماعة تبلغ ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف أن تلوذ بالفرار بدافع من اليأس ، ولكن الترك الذين كانوا قد بلغوا المعسكر وهجموا عليه ليتابعوا انتصارهم أحدقوا بهم ومزقوهم شر ممزق ، وكاد يكون موقف من نجا من الموت منهم قد بلغ حد اليأس لو أن منظر شقائهم لم يذب قلوب المسلمين ويستدر شفقتهم ، فواسوا المرضى ، وأغاثوا الفقير والجائع الذي أشرف على الهلاك ، وبذلوا لهم العطاء في كرم وسخاء ، بل لقد اشترى بعضهم النقود الفرنسية التي ابتزها الإغريق من الحجاج بالقوة أو الخداع ، ووزعوها بسخاء بين المعوزين منهم ، فكان البون شاسعًا بين المعاملة الرحيمة التي لقيها الحجاج من الكفار (يعني المسلمين) وبين ما عانوه من قسوة إخوانهم المسيحيين من الإغريق الذين فرضوا عليهم السخرة وضربوهم وابتزوا منهم ما ترك لهم من متاع قليل ! حتى إن كثيرًا منهم دخلوا في دين منقذيهم بمحض إرادتهم ، وكما يقول المؤرخ القديم : « لقد جفوا إخوانهم في الدين الذين كانوا قساة عليهم ، ووجدوا الأمان بين الكفار (المسلمين) الذين كانوا رحماء عليهم » . ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تقهقروا إلى صفوف الأتراك .. آه ، إنها لرحمة أقسى من الغدر! لقد منحوهم الخبز ولكنهم سلبوهم عقيدتهم ، ولو أن من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحدًا من بينهم على نبذ دينه ، وإنما اكتفوا بما قدموا لهم من خدمات » .

وبعد .. فلماذا نذهب بعيدًا وهذه أخلاق الغربيين المستعمرين في الحربين العالميتين

وآثار قسوتهم فيها ، وها هي أخلاقهم في الشرق العربي والإسلامي ، ناطقة على مدى القسوة التي تتصف بها ضمائرهم في حروبهم وحكمهم ، وعلى مدى النفاق الذي بلغوه حين يعلنون في المحافل الدولية إنسانيتهم ورحمتهم ، وهم في حروبهم ومستعمراتهم والبلدان الخاضعة لحكمهم يعلنون وحشيتهم وضراوتهم . ولئن كان بعض الناس يعتذر عن فظائع الغربيين في القرون الوسطى بأنهم قوم لم تهذبهم المدنية بعد ، فما هو عذرهم الآن وهم أرباب الحضارة وأساتذة الدنيا في العلوم والفنون والمخترعات؟ إن المسألة في رأينا مسألة طبع أصيل يغلب كل تطبع وتصنع ، فالغربيون ما يزالون يحملون في نفوسهم وطباعهم خصائصهم يوم كانوا قبائل متوحشة وثنية ، ثم اختبأت هذه الطبائع في القرون الوسطى وراء الدين فحمّلته وزر وحشيتهم . وهي تختبئ الآن وراء الحضارة فتحمل « السلام والاستقرار » و « التمدن والتهذيب » وزر قسوتهم ؛ إنهم هم في كل العصور .. سكان الأدغال وسفاكو الدماء ، وعبدة القوة ، ووحوش التعصب . فكيف يحق لهم أن يتحدثوا عن قسوتنا في الفتوحات ورحمتهم في الاستعمار؟ لعمري ما نحن وهم إلا كما قال الشاعر :

ملكنا فكان العفو منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وما عجب هذا التفاوت بيننا ... فكل إناء بالذي فيه ينضح

- ٧ -

الرفق بالحيوان

وهذا موضوع طريف في صدد الحديث عن روائع حضارتنا ، وإن لم يكن غريبًا بالنسبة إلى العصر الذي نعيش فيه . فقد كانت الإنسانية حتى العصر الحديث لا ترى أن للحيوان نصيبًا من الرفق ، أو حظًا من الرحمة . ولا تزال بعض الأمم المعاصرة تتلهى بقتل الحيوان في أعيادها ومجال أفراحها ورياضتها . وهنا تبرز حضارتنا في مبادئها وواقعها بثوب من الرحمة والشعور الإنساني المرهف لم تلبسه حضارة من قبلها ، ولا أمة من بعدها حتى اليوم . ذلك هو الرفق بالحيوان والرحمة به ، رحمة تلفت النظر وتدعو إلى العجب والدهشة ، وإليكم بعض الحديث عن هذا ..

أول ما تعلنه مبادئ حضارتنا في مجال الرفق بالحيوان ، أن تقرر أن عالم الحيوان كعالم الإنسان له خصائصه وطبائعه وشعوره : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (١) . فله حق الرفق والرحمة كحق الإنسان « الراحمون يرحمهم الرحمن » (٢) . « من أعطي الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة » (٣) . بل إن الرحمة بالحيوان قد تدخل صاحبها الجنة : « بينما رجل يمشي بطريق إذ اشتد عليه العطش ، فوجد بئرًا فنزل فيها ، فشرب ، ثم خرج ، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني ،فنزل البئر فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له » ، قالوا يا رسول الله : وإن لنا في البهائم لأجرًا؟ فقال : « في كل ذات كبد رطبة أجر » (٤) .

كما أن القسوة على الحيوان تدخل النار « دخلت امرأةٌ النارَ في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » (٥) .

وتمضي الشريعة في تشريع الرحمة بالحيوان ، فتحرم المكث طويلًا على ظهره وهو واقف فقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي » (٦) . وتحرم

---

(١) الأنعام : ٣٨ .
(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم .
(٣) رواه أحمد .
(٤) أخرجه البخاري ومسلم ومالك وأحمد وأبو داود .
(٥) أخرجه البخاري ومسلم .
(٦) رواه أحمد والحاكم .

إجاعته وتعريضه للضعف والهزال . فقد مرَّ عليه السلام ببعير قد لصق ظهره ببطنه فقال : اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة ، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة » (١) . كما تحرم إرهاقه بالعمل فوق ما يتحمل : دخل رسول الله بستانًا لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل ، فلما رأى النبي حنَّ وذرفت عيناه ، فأتاه رسول الله فمسح دموعه ، ثم قال : « من صاحب هذا الجمل ؟ » فقال صاحبه : أنا يا رسول الله ، فقال له عليه الصلاة والسلام : أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ، فإنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئبه » (٢) (أي تتعبه بكثرة استعماله) .

كما تحرم التلهي به في الصيد « من قتل عصفورًا عبثًا عج إلى الله يوم القيامة يقول : يا رب إن فلانًا قتلني عبثًا ولم يقتلني منفعة » (٣) . واتخاذه هدفًا لتعليم الإصابة : « فقد لعن رسول الله من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا » (٤) (أي هدفًا) . وتنهى عن التحريش بين الحيوانات ، ووسمها في وجوهها بالكي والنار (أي كيها لتعلم من بين الحيوانات الأخرى) ، فقد مرّ الرسول على حمار قد وسم في وجهه ، فقال : « لعن الله الذي وسمه » (٥) . أما إذا كان الحيوان مما يؤكل ، فإن الرحمة به أن تحدَّ الشفرة ، ويسقى الماء ويراح بعد الذبح قبل السلخ : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » (٦) . بل إن إضجاع الحيوان للذبح قبل إحداد الشفرة قسوة لا تجوز ؛ أضجع رجل شاة للذبح وهو يحد شفرته ، فقال له عليه السلام : « أتريد أن تميتها موتات ؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها » (٧) .

واسمعوا ما أروع هذه الرحمة بالحيوان وأبلغ دلالتها على روح حضارتنا . قال عبد الله ابن مسعود : كنا مع رسول الله في سفر ، فرأينا حمّرة (طير يشبه العصفور) معها فرخان لها ، فأخذناهما فجاءت الحمّرة تعرّش (ترفرف بجناحيها) ، فلما جاء رسول الله قال : « من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها » . ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال : « من أحرق هذه؟ » قلنا : نحن ، قال « إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار » (٨) .

وعلى ضوء هذه التعاليم يقرر الفقهاء المسلمون من أحكام الرحمة بالحيوان ما لا

---

(١) رواه أبو داود وابن خزيمة .
(٢) رواه أحمد وأبو داود .
(٣) رواه النسائي وابن حبان .
(٤) رواه البخاري ومسلم .
(٥) رواه الطبراني .
(٦) رواه مسلم وأبو داود ومالك والترمذي .
(٧) رواه الطبراني والحاكم .
(٨) أخرجه أبو داود .

يخطر بالبال ، فهم يقررون أن النفقة على الحيوان واجبة على مالكه ، فإن امتنع أجبر على بيعه أو الإنفاق عليه ، أو تسييبه إلى مكان يجد فيه رزقه ومأمنه ، أو ذبحه إذا كان مما يؤكل . وقد ذهبوا إلى ما هو أبعد من هذا ، فقال بعضهم : « إذا لجأت هرة عمياء إلى بيت شخص وجبت نفقتها عليه حيث لم تقدر على الانصراف » . ومنعوا من تحميل الحيوان أكثر مما يطيق ، ورتبوا على هذا نتائج حقوقية في حق من استأجرها حيوانًا للحمل أو الركوب فحمّله أكثر مما يستطيع ، فألزموه بضمان ثمنه لمالكه . وتعرضوا لمقدار ما يستطيع البغل والحمار حمله ، ومن الطريف أن بعض الفقهاء قدر لكل منهما مقدارًا لم يرض فقيهًا آخر ، فعقب على ذلك بقوله : لعمري إن هذا إنصاف للبغل وإجحاف كبير بالحمار . أما جناية الحيوان على غيره ، فهي جبار ، أي مهدرة ، فالحيوان لا يعاقب بما جنى على غيره ، وإنما يعاقب صاحبه إذا فرط في حفظه وربطه .

هذه هي مبادئ الرفق بالحيوان في حضارتنا وتشريعنا . فكيف كان الواقع التطبيقي لها ؟ .

بينما رسول الله في بعض سفره ، إذ سمع امرأة من الأنصار تلعن ناقة لها وهي تركبها . فأنكر ذلك عليها وقال : « خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة » ، وأُخذت الناقة وتركت تمشي في الناس لا يعرض لها أحد [١] .

ومر عمر برجل يسحب شاة برجلها ليذبحها فقال له : ويلك قدها إلى الموت قودًا جميلا .

وهكذا كان طابع حضارتنا رفقًا بالحيوان وعناية به من قبل الدولة والمؤسسات الاجتماعية .

أما عناية الدولة فليس أدل على ذلك من أن خلفاءنا كانوا يذيعون البلاغات العامة على الشعب يوصونهم فيها بالرفق بالحيوان ومنع الأذى عنه والإضرار به .

فقد أذاع عمر بن عبد العزيز في إحدى رسائله إلى الولاة أن ينهوا الناس عن ركض الفرس في غير حق .

وكتب إلى صاحب السكك (وهي وظيفة تشبه مصلحة السير) أن لا يسمحوا لأحد بإلجام دابته بلجام ثقيل ، أو أن ينخسها بمقرعة في أسفلها حديدة .

---

(١) رواه مسلم .

وكان من وظيفة المحتسب (وهي وظيفة تشبه في بعض صلاحياتها وظيفة الشرطي في عصرنا الحاضر) أن يمنع الناس من تحميل الدواب فوق ما تطيق ، أو تعذيبها وضربها أثناء السير ، فمن رآه يفعل ذلك أدَّبه وعاقبه : « ويجبرهم المحتسب على فعل ذلك لما فيه من المصلحة ، ولا يحمّلون الدواب أكثر من طاقتها ، ولا يسوقونها سوقًا شديدًا تحت الأحمال ، ولا يضربونها ضربًا قويًّا ، ولا يوقفونها في العراص (الساحات العامة) وعلى ظهورها أحمالها ؛ فإن هذا كله نهت الشريعة المطهرة عن فعله . وعليهم أن يراقبوا الله (عز وجل) في علف الدابة وعليقها ، ويكون موفرًا عليها بحيث يحصل به الشبع ، ولا يكون مبخوسًا ولا نزرًا » .

وأما المؤسسات الاجتماعية : فقد كان للحيوان منها نصيب كبير . وحسبنا أن نجد في ثبت الأوقاف القديمة أوقافًا خاصة لتطبيب الحيوانات المريضة ، وأوقافًا لرعي الحيوانات المسنة العاجزة . ومنها أرض المرج الأخضر (التي يقام عليها الآن الملعب البلدي بدمشق) فإنها وقف للخيول العاجزة التي يأبى أصحابها أن ينفقوا عليها لعدم الانتفاع بها ، فترعى في هذه الأرض حتى تموت . ومن أوقاف دمشق وقف للقطط تأكل منه وترعى وتنام ، حتى لقد كان يجتمع في دارها المخصصة لها مئات القطط الفارهة السمينة التي يقدم لها الطعام كل يوم وهي مقيمة لا تتحرك إلا للرياضة والنزهة .

وهذا كله يدلك على روح الشعب الذي بلغ من الرفق بالحيوان إلى هذا الحد وهو ما لا تجد له مثيلًا . ولعل أصدق مثال عن روح الشعب في ظل حضارتنا ، أن ترى صحابيًّا جليلًا كأبي الدرداء يكون له بعير فيقول له عند الموت : « يا أيها البعير لا تخاصمني إلى ربك فإني لم أكن أحملك فوق طاقتك » .

وأن صحابيًّا كعدي بن حاتم كان يفتّ الخبز للنمل ويقول : « إنهن جارات لنا ولهن علينا حق » .

وأن إمامًا كبيرًا كأبي اسحق الشيرازي كان يمشي في طريق ومعه بعض أصحابه ، فعرض له كلب فزجره صاحبه فنهاه الشيخ وقال له : « أما علمت أن الطريق مشترك بيننا وبينه ؟ » .

ولا نستطيع أن نقدر هذه الظاهرة البارزة في حضارتنا وموقفها الإنساني الكريم مع الحيوان ، إلا إذا علمنا كيف كان يعامل الحيوان في العصور القديمة والوسطى ، وكيف كان موقف الأمم منه ومن جناياته وتعذيبه .

وأول ما يلفت النظر في ذلك أنك لا تجد في تعاليم تلك الشعوب ما يحمل على الرفق بالحيوان ووجوب الرحمة به . ومن ثم فلا تجد له حقوقًا على صاحبه من نفقة ورعاية .

ويلفت النظر بعد ذلك أخذ الحيوان بجنايته إذا جنى أو جنى صاحبه ، ومعاملته في المسؤولية كمعاملة الإنسان العاقل المفكر! وهذا أغرب ما تضمنه تاريخ العصور القديمة والوسطى حتى القرن التاسع عشر ، فقد كان الحيوان يحاكم فيها كما يحاكم الإنسان . ويحكم عليه بالسجن والتشريد والموت كما يحكم على الإنسان الجاني تمامًا !

ففي شرائع اليهود : « إذا نطح ثور رجلًا أو امرأة وأفضى ذلك إلى موت النطيح ، وجب رجم الثور ، وحرم أكل لحمه ولا تبعة على مالكه إذا لم يكن الثور معتادًا النطح ، فإذا كان ذلك من عادته ، وأنذر الناس صاحبه فلم يعبأ بإنذارهم وأهمل رقابته حتى تسبب في هلاك رجل أو امرأة ، كان جزاء الثور الرجم وجزاء صاحبه الإعدام » . وهناك حالة ثانية يعاقب فيها الحيوان في شرائع اليهود وهي ما إذا واقع رجل أو امرأة بهيمة وجب قتل الحيوان والرجل أو المرأة معًا .

وفي شرائع قدماء اليونان : كانت عندهم محكمة خاصة لمحاكمة الحيوانات والجمادات المتسببة في هلاك إنسان ، وكان يطلق على هذه المحكمة اسم (البريتانيون) وهو اسم المكان الذي كانت تعقد جلساتها فيه . ومما ذكره أفلاطون في كتابه القوانين : إذا قتل حيوان إنسانًا كان لأسرة القتيل الحق في إقامة دعوى على الحيوان أمام القضاء ، ويختار أولياء الدم القضاة من المزارعين . وفي حال ثبوت الجريمة على الحيوان يجب قتله قصاصًا ، وإلقاء جثته خارج البلاد ، ويستثنى من ذلك القتل الناشئ عن مبارزة بين الإنسان والحيوان في مسرح الألعاب العمومية ، فإن هذا لا يترتب عليه شيء . وإذا سقط جماد على إنسان فقتله ، اختار أقرب الناس إلى القتيل قاضيًا من جيرانه ليحكم على الجماد أن ينبذ خارج الحدود ، ولم تكن مسؤولية الحيوان عندهم قاصرة على حالات القتل ، بل هو مسؤول كذلك في الجنايات التي دون القتل . فإذا عض كلب إنسانًا وجب على صاحب الكلب أن يسلم كلبه إلى المجني عليه مكمومًا ومشدودًا في الوثاق يثأر لنفسه منه كما يشاء ، بالقتل أو التعذيب أو غيرهما . وكذلك كان الحيوان عندهم يعاقب على جناية سيده أو أسرته في بعض الحالات فمن حكم عليه بالإعدام لجريمة ارتكبها ضد الدين أو الدولة كان هو وأسرته وحيواناته وممتلكاته محكومًا عليها

بالحرق أو التدمير أو المصادرة .

أما قدماء الرومان : فقد تضمنت شرائعهم مادة تقضي بعقوبة الإعدام على الثور وصاحبه إذا نقل الثور أثناء الحرث الحد الفاصل بين الحقل المحروث والحقل المجاور له . وأقرت عقوبة الكلب الذي يعض إنسانًا بوجوب التخلي عنه للمعضوض يتصرف فيه كما يشاء ، وكذلك إذا رعى الحيوان عشبًا غير مملوك لصاحبه .

وكذلك الحال عند قدماء الجرمان من عقوبة الحيوان كما كان عند الرومان واليونان .

أما عند قدماء الفرس : فالأمر أعجب وأطرف ، ذلك أن الكلب المصاب بالكلب إذا عض خروفًا فقتله ، أو إنسانًا فجرحه ، تقطع أذنه اليمنى ، فإن تكرر ذلك منه قطعت أذنه اليسرى ، وفي المرة الثالثة تقطع رجله اليمنى ، وفي الرابعة تقطع رجله اليسرى وفي الخامسة يستأصل ذنبه ! .

وعند الأمم الأوربية في العصور الوسطى : كانت فرنسا أول أمة أوربية مسيحية أخذت في القرن الثالث عشر بمبدأ مسؤولية الحيوان ومعاقبته بجرمه أمام محاكم منظمة بنفس الطرق القانونية التي يحاكم فيها الإنسان . ثم أخذت به سردينيا في أواخر القرن الرابع عشر . ثم بلجيكا في أواخر القرن الخامس عشر . وفي هولندا وألمانيا وإيطاليا والسويد في منتصف القرن السادس عشر . وظل العمل به قائمًا عند بعض شعوب الصقالبة حتى القرن التاسع عشر ! .

كانت محاكمة الحيوان عند الأوربيين تقوم على ادعاء المجني عليه أو النيابة العامة ، ثم يتقدم وكلاء الدفاع عن الحيوان المجرم ، وقد تقضي المحكمة بحبس الحيوان احتياطيًا! ثم يصدر الحكم بعد ذلك وينفذ على ملأ من الجمهور كما كان ينفذ في الإنسان . وقد يكون الحكم بإعدام الحيوان رجمًا أو بقطع رأسه أو بحرقه ، أو بقطع بعض أعضائه قبل إعدامه ، ولا يظنن أحد أن هذه المحاكمة كانت هزلية للتسلية ، بل كانت جدية تمامًا ، بدليل ما يرد للأسباب الموجبة للحكم على الحيوان من مثل قولهم : « يحكم بإعدام الحيوان تحقيقًا للعدالة » أو « يقضى عليه بالشنق جزاء لما ارتكبه من جرم وحشي فظيع » ! ومن طريف ما يذكر هنا أن من الأسباب التي كانت تحمل الأوربيين على رفع القضايا على الحيوان : تعديه على قوانين الطبيعة في نظرهم ، فكان يتهم بالسحر وهي جريمة كان مرتكبوها يعاقبون بالإحراق بالنار . وكانوا يحتفلون احتفالًا كبيرًا بتنفيذ العقوبات على الحيوان ، فيأتي الجلادون بقطع من الحطب ، ويضعونها في وسط أحد

الميادين ، وتحضر القطط المحكوم عليها ، كل هرة في قفص من حديد وعندما يحين وقت تنفيذ العقوبة يحضر بعض القساوسة يصحبهم بعض الحكام ، فيتقدم أحدهم وفي كلتا يديه شعلتان من نار لإشعال الحطب ، ثم يأمر أحد الحكام بقذف القطط في النار حتى تصبح رمادًا عقوبة لها على ممارستها السحر ! .

وجدير بنا أن نذكر بعض المحاكمات الشهيرة للحيوانات عند الأوربيين في القرون الوسطى . فمن أطرف المحاكمات وأشهرها ، محاكمة الفئران في بلدة أوتون بفرنسا في القرن الخامس عشر ؛ فقد اتهمت الفئران في هذه القرية بالتجمهر في الشوارع بشكل مزعج مقلق للراحة . وتقدم للدفاع عنها شاسانيه المحامي الفرنسي وطلب التأجيل لأن الفئران لم تتمكن من الحضور ، حيث فيها الرضيع والمريض والعجوز ، وهي تستطيع أن تستعد للمثول بين يدي المحكمة إذا منحت فرصة التأجيل ، فوافقت المحكمة على التأجيل لوقت معين ، ولما حان الوقت لم تحضر الفئران ، فقال محامي الدفاع للمحكمة : إن الفئران تذعن لأوامركم الموقرة ، وتود الحضور ، ولكنها يا حضرات القضاة تخشى وقوع الأذى عليها من القطط إن هي جاءت إلى هنا . فرد رئيس المحكمة قائلًا : إن من واجبنا تأمين المتهمين على حياتهم . فطلب المحامي أن تأمر المحكمة بحبس قطط البلد كلها قبل مرور موكب الفئران في الشوارع لتكون مطمئنة على حياتها ، فوافقت المحكمة على هذا الطلب لعدالته ، وأصدرت أمرًا بمنع القطط والكلاب من المرور في الشوارع تأمينًا للفئران أثناء حضورها إلى قاعة المحكمة . ولكن أهل القرية رفضوا تنفيذ ذلك فاضطرت المحكمة إلى أن تحكم ببراءة الفئران لأنها حرمت وسائل الدفاع المشروعة! .. وقد نال المحامي بسبب هذه القضية شهرة ذائعة ، ولا ندري إن كان قد أخذ أتعابه من الفئران أم لا ، وربما كانت أتعابه أن تتعهد له الفئران بعدم قرض كتبه وأوراقه .

ومن أغرب قضايا محاكمة الحيوان في القرون الوسطى محاكمة الديك الذي باض . فقد رفعت دعوى على ديك في مدينة بال بسويسرا عام ١٤٧٤ لأنه باض ، وذلك في عرف الأوربيين يومئذ جريمة شنيعة ، إذ كان من المعروف عندهم أن السحرة يبحثون عن بيضة الديك ليستخدموها في أغراضهم الشيطانية . وقدم الديك للمحاكمة ، ودافع محاميه عنه بقوله : كيف يكون الديك مسؤولًا عن واقعة لا حيلة له فيها ؟ ولكن المحكمة لم تأخذ بنظرية محامي الدفاع ، بل أصدرت حكمها بأعدام الديك ، وعللت حكمها بقولها : ليكون في ذلك عبرة لغيره من الديكة ؟!

وفي عام ١٤٩٥ وقعت قضية أخرى في فرنسا هي من أغرب المحاكمات الحيوانية أيضًا ؛ فقد رفع أصحاب مزارع العنب في مقاطعة سان جوليان دعوى على حشرات السوس بتهمة أنها أتلفت كرومهم وقضت على أشجارهم وصناعتهم وتجارتهم . وتولى الدفاع عن هذه الحشرت اثنان من كبار رجال القانون ، واستمرت القضية أربعين عامًا انتهت بأن أصحاب الكروم سئموا هذا التأخير ، فاتفقوا على إقطاع السوس قطعة أرض خاصة ليأكل فيها ما يشاء من زروع وأشجار !

وبعد فهذه مقارنات طريفة بين موقف حضارتنا من الحيوان وموقف غيرنا من الأمم منه . ومنها يتضح أن حضارتنا امتازت بأمرين لا مثيل لهما عند الأمم القديمة وبعض الأمم الحديثة اليوم .

أولهما – إقامة مؤسسات اجتماعية للعناية بالحيوان وتطبيبه وتأمين معيشته عند العجز والمرض والشيخوخة .

ثانيهما – أن حضارتنا خلت من محاكمة الحيوان لأنها نادت برفع المسؤولية الجنائية عنه قبل ثلاثة عشر قرنًا من مناداة الحضارة الحديثة بذلك . كما أن حضارتنا خلت من مظاهر القسوة والتحريش بين الحيوانات ، وهي التي كانت معترفًا بها رسميًا لدى اليونان والرومان ، ولا تزال معترفًا بها في أسبانيا حيث تقام الحفلات الكبرى لمصارعة الثيران ، وهي بلا شك وحشية من بقايا وحشية الغربيين القدماء وفي العصور الوسطى .. قد تنزهت عنها حضارتنا .

– ٨ –

المؤسسات الخيرية

ليس أدل على رقي الأمة وجدارتها بالحياة واستحقاقها لقيادة العالم ، من سمو النزعة الإنسانية في أفرادها ، سموًّا يفيض بالخير والبر والرحمة على طبقات المجتمع كافة ، بل على كل من يعيش على الأرض من إنسان وحيوان ، وبهذا المقياس تخلد حضارات الأمم ، وبآثارها في هذا السبيل يفاضل بين حضارتها ومدنياتها .

وأمتنا بلغت في ذلك الذروة التي لم يصل إليها شعب من قبلها على الإطلاق ، ولم تلحقها من بعدها أمة حتى الآن ؛ أما في العصور الماضية ، فلم تعرف الأمم والحضارات ميادين للبر إلاّ في نطاق ضيق لا يتعدى المعاهد والمدارس ، وأما في العصور الحاضرة ، فإن أمم الغرب وإن بلغت الذروة في استيفاء الحاجات الاجتماعية عن طريق المؤسسات الاجتماعية وعن طريق المؤسسات العامة ، لكنها لم تبلغ ذروة السمو الإنساني الخالص لله (عز وجل) كما بلغته أمتنا في عصور قوتها ومجدها ، أو عصور ضعفها وانحطاطها . إن لطلب الجاه أو الشهرة أو انتشار الصيت أو خلود الذكر ، الأثر الأكبر في اندفاع الغربيين نحو المبرّات الإنسانية العامة ، بينما كان الدافع الأول لأمتنا على أعمال الخير ، ابتغاءُ وجه الله جل شأنه ، سواء علم الناس بذلك أم لم يعلموا ، وحسبنا دليلًا على هذا أن صلاح الدين الأيوبي أنفق أمواله كلها على جهات البر ، وملأ البلاد الشامية والمصرية بالمؤسسات الخيرية ، من مساجد ومدارس ورباطات وغيرها ، دون أن يسجل على واحدة منها اسمه ، بل كان يسجل عليها أسماء قواده ووزرائه وأعوانه وأصدقائه ، وهذا غاية ما يكون من التجرد عن حظوظ النفس في أعمال الخير .

وشيء آخر : أن الغربيين في مؤسساتهم الاجتماعية كثيرًا ما يقتصر الانتفاع بها على أبناء بلادهم ، أو مقاطعاتهم ، بينما كانت مؤسساتنا الاجتماعية تفتح أبوابها لكل إنسان على الإطلاق ، بقطع النظر عن جنسه أو لغته أو بلده أو مذهبه .

وفارق ثالث : أننا أقمنا مؤسسات اجتماعية لوجوه من الخير والتكافل الاجتماعي لم يعرفها الغربيون حتى اليوم ، وهي وجوه تبعث على العجب والدهشة ، وتدل على أن النزعة الإنسانية في أمتنا كانت أشمل وأصفى وأوسع أفقًا من كل نزعة إنسانية لدى الأمم الأخرى . وقبل أن نفيض في الحديث عن تعدد وجوه البر في المؤسسات

الاجتماعية في عصور حضارتنا ، يجب أن نلم بمبادئ حضارتنا في هذا الميدان ، وهي المبادئ التي عملت عملها في نفوس أمتنا فدفعتها إلى إنشاء هذه المؤسسات دفعًا لا نعرف له مثيلًا في أمم أخرى .

ينادي الإسلام بالدعوة إلى الخير نداء تنهزم معه في النفس الإنسانية بواعث الشح ووسوسة الشيطان في التخويف من الفقر ، فيقول القرآن بعد الحث على الإنفاق : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

ويعمم الدعوة إلى الخير على كل مقتدر ، بل كل إنسان ، فقيرًا كان أو غنيًا، أما الغني فيفعل الخير بماله وجاهه ، وأما الفقير فيفعل الخير بيده وقلبه ولسانه وعمله ، ولن تجد في الإسلام إنسانًا لا يستطيع أن يجود في ميادين البر والخير . ولقد كان مما شكاه الفقراء إلى النبي ﷺ أن الأغنياء يسبقونهم في فعل الخير إذ يتصدقون بأموالهم ولا يجد هؤلاء الفقراء ما يتصدقون به ، فبيّن لهم الرسول عليه السلام أن فعل الخير ليست وسيلته المال فحسب ، بل كل نفع للناس فهو من عمل الخير : « إن لكم بكل تسبيحة صدقة ، وأمر بمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، وفي إماطة الأذى عن الطريق صدقة ، وأن تصلح بين اثنين صدقة ، وأن تعين الرجل على دابته فتحمله عليها صدقة » (٢) وهكذا يفتح الإسلام أبواب الخير للناس جميعًا حتى ليستطيع أن يفعله العامل والتاجر والفلاح ، والتلميذ والأستاذ ، والمرأة ، والعاجز والشيخ الكبير ، والأعمى والمقعد ، من غير أن تحول ظروفهم الاقتصادية دون المساهمة في إشاعة البر والخير في المجتمع . ويسمو الإسلام بالنفوس إلى أعلى أفق من النزعة الإنسانية الكاملة حين يجعل البر لجميع عباد الله مهما كانت أديانهم ولغاتهم وأوطانهم وأجناسهم فيقول : « الخلق كلهم عيال الله ، فأحبهم اليه أنفعهم لعياله » (٣) .

ثم انظر كيف يخاطب الإسلام النفس الإنسانية بعد ذلك بما يحبّب إليها البر والخير عن طريق النفع الذاتي للنفس الخيِّرة المعطية ، إنه يخاطب كل إنسان بأن فِعل الخيرِ يعود نفعه لمن يفعله قبل كل شيء ، فهو الذي ينتفع بالخير ثوابًا وحبًّا وثناءً وخلودًا عند الله (عز وجل) ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ ﴾ (٤) . ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ ﴾ (٥) .

وما دام الإنسان أنانيًا يحب نفسه قبل كل شيء ، لا جَرَم أن كان لهذا الأسلوب

---

(١) البقرة : ٢٦٨ .
(٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) رواه الطبراني وعبد الرزاق .
(٤) البقرة : ٢٧٢ .
(٥) فصلت : ٤٦ .

أثره في النفس الإنسانية ، فيسخو البخيل ، ويعطي الشحيح ، ويفرق المال على الناس من حيث يمنعه أبناءه وأقرباءه ..

لما نزل قول الله تبارك وتعالى : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ﴾ (١) . قال صحابي يسمى أبا الدحداح : أوَ يستقرض الله من عبده يا رسول الله ؟! قال : « نعم » ، فقال : امدد يا رسول الله يدك ، فأشهده أنه تصدق ببستانه الذي لا يملك غيره ، وكان فيه سبعمائة نخلة مثمرة ، ثم عاد إلى زوجه ، وكانت تقيم هي وأولادها في هذا البستان ، فأخبرها بما صنع ، وغادرت هي وأولادها البستان وهي تقول له : ربح بيعك يا أبا الدحداح . ولما نزل قول الله تبارك وتعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ (٢) . قال أبو طلحة الأنصاري : يا رسول الله : إن أحب أموالي إليّ بيرحاء - وهي بئر طيبة الماء - وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله تبارك وتعالى ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : « بخ بخ ، ذلك مالٌ رابح ، ذاك مالٌ رابح ، حبّس الأصل وسبّل الثمرة » (٣) . وكانت هذه الصدقة أول وقف في الإسلام .. ومن هنا نشأ الوقف ، وهو الذي كان يمد كل المؤسسات الاجتماعية بالموارد المالية التي تعينها على أداء رسالتها الإنسانية النبيلة . كان الوقف هو الحجر الأساسي الذي قامت عليه كل المؤسسات الخيرية في تاريخ حضارتنا . وقد كان رسول الله أول من ضرب المثل الأعلى لأمته في ذلك ، فأوقف سبع بساتين كان أوصى بعض المحاربين حين مات أن يترك أمرها للرسول يتصرف بها كيف يشاء ، فأوقفها رسول الله على الفقراء والمساكين والغزاة وذوي الحاجات ، ثم تبعه بعد ذلك عمر بن الخطاب فأوقف أرضه بخيبر ، ثم تبعه الصحابة ، فأوقف أبو بكر ، وعثمان ، وعلي ، والزبير ، ومعاذ ، وغيرهم ، حتى لم يبق صحابي إلاّ أوقف من أمواله شيئًا . وتجدد هذا العمل الإنساني مرة أخرى في خلافة عمر ، حين أوقف أرضًا في سبيل الله وهو في خلافته ، ودعا نفرًا من المهاجرين والأنصار فأحضرهم وأشهدهم على ذلك ، قال جابر بن عبد الله الأنصاري : فما أعلم أحدًا ذا مقدرة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار إلا حبس مالًا من ماله صدقةً موقوفة لا تُشترى ولا تورث ولا توهب . ثم تتابع المسلمون بعد ذلك جيلًا بعد جيل ، يوقفون

---

(١) البقرة : ٢٤٥ . (٢) آل عمران : ٩٢ .

(٣) تفسير ابن كثير .

الأراضي والبساتين والدور والغلات لأعمال البر ، مما ملأ المجتمع الإسلامي بالمؤسسات التي بلغت حدًّا من الكثرة يصعب إحصاؤه والإحاطة به .

كانت هذه المؤسسات نوعين : نوعًا تنشئه الدولة وتوقف عليه الأوقاف الواسعة ، ونوعًا ينشئه الأفراد من أمراء وقواد وأغنياء ونساء . ولا نستطيع في مثل هذا الحديث أن نعدد أنواع المؤسسات الخيرية كلها ، ولكن حسبنا أن نلمّ بأهمها :

فمن أول المؤسسات الخيرية : المساجد ، وكان الناس يتسابقون إلى إقامتها ؛ ابتغاء وجه الله ، بل كان الملوك يتنافسون في عظمة المساجد التي يؤسسونها ، وحسبنا أن نذكر هنا مبلغ ما أنفقه الوليد بن عبد الملك من أموال بالغة على بناء الجامع الأموي ، مما لا يكاد يصدقه الإنسان لكثرة ما أنفق من مال وما استخدم في إقامته من رجال .

ومن أهم المؤسسات الخيرية : المدارس والمستشفيات ، وسنفرد لها حديثًا خاصًّا إن شاء الله .

ومن المؤسسات الخيرية : بناء الخانات والفنادق للمسافرين المنقطعين وغيرهم من ذوي الفقر ، ومنها : التكايا والزوايا التي ينقطع فيها من شاء لعبادة الله عز وجل ، ومنها : بناء بيوت خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به أو يستأجر دارًا ، ومنها السقايات أي تسبيل الماء في الطرقات العامة للناس جميعًا ، ومنها : المطاعم الشعبية التي كان يفرق فيها الطعام من خبز ولحم وحساء (شوربة) وحلوى ، ولا يزال عهدنا قريبًا بهذا النوع في كل من تكية السلطان سليم ، وتكية الشيخ محيي الدين بدمشق ، ومنها : بيوت للحجاج في مكة ينزلونها حين يفدون إلى بيت الله الحرام ، وقد كثرت هذه البيوت حتى عمت أرض مكة كلها ، وأفتى بعض الفقهاء ببطلان إجارة بيوت مكة في أيام الحج ؛ لأنها كلها موقوفة على الحجاج ، ومنها : حفر الآبار في الفلوات لسقي الماشية والزروع والمسافرين ، فقد كانت كثيرة جدًّا بين بغداد ومكة ، وبين دمشق والمدينة ، وبين عواصم المدن الإسلامية ومدنها وقراها ، حتى قل أن يتعرض المسافرون – في تلك الأيام – لخطر العطش . ومنها : أمكنة المرابطة على الثغور لمواجهة خطر الغزو الأجنبي على البلاد ، فد كانت هنالك مؤسسات خاصة بالمرابطين في سبيل الله ، يجد فيها المجاهدون كل ما يحتاجون إليه من سلاح وذخيرة وطعام وشراب ، وكان لها أثر كبير في صد غزوات الروم أيام العباسيين ، وصد غزوات الغربيين في الحروب الصليبية عن بلاد الشام ومصر ، ويتبع ذلك وقف الخيول والسيوف والنبال

وأدوات الجهاد على المقاتلين في سبيل الله (عز وجل) ، وقد كان لذلك أثر كبير في رواج الصناعة الحربية وقيام مصانع كبيرة لها في بلادنا ، حتى كان الغربيون في الحروب الصليبية ، يفدون إلى بلادنا - أيام الهدنة - ليشتروا منا السلاح ، وكان العلماء يفتون بتحريم بيعه للأعداء ، فانظر كيف انقلب الأمر الآن فأصبحنا عالةً على الغربيين في السلاح لا يسمحون لنا به إلا بشروط تقضي على كرامتنا واستقلالنا .

ويتبع ذلك أوقاف خاصة يعطى ريعها لمن يريد الجهاد ، وللجيش المحارب حين تعجز الدولة عن الإنفاق على كل أفراده ، وبذلك كان سبيل الجهاد ميسرًا لكل مناضل يودُّ أن يبيع حياته في سبيل الله ليشتري بها جنةً عرضها السموات والأرض ... فانظر كيف عاد بنا الأمر إلى أن نقيم أسبوعًا للتسلح تجمع فيه التبرعات لتقوية الجيش وتسليحه ، ولو كان عندنا وعي اجتماعي وإيمان صادق لأقمنا من أموالنا كل يوم - لا أسبوعًا واحدًا في العام - مصانع لتزويد جيشنا بالسلاح والعتاد ، حتى يكون من أقوى الجيوش وأكثرها استعدادًا لصد العدوان وحماية الديار .

ومن المؤسسات الاجتماعية ما كانت وقفًا لإصلاح الطرقات والقناطر والجسور ، ومنها ما كانت للمقابر يتبرع الرجل بالأرض الواسعة لتكون مقبرة عامة .

ومنها : ما كان لشراء أكفان الموتى الفقراء وتجهيزهم ودفنهم .

أما المؤسسات الخيرية لإقامة التكافل الاجتماعي ، فقد كانت عجبًا من العجب ، فهناك مؤسسات للُّقطاء واليتامى ولختانهم ورعايتهم ، ومؤسسات للمقعدين والعميان والعجزة ، يعيشون فيها موفوري الكرامة لهم كل ما يحتاجون من سكن وغذاء ولباس وتعليم أيضًا .

وهنالك مؤسسات لتحسين أحوال المساجين ورفع مستواهم وتغذيتهم بالغذاء الواجب لصيانة صحتهم ، ومؤسسات لإمداد العميان والمقعدين بمن يقودهم ويخدمهم .

ومؤسسات لتزويج الشباب والفتيات العزّاب ممن تضيق أيديهم أو أيدي أوليائهم عن نفقات الزواج وتقديم المهور .. فما أروع هذه العاطفة وما أحوجنا إليها اليوم! .

ومنها مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسكر ، وهي أسبق في الوجود من جمعية نقطة الحليب عندنا ، مع تمحُّضها للخير الخالص لله عز وجل ، وقد كان من مبرات صلاح الدين أنه جعل في أحد أبواب القلعة - الباقية حتى الآن في دمشق -

ميزابًا يسيل منه الحليب . وميزابًا آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكر ، تأتي إليه الأمهات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر ..

ومن أطرف المؤسسات الخيرية وقف الزبادي للأولاد الذين يكسرون الزبادي وهم في طريقهم إلى البيت ، فيأتون إلى هذه المؤسسة ليأخذوا زبادي جديدة بدلًا من المكسورة ، ثم يرجعوا إلى أهليهم وكأنهم لم يصنعوا شيئًا .

وآخر ما نذكره من هذه المؤسسات ، المؤسسات التي أقيمت لعلاج الحيوانات المريضة ، أو لإطعامها ، أو لرعيها حين عجزها ، كما هو شأن المرج الأخضر في دمشق الذي يقام عليه الملعب البلدي الآن ، فقد كان وقفًا للخيول والحيوانات العاجزة المسنة ترعى منه حتى تلاقي حتفها .

أما بعد ، فهذه ثلاثون نوعًا من أنواع المؤسسات الخيرية التي قامت في ظل حضارتنا ، فهل تجد لها مثيلًا في أمة من الأمم السابقة؟ بل هل تجد لكثير منها مثيلًا في ظل الحضارة الراهنة ؟ .. اللهم إنه سبيل الخلود تفردنا به وحدنا يوم كانت الدنيا كلها في غفلة وجهل وتأخر وتظالم ... اللهم إنه سبيل الخلود كشفنا به عن الإنسانية المعذبة أوصابها وآلامها ... فما هو سبيلنا اليوم؟ أين هي تلك الأيدي التي تمسح عبرة اليتيم ، وتأسو جراح الكليم ، وتجعل من مجتمعنا مجتمعًا متراصًا ، ينعم فيه الناس جميعًا بالأمن والخير والكرامة والسلام ؟ .

- ٩ -

المدارس والمعاهد العلمية

تحدثنا آنفًا عن المؤسسات الخيرية وتنوعها في حضارتنا تنوعًا يبعث على العجب والإكبار لما بلغته النزعة الإنسانية من أثر كبير في نفوس أمتنا ، ووعدنا بالحديث عن المدارس والمستشفيات حديثًا خاصًا . أما المدارس ، وهي التي قامت على الأوقاف الكثيرة التي تبرع بها الاغنياء من قادة وعلماء وتجار وملوك وأمراء ، فقد بلغت من الكثرة حدًّا بالغًا ، وحسبك أن تعلم أنه لم تخل مدينة ولا قرية ، في طول العالم الإسلامي وعرضه ، من مدارس متعددة يعلِّم فيها عشرات من المعلمين والمدرسين .

كان المسجد هو النواة الأولى للمدرسة في حضارتنا ، فلم يكن مكان عبادة فحسب بل كان مدرسة يتعلم فيها المسلمون القراءة والكتابة والقرآن وعلوم الشرعية واللغة وفروع العلوم المختلفة ، ثم أقيم بجانب المسجد الكتّاب ، وخصص لتعليم القراءة والكتابة والقرآن وشيء من علوم العربية والرياضة ، وكان الكتّاب يشبه المدرسة الابتدائية في عصرنا الحاضر ، وكان من الكثرة بحيث عدّ ابن حوقل ثلاثمائة كتّاب في مدينة واحدة من مدن صقلية . وكان من الاتساع أحيانًا بحيث يضم الكتّاب الواحد مئات وآلافًا من الطلاب . ومما يذكر في تاريخ أبي القاسم البلخي أنه كان له كتّاب يتعلم به ثلاثة آلاف تلميذ ، وكان كتّابه فسيحًا جدًّا بحيث يحتاج إلى أن يركب حمارًا ليتردد بين طلابه وليشرف على شؤونهم .

ثم قامت المدرسة بجانب الكتّاب والمسجد ، وكانت الدراسة فيها تشبه الدراسة الثانوية والعالية في عصرنا الحاضر . كان التعليم فيها مجانيًا ولمختلف الطبقات ، فلم يدفع الطلاب في دراستهم الثانوية والعالية رسمًا ما من رسوم الدراسة التي يدفعها طلابنا اليوم ، ولم يكن التعليم فيها محصورًا بفئة من أبناء الشعب دون فئة ، بل كانت فرصة التعليم متوفرة لجميع أبناء الشعب ، كان يجلس فيها ابن الفقير بجانب ابن الغني ، وابن التاجر بجانب ابن الصانع والمزارع . وكانت الدراسة فيها قسمين : قسمًا داخليًا للغرباء والذين لا تساعدهم أحوالهم المادية على أن يعيشوا على نفقات آبائهم ، وقسمًا خارجيًا لمن يريد أن يرجع في المساء إلى بيت أهله وذويه . أما القسم الداخلي فكان بالمجان أيضًا ، يهيأ للطالب فيه الطعام والنوم والمطالعة والعبادة ... وبذلك كانت كل مدرسة تحتوي على مسجد ، وقاعات للدراسة ، وغرف لنوم الطلاب ، ومكتبة ، ومطبخ وحمام

وكانت بعض المدارس تحتوي فوق كل ذلك على ملاعب للرياضة البدنية في الهواء الطلق . ولا تزال لدينا حتى الآن نماذج من هذه المدارس التي غمرت العالم الإسلامي كله ، ففي دمشق لا تزال المدرسة النورية التي أنشأها البطل العظيم نور الدين الشهيد ، وهي الواقعة الآن في سوق الخياطين ، لا تزال قائمة تعطينا نموذجًا حيًّا لهندسة المدارس في عصور الحضارة الإسلامية ، لقد زارها الرحالة ابن جبير في أوائل القرن السابع الهجري ، فأعجب بها وكتب عنها : « من أحسن مدارس الدنيا مظهرًا مدرسة نور الدين (رحمه الله) ، وهي قصر من القصور الأنيقة ، ينصب فيه الماء في شاذوران وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر » . ومع أن عوادي الزمن قد عدت على هذه المدرسة وانتزع منها بعض مساحتها وأجزائها ، فقد بقي فيها حتى الآن الإيوان ، وهي قاعة المحاضرات ، والمسجد وغرفة للمدرسين واستراحتهم ، وهي تقوم مقام غرفة الأساتذة في كليات الجامعة ، وبيت خاص يسكنه رئيس المدرسين مع عائلته ، ومساكن للطلاب ولخدم المدرسة . وقد اغتصب منها جيرانها قاعة الطعام والمطبخ ومخزن البقول والمواد المختلفة . هذا نموذج حي للمدرسة في العصر القديم ، ونجد مثله في حلب في مدارس الشعبانية والعثمانية والخسروية ، حيث لا يزال فيها للطلاب غرف يسكنونها وقاعات للدراسة ، وقد كانوا من قبل يأكلون فيها ثم عدل عن ذلك إلى راتب معلوم في آخر كل شهر يعطى للطلاب المنتسبين إليها .

وأظهر مثال حي لهذه المدارس الجامع الأزهر ، فهو مسجد تقام في أبهائه حلقات للدراسة ، تحيط به من جهاته المتعددة غرف لسكن الطلاب تسمى بالأروقة ، يسكنها طلاب كل بلد بجانب واحد ، فرواق للشاميين ، ورواق للمغاربة ، ورواق للأتراك ، ورواق للسوادنيين ، وهكذا .. ولا يزال طلاب الأزهر حتى اليوم يأخذون راتبًا شهريًّا مع دراستهم المجانية من ريع الأوقاف التي أوقفت على طلاب العلم بالأزهر .

وجدير بنا ونحن نتحدث عن المدارس أن نتحدث عن المدرسين وأحوالهم ورواتبهم ، لقد كان رؤساء المدارس من خيرة العلماء وأكثرهم شهرة ، وإنا لنجد في تاريخ مشاهير العلماء المدارس التي درسوا فيها ، فالإمام النووي وابن الصلاح وأبو شامة وتقي الدين السبكي وعماد الدين بن كثير وغيرهم ممن كانوا يدرسون في دار الحديث بدمشق ، والغزالي والشيرازي وإمام الحرمين والشاسي والخطيب التبريزي والقزويني والفيروز آبادي وغيرهم ممن كانوا يدرسون في المدرسة النظامية ببغداد ، وهكذا ... ولم يكن المدرسون

في صدر الإسلام يأخذون أجرًا على تعليمهم حتى إذا امتد الزمن واتسعت الحضارة وبنيت المدارس وأوقف لها الأوقاف جعل للمدرسين فيها رواتب شهرية . ومن الطريف أن نذكر صنيع علماء ما وراء النهر حين بنى « نظام الملك » مدارسه الشهيرة في الأمصار وجعل للمدرسين فيها رواتب معلومة ، فقد اجتمعوا لينكروا هذا الصنيع ، وليقيموا مأتمًا للعلم ينعون فيه ذهاب العلم وبركته وقد قالوا : كان يشتغل بالعلم أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية ، الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به ، وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل ، فيكون ذلك سببًا لمهانته وضعفه . ولكن هذه النظرة لم تثبت أمام تطور الحياة وضرورات الحضارة ، وأصبح للمدرسين رواتب تختلف بين الكثرة والقلة بحسب الأمصار والمدارس والأوقاف ، ولكنها على كل حال كانت كافية ليعيش المدرس عيشة هانئة . هذا عدا عما كان يعطى المدرس من رواتب أخرى لقاء حاجاته المعاشية . فقد كان الشيخ نجم الدين الخبوشاني ممن عيَّنه السلطان صلاح الدين ليدرس في مدرسته الصلاحية ، وقد جعل له كل شهر أربعين دينارًا عن التدريس ، وعشرة دنانير للإشراف على وقاف المدرسة ، وستين رطلًا مصريًّا من الخبز كل يوم ، وراويتين من ماء النيل كل يوم . وكان من رواتب شيوخ الأزهر الشهرية ، راتب يأخذه لنفقات بغلته ، إذ كان من أوقاف الأزهر وقف خاص لبغلة الشيخ ونفقاتها ، وقد بلغ ما يأخذه من ريع هذا الوقف باسم البغلة مائة جنيه شهريًّا في السنوات المتأخرة ، حتى أضيف إلى راتبه الشهري أخيرًا .

ولم يكن يجلس للتدريس إلا من شهد له الشيوخ بالكفاءة . وقد كان الأمر في عصر الإسلام الأول أن يسمح الشيخ للتلميذ بالانفصال عن حلقته وانشاء حلقة خاصة ، أو أن يعهد برئاسة الحلقة إليه بعد وفاته ، فإن فعل غير ذلك كان محل نقد وتعرض للأسئلة الشديدة المحرجة .. في تاريخ أبي يوسف قاضي القضاة في عصر هارون الرشيد ، أنه مرض في حياة شيخه أبي حنيفة ، فعاده شيخه وقال له : قد كنت أؤمِّلك بعدي للمسلمين ، ثم برئ أبو يوسف من مرضه وقد أعجب بنفسه حين سمع شهادة شيخه له ، فعقد مجلسًا خاصًّا منفردًا عن شيخه أبي حنيفة ، فأرسل إليه أبو حنيفة من يسأله خمس مسائل دقيقة يحتاج الجواب فيها إلى تفصيل وإيضاح ، فأخطأ أبو يوسف في الإجابة وأدرك خطأه في انفراده عن شيخه ، فعاد إلى حلقته ، فقال له أبو حنيفة : تزبَّبْتَ قبل أن تحصرم ، من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه ! ... هكذا كان الأمر . فلما انشئت المدارس جُعل للمتخرجين فيها إجازات علمية يعطيها شيخ

المدرسة ، وهي تشبه الإجازات العلمية في عصرنا ، ولم يكن يسمح للأطباء بممارسة الطب إلا بعد نوال هذه الشهادة من كبير أطباء المدرسة .

وكان للمدرسين شعار خاص يفصلهم عن غيرهم من أرباب المهن . كان شعارهم في عهد أبي يوسف عمامة سوداء وطيلسانًا ، وشعارهم في عهد الفاطميين عمامة خضراء وكسوة مذهبة تتكون من ست قطع ، أهمها القلنسوة والطيلسان ، أما الجبة واختصاص العلماء والمدرسين بها فقد بدأ ذلك في عهد الأمويين . وكانت ملابسهم في الأندلس تختلف قليلًا عن ملابس العلماء والمدرسين في المشرق ، وأهم ما كان يميزهم صغر العمامة ، وفي بعض الأحيان لم يكن العالم يلبس العمامة ، حتى أن أبا علي القالي ، الإمام اللغوي الشهير ، حين وصل الأندلس من المشرق واستقبله علماؤها كان محل دهشة العامة ، إذ رأوه يلبس عمامة كبيرة على رأسه ، فكان الصغار والسفهاء يحذفونه بالحصى استهزاء واستنكارًا .. وقد أخذ الغربيون عن مدرسي الأندلس زيهم ، فكان هو أصل الزي العلمي المعروف الآن في الجامعات الأوربية .

وكان للمعلمين نقابة كنقابة الطالبيين ونقابة الأشراف ونقابات بعض الحرف والمهن الصناعية في تلك العصور وكان جماعة المدرسين هم الذين يختارون النقيب ، وما كان يتدخل السلطان إلا إذا وقع خلاف بين الأعضاء فيصلح بينهم .

روى أبو شامة في الروضتين عن مقلد الدولعي قال : لما مات الحافظ المرادي . وكنا جماعة الفقهاء قسمين : العرب والأكراد ، فمنا من مال إلى المذهب ، وأردنا أن نستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون ، ومنا من مال إلى علم النظر والخلاف ، وأراد أن يستدعي القطب النيسابوري ، فوقعت فتنة بين الفقهاء بسبب ذلك ، فسمع نور الدين بها ، فاستدعى جماعة الفقهاء ، وخرج لهم مجد الدين بن الداية نائبًا عنه وقال لهم : ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع ، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق ، وقد قال المولى(أي نور الدين) نرضي الطائفتين ونستدعي الشيخين ، فاستدعيا ، وولي شرف الدين المدرسة التي سميت باسمه ، وولي قطب الدين مدرسة النفري .

كانت المدارس على هذا ، وخاصة المعاهد العليا ، تملأ مدن العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ويذكر التاريخ بكثير من الإكبار والإعجاب نفرًا من أمراء المسلمين كانت لهم اليد الطولى في إنشاء المدارس في مختلف الأمصار ، منهم صلاح الدين الايوبي ، فقد أنشأ المدارس في جميع المدن التي كانت تحت سلطانه في مصر ودمشق

والموصل وبيت المقدس ، ومنهم نور الدين الشهيد الذي أنشأ في سورية وحدها أربعة عشر معهدًا ، منها ستة في دمشق ، وأربعة في حلب ، واثنان في حماه ، واثنان في حمص ، وواحد في بعلبك ، ومنهم نظام الملك الوزير السلجوقي العظيم الذي ملأ بلاد العراق وخراسان بالمدارس حتى قيل فيه أن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة ، وكان ينشئ المدارس حتى في الأماكن النائية ، فقد أنشأ في جزيرة ابن عمرو مدرسة كبيرة حسنة ، وكلما وجد في بلدة عالمًا قد تميز وتبحر في العلم بنى له مدرسة ووقف عليها وقفًا وجعل فيها دار كتب . وقد كانت نظامية بغداد أولى المدارس النظامية وأهمها ، درس فيها مشاهير علماء المسلمين فيما بين القرن الخامس والتاسع هجري ، وقد بلغ عدد طلابها ستة آلاف تلميذ ، فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الصناع فيها ، وكلهم يتعلمون بالمجان ، وللطالب الفقير فوق كل ذلك شيء معلوم يتقاضاه من الريع المخصص لذلك .

وبجانب هؤلاء العظماء كان الأمراء والأغنياء والتجار يتسابقون في بناء المدارس والوقف عليها بما يضمن استمرارها وإقبال الطلاب عليها ، وكثيرون جدًّا هم الذين جعلوا بيوتهم مدارس ، وجعلوا ما فيها من كتب وما يتبعها من عقار وقفًا على طلاب العلم الدارسين فيها . وبذلك كثرت المدارس وخاصة في المشرق كثرة هائلة مدهشة ، حتى أن ابن جبير الرحالة الأندلسي هاله ما رأى في المشرق من كثرة المدارس والغلات الوافرة التي تغله أوقافها ، فدعا المغاربة أن يرحلوا للمشرق لتلقي العلم ، وكان مما قاله : « وتكثر الأوقاف على طلاب العلم في البلاد المشرقية كلها وبخاصة دمشق ، فمن شاء الفلاح من أبناء مغربنا فليرحل الى هذه البلاد ، فيجد الأمور المعينة على طلب العلم كثيرة ، وأولها فراغ البال من أمر المعيشة » .

وشهادة ابن جبير لها قيمتها ، فإنه رحالة تميز بالصدق والأمانة في حديثه ، وقد خص ابن جبير دمشق بكثرة المدارس والأوقاف ، وكانت كذلك حقًّا أمدًا طويلًا من تاريخنا ... كانت مدارس دمشق العامرة التي يؤمها الطلاب تزيد على أربعمائة مدرسة ، حتى أن الطالب الغريب إذا قدم دمشق يستطيع أن يقيم سنة فيها لا ينام في كل مدرسة إلا ليلة واحدة .

وقد ذكر لنا ابن عساكر في تاريخه قصيدة لسلطان بن علي بن منقذ الكتاني في وصف دمشق والإشادة بفضلها ، ومما جاء فيها عن مدارسها قوله :

ومدارس لم تأتها في مشكل ... إلا وجدت فتى يحل المشكلا
ما أمَّها مرء يكابد حيرة ... وخصاصة إلا اهتدى وتمولا
وبها وقوف لا يزال مغلها ... يستنقذ الأسرى ويغني العيَّلا
وأئمة تلقي الدروس وسادة ... تشفي النفوس وداؤها قد أعضلا

وإليك أمثلة من كثرة الأوقاف التي كانت توقف على المدارس . فقد كانت الأوقاف التي وقفت على المدرسة النورية الكبرى بدمشق ، كما جاء ذلك مثبتًا على باب المدرسة ، هي : جميع الحمام المستجد بسوق القمح ، والحمامين المستجدين بالوراقة خارج باب السلامة ، والدار المجاورة لهما ، والوارقة بعونية الحمى ، وجنينة الوزير ، والنصف والربع من بستان الجوزة بالأرزة ، والأحد عشر حانوتًا خارج باب الجابية ، والساحة الملاصقة لهما من الشرق ، والتسعة الحقول بداريا .

وكانت الأوقاف التي وقفت على البيمارستان النوري بحلب هي : قرية معراتا ونصف مزرعة وادي العسل من جبل سمعان ، وخمسة أفدنة من مزرعة كفرتابا ، وثلث مزرعة الخالدي وطاحون من المطخ ، وثمن طاحون ظاهر باب الجنان ، وثمانية أفدنة من مزرعة أبو مرايا من غراز (هكذا ولعلها : إعزاز) ، وخمسة أفدنة من مزرعة الحميرة من المطخ ، واثنا عشر فدانًا من مزرعة الفرزل من المعرة ، وثلث قرية بيت راعيل من العزبيات . وعشرة دكاكين بسوق الهواء ، وأحكار ظاهر باب أنطاكية وباب الفرج وباب الجنان .

وحسبنا دليلًا على كثرة اوقاف المدارس والمساجد في دمشق خاصة أن الإمام النووي المتوفي عام ٦٧٦ هـ لم يكن يأكل من فواكه دمشق طيلة حياته ؛ لأن أكثر غوطتها وبساتينها أوقاف قد اعتدى عليها الظالمون .

وكانت المدارس متعددة الغايات ، فمنها مدارس لتدريس القرآن الكريم وتفسيره وحفظه وقراءاته ، ومنها مدارس للحديث خاصة ، ومنها – وهي أكثرها – مدارس للفقه ، لكل فقه مدارس خاصة به ، ومنها مدارس للطب ، ومنها مدارس للأيتام ، وها هو النعيمي في كتابه الدارس في تاريخ المدارس – وهو من علماء القرن العاشر الهجري – يذكر لنا ثبتًا بأسماء مدارس دمشق وأوقافها ، ومنه نعلم أنه كان في دمشق وحدها للقرآن الكريم سبع مدارس ، وللحديث ست عشرة مدرسة ، وللقرآن والحديث معًا

ثلاث مدارس ، وللفقه الشافعي ثلاث وستون مدرسة ، وللفقه الحنفي اثنتان وخمسون مدرسة ، وللفقه المالكي أربع مدارس ، وللفقه الحنبلي إحدى عشرة مدرسة ، هذا عدا عن مدارس الطب والرباطات والفنادق والزوايا والجوامع ، وكلها كانت مدارس يتعلم فيها الناس .. وإذا ذكرنا مع هذا ما كان عليه الغربيون في تلك العصور نفسها من جهالة مطبقة ومن أميّة متفشية حتى لم يكن للعلم مأوى إلا أديرة الرهبان ، وهي مقصورة على رجال الكهنوت فقط ، أدركنا أية عظمة بلغتها أمتنا في أوج مجدها ، وكم كانت حضارتنا رائعة في تاريخ المؤسسات الاجتماعية والمعاهد العلمية ، وكم كان للإسلام من يد في نشر العلم ، ورفع مستوى الثقافة العامة ، وتيسير سبلها لسائر أبناء الشعب .

قال ابن كثير في البداية والنهاية في حوادث سنة إحدى وثلاثين وستمائة : « فيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد ، ولم يُبنَ مدرسة قبلها مثلها . ووقفت على المذاهب الأربعة ، من كل طائفة اثنان وستون فقيهًا ، وأربعة معيدين ، ومدرس لكل مذهب ، وشيخ حديث ، وقارئان وعشرة مستمعين ، وشيخ طب ، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب ، ومكتب للأيتام ، وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد ... » إلى أن قال : « ووقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها في كثرتها وحسن نسخها وجودة الكتب الموقوفة بها » .

- ١٠ -

المستشفيات والمعاهد الطبية

من المبادئ التي قامت عليها حضارتنا ، جمعها بين حاجة الجسم وحاجة الروح ، واعتبارها العناية بالجسم ومطالبه ضرورية لتحقيق سعادة الإنسان وإشراق روحه ، ومن الكلمات المأثورات عن واضع أسس هذه الحضارة رسول الله ﷺ : « إن لجسدك عليك حقًّا » (١) ومن الملاحظ في عبادات الاسلام تحقيقها أهم غرض من أغراض علم الطب وهو حفظ الصحة (٢) فالصلاة والصيام والحج وما تتطلبه هذه العبادات من شروط وأركان وأعمال ، كلها تحفظ للجسم صحته ونشاطه وقوته ، وإذا أضفنا الى ذلك مقاومة الإسلام للأمراض وانتشارها ، وترغيبه في طلب العلاج المكافح لها ، علمت أية أسس قوية قام عليها بناء حضارتنا في ميدان الطب ، ومبلغ ما أفاده العالم من حضارتنا في إقامة المشافي والمعاهد الطبية ، وتخريج الأطباء الذين لا تزال الإنسانية تفخر بأياديهم على العلم عامة والطب خاصة .

عرف العرب مدرسة جنديسابور الطبية التي أنشأها كسرى في منتصف القرن السادس الميلادي وتخرج فيها بعض أطبائهم ، كالحارث بن كلدة الذي عاش في عصر النبي ﷺ وكان يشير على أصحابه بالتداوي عنده حين تنتابهم الأمراض . وفي عهد الوليد بن عبد الملك أنشئ أول مستشفى في الإسلام ، وهو خاص بالمجذومين ، وجعل فيه الأطباء ، وأجرى لهم الأرزاق ، وأمر بحبسهم لئلا يخرجوا ، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق ، ثم تتابع إنشاء المشافي ، وقد كانت تعرف باسم البيمارستانات أي دور المرضى .

وكانت المستشفيات نوعين : نوعًا متنقلًا ، ونوعًا ثابتًا ، أما المتنقل ، فأول ما عرف في الإسلام في حياة النبي ﷺ ، في غزوة الخندق ، إذ ضرب خيمة للجرحى فلما أصيب سعد بن معاذ في أكحله (والأكحل عرق في الذراع يفصد) قال ﷺ : « اجعلوه في خيمة رفيدة ، حتى أعوده من قريب » ، وهو أول مستشفى حربي متنقل في الإسلام ، ثم توسع فيه الخلفاء والملوك من بعد ، حتى أصبح المستشفى المتنقل مجهزًا

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) يعرّف الطبَّ علي بن عباس بأنه علم يبحث في حفظ الصحة على الأصحاء وردها على المرضى .

بجميع ما يحتاجه المرضى ، من غلاج وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة ، وكان ينقل من قرية إلى قرية في الأماكن التي لم يكن فيها مستشفيات ثابتة . كتب الوزير عيسى بن علي الجراح إلى سنان بن ثابت ، وكان يتولى النظر على مستشفيات بغداد وغيرها : « فكرت فيمن بالسواد – أي القرى – من أهله ، وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبب عليهم لخلو السواد من الأطباء ، فتقدم بإيفاد متطببين (أي أطباء) وخزانة من الأدوية والأشربة يطوفون السواد ، ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم ، ويعالجون من فيه ، ثم ينتقلون إلى غيره » وقد بلغ بعض المستشفيات المتنقلة في أيام السلطان محمود السلجوقي حدًّا من الضخامة بحيث كان يحمل على أربعين جملًا .

وأما المستشفيات الثابتة ، فقد كانت كثيرة تفيض بها المدن والعواصم ، ولم تخل بلدة صغيرة في العالم الإسلامي ، يومئذ من مستشفى فأكثر ، حتى أن قرطبة وحدها كان فيها خمسون مستشفى .

وتنوعت المستشفيات ، فهناك مستشفيات للجيش يقوم عليها أطباء مخصوصون ، عدا عن أطباء الخليفة والقواد والأمراء ، وهناك مستشفيات للمساجين ، يطوف عليهم الأطباء في كل يوم فيعالجون مرضاهم بالأدوية اللازمة ، ومما كتب به الوزير علي بن عيسى بن الجراح الى سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد : « فكرت في أمر من في الحبوس ، وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض ، فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم كل يوم ، وتحمل إليهم الأدوية والأشربة ، ويطوفون في سائر الحبوس ، ويعالجون فيها المرضى » .

وهناك محطات للإسعاف كانت تقام بالقرب من الجوامع والأماكن العامة التي يزدحم فيها الجمهور ، ويحدثنا المقريزي أن ابن طولون حين بنى جامعه الشهير في مصر عمل في مؤخره ميضأة وخزانة شراب ، (أي صيدلية أدوية) وفيها جميع الشرابات والأدوية ، وعليها خدم ، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة ، لمعالجة من يصابون بالأمراض من المصلين .

وهناك المستشفيات العامة ، التي كانت تفتح أبوابها لمعالجة الجمهور ، وكانت تقسم إلى قسمين منفصلين بعضهما عن بعض : قسم للذكور ، وقسم للإناث ، وكل قسم فيه قاعات متعددة ، كل واحدة منها لنوع من الأمراض ، فمنها للأمراض الداخلية ، ومنها

للعيون ، ومنها للجراحة ، ومنها للكسور والتجبير ، ومنها للأمراض العقلية ، وقسم الأمراض الداخلية كان مقسمًا إلى غرف أيضًا ، فغرف منها للحميّات ، وغرف للإسهال ، وغير ذلك ، ولكل قسم أطباء عليهم رئيس ، فرئيس للأمراض الباطنية ، ورئيس للجراحين والمجبرين ، ورئيس للكحالين (أي أطباء العيون) ، ولكل الأقسام رئيس عام يسمى (ساعور) وهو لقب لرئيس الأطباء في المستشفى . وكان الأطباء يشتغلون بالنوبة ، ولكل طبيب وقت معين يلازم فيه قاعاته التي يعالج فيها المرضى . وفي كل مستشفى عدد من الفراشين من الرجال والنساء والممرضين والمساعدين ، ولهم رواتب معلومة وافرة . وفي كل مستشفى صيدلية كانت تسمى خزانة الشراب فيها أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة ، والمربيات الفاخرة ، وأصناف الأدوية ، والعطورات الفائقة التي لا توجد إلا فيها ، وفيها من الآلات الجراحية والأواني الزجاجية والزبادي وغير ذلك ، ما لا يوجد إلا في خزائن الملوك .

وكانت المستشفيات معاهد طبية أيضًا ، ففي كل مستشفى إيوان كبير (قاعة كبيرة) للمحاضرات ، يجلس فيه كبير الأطباء ومعه الأطباء والطلاب ، وبجانبهم الآلات والكتب ، فيقعد التلاميذ بين يدي معلمهم ، بعد أن يتفقدوا المرضى وينتهوا من علاجهم ، ثم تجري المباحث الطبية والمناقشات بين الأستاذ وتلاميذه ، والقراءة في الكتب الطبية ، وكثيرًا ما كان الأستاذ يصطحب معه تلاميذه إلى داخل المستشفى ليقوم بإجراء الدروس العملية لطلابه على المرضى بحضورهم ، كما يقع اليوم في المستشفيات الملحقة بكليات الطب ، قال ابن أبي أصيبعة – وهو ممن درس الطب في البيمارستان النوري بدمشق – : « كنت بعدما يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان وأنا معهم ، أجلس مع الشيخ رضي الدين الرحبي فأعاين كيفية استدلاله على الأمراض وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم ، وأبحث معه في كثير من الأمراض ومداواتها » .

وكان لا يسمح للطبيب بالانفراد بالمعالجة حتى يؤدي امتحانًا أمام كبير أطباء الدولة ، يتقدم إليه برسالة في الفن الذي يريد الحصول على الإجازة في معاناته ، وهي من تأليفه أو تأليف أحد كبار علماء الطب ، له عليها دراسات وشروح ، فيمتحنه فيها ويسأله عن كل مايتعلق بما فيها من الفن ، فإذا أحسن الاجابة أجازه كبير الأطباء بما يسمح له بمزاولة مهنة الطب ، وقد اتفق في عام ٣١٩ هـ ٩٣١ م في أيام الخليفة المقتدر أن بعض الأطباء أخطأ في علاج رجل فمات ، فأمر الخليفة أن يمتحن جميع أطباء بغداد

من جديد ، فامتحنهم سنان بن ثابت كبير أطباء بغداد ، فبلغ عددهم في بغداد وحدها ثمانمائة طبيب ونيفًا وستين طبيبًا ، هذا عدا عمّن لم يمتحنوا من مشاهير الأطباء ، وعدا عن أطباء الخليفة والوزراء والأمراء .

ولا يفوتنا أن نذكر أنه كان يلحق بكل مستشفى مكتبة عامرة بكتب الطب وغيرها مما يحتاجه الأطباء وتلاميذهم ، حتى قالوا : إنه كان في مستشفى ابن طولون بالقاهرة خزانة كتب تحتوي على ما يزيد على مائة ألف مجلد في سائر العلوم .

أما نظام الدخول الى المستشفيات ، فقد كان مجانًا للجميع ، لا فرق بين غني وفقير وبعيد وقريب ، ونابه وخامل ، يُفحص المرضى أولًا بالقاعة الخارجية ، فمن كان به مرض خفيف يكتب له العلاج ، ويصرف من صيدلية المستشفى ، ومن كانت حالته المرضية تستوجب دخوله المستشفى كان يقيد اسمه ، ويدخل الى الحمام ، وتخلع عنه ثيابه فتوضع في مخزن خاص ، ثم يعطى ثيابًا خاصة للمستشفى ، ويدخل إلى القاعة المخصصة لأمثاله من المرضى ، ويخصص له سرير مفروش بأثاث جيد ، ثم يعطى الدواء الذي يعيّنه الطبيب ، والغذاء الموافق لصحته ، بالمقدار المفروض له ، وكان غذاء المرضى يحتوي على لحوم الأغنام والأبقار والطيور والدجاج ، وعلامة الشفاء أن يأكل المريض رغيفًا كاملًا ودجاجة كاملة في الوقعة الواحدة ، فإذا أصبح في دور النقاهة أدخل القاعة المخصصة للناقهين ، حتى إذا تم شفاؤه أُعطي بدلة من الثياب جديدة ، ومبلغًا من المال يكفيه إلى أن يصبح قادرًا على العمل . وكانت غرف المستشفى نظيفة تجري فيها المياه ، وقاعاته مفروشة بأحسن الأثاث ، ولكل مستشفى مفتشون على النظافة ، ومراقبون للقيود المالية ، وكثيرًا ما كان الخليفة أو الأمير يتفقد بنفسه المرضى ويشرف على حسن معاملتهم .

هذا هو النظام السائد في جميع المستشفيات التي كانت قائمة في العالم الإسلامي ، سواء في المغرب أم في المشرق .. في مستشفيات بغداد ودمشق والقاهرة والقدس ومكة والمدينة والمغرب والأندلس ... وسنقتصر في حديثنا على أربع مستشفيات في أربع مدن من عواصم الإسلام في تلك العصور .

الأول – المستشفى العضدي ببغداد : بناه عضد الدولة بن بويه عام ٣٧١ هـ بعد أن اختار الرازي الطبيب المشهور مكانه بأن وضع أربع قطع لحم في أربعة أنحاء بغداد ليلًا ، فلما أصبح وجد أحسنها رائحة في المكان الذي أقيم عليه المستشفى فيما بعد ، فأقيم

المستشفى وأنفق عليه مالًا عظيمًا ، وجمع له من الأطباء أربعة وعشرين طبيبًا ، وألحق به كل ما يحتاج إليه من مكتبة علمية وصيدلية ومطابخ ومخازن . وفي عام ٤٤٩هـ جدد الخليفة القائم بأمر الله هذا المستشفى ، وجمع فيه من الأشربة والأدوية والعقاقير التي يعز وجودها كثيرًا ، وأقام الفرش واللحف للمرضى ، والعطورات الطبية والأسرة والثلج والمستخدمين والأطباء والفراشين ، وله بوابون وحراس ، وفيه حمام ، وبجانبه بستان قد حوى كل أنواع الثمار والبقول ، والسفن على مائه تنقل الضعفاء والفقراء ، والأطباء يتناوبونهم بكرة وعشية ، ويبيتون عندهم بالنوبة .

الثاني – المستشفى النوري الكبير بدمشق : أنشأه السلطان الملك العادل نور الدين الشهيد سنة ٥٤٩ هـ ١١٥٤ م من مال أخذه فدية من أحد ملوك الفرنج ، وكان حين بنائه من أحسن ما بني من المستشفيات في البلاد كلها ، شرط فيه أنه على الفقراء والمساكين ، وإذا اضطر الأغنياء إلى الأدوية التي فيه يسمح لهم بها ، وكان الشراب فيه والدواء مباحًا لكل مريض يقصده . وقد دخله ابن جبير الرحالة عام ٥٨٠ هـ ، فوصف عناية الأطباء بالمرضى وتفقدهم لشؤونهم ، وإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية ، وكان فيه قسم خاص بالأمراض العقلية ، يوثق فيه المجانين بالسلاسل مع العناية بعلاجهم وغذائهم ، ويذكر بعض المؤرخين أنه زار دمشق عام ٨٣١هـ رجل أعجمي من أهل الفضل والذوق واللطافة ، فلما دخل المستشفى النوري ، ونظر إلى كثرة أطبائه ، وحسن العناية بمرضاه ، وما يحتويه من المآكل والتحف واللطائف التي لا تحصى ، أراد أن يختبر معرفة أطبائه ، فتمارض وأقام به ثلاثة أيام ورئيس الأطباء يتردد إليه ليختبر ضعفه ، فلما جسّ نبضه علم أنه غير مريض ، وأنه إنما اراد اختبار أطبائه ، فوصف له الأطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلوى والأشربة والفواكه المتنوعة ، ثم بعد ثلاثة أيام كتب له ورقة يقول فيها : إن الضيافة عندنا ثلاثة أيام ... فعرف الأعجمي أنهم فطنوا لقصده ، وأنهم استضافوه في المستشفى هذه المدة كلها .

وقد استمر هذا المستشفى يقوم بعمله العظيم حتى سنة ١٣١٧ هـ ، حيث أنشئ مستشفى الغرباء ، وهو المستشفى الذي تشرف عليه الآن كلية الطب في الجامعة السورية ، فأقفل المستشفى النوري ثم استعمل مدرسة أهلية .

الثالث – المستشفى المنصوري الكبير : المعروف بمارستان قلاوون ، كان دارًا لبعض الأمراء ، فحولها الملك المنصور سيف الدين قلاوون إلى مستشفى عام ٦٨٣ هـ ١٢٨٤م ،

وأوقف عليه ما يغل عليه ألف درهم في كل سنة ، وألحق به مسجدًا ومدرسة ومكتبًا للأيتام . قالوا : وكان سبب بنائه أن الملك المنصور قلاوون ، لما توجه وهو أمير الى غزو الروم ، في أيام الظاهر بيبرس عام ١٢٧٥ م أصابه بدمشق مرض ، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من المستشفى النوري الكبير ، فبرأ ، وركب حتى شاهد المستشفى بنفسه ، فأعجب به ونذر لله إن آتاه الله الملك أن يبني مثله ، فلما صار سلطانًا اختار هذه الدار فاشتراها وحولها إلى مستشفى ، وكان آية من آيات الدنيا في التنظيم والترتيب ، جعل الدخول إليه والانتفاع منه مباحًا لجميع الناس من ذكر وأنثى وحر وعبد وملك ورعية ، وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة ، ومن مات جُهز وكُفّن ودُفن . وعين فيه الأطباء من مختلف فروع الطب ، كما وظف له الفراشين والخدمة لخدمة المرضى وإصلاح أماكنهم وتنظيفها وغسل ثيابهم وخدمتهم في الحمام ، بحيث كان لكل مريض شخصان يقومان بخدمته ، وجعل لكل مريض سريرًا وفرشًا كاملًا ، وأفرد لكل طائفة من المرضى أماكن تختص بهم ، ورتب فيه مكانًا يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء دروس الطب على الطلبة . ومن أروع ما فيه أن الاستفادة منه ليست مقصورة على من يقيم فيه من المرضى ، بل رتب لمن يطلب وهو في منزله ما يحتاج إليه من الأشربة والأغذية والأدوية ... وأدى هذا المستشفى عمله الإنساني الجليل حتى أخبر بعض أطباء العيون الذين عملوا فيه أنه كان يعالج فيه كل يوم من المرضى الداخلين إليه والناقهين والخارجين أربعة آلاف نفس ، ولا يخرج منه كل من يبرأ من مرض حتى يعطى كسوة للباسه ودراهم لنفقاته حتى لا يضطر للالتجاء إلى العمل الشاق فور خروجه .

ومن أروع ما فيه أيضًا ، النص في وقفيته على أن يقدم طعام كل مريض بزبدية خاصة به من غير أن يستعملها مريض آخر ، ووجوب تغطيتها وإيصالها إلى المريض بهذا الشكل .

ومن أروع ما فيه أيضًا ، أن المؤرّقين فيه من المرضى كانوا يعزلون في قاعة منفردة يشنفون فيها آذانهم بسماع ألحان الموسيقى الشجية ، أو يتسلون باستماع القصص يلقيها عليهم القصاص ، وكان الناقهون منهم تمثل أمامهم الروايات المضحكة ، ومشاهد من الرقص البلدي (الذي يتعارفه أهل القرى) ، وكان المؤذنون في المسجد الملاصق له يؤذنون في السحر قبل ميعاد الفجر بساعتين ، وينشدون الأناشيد بأصوات ندية تخفيفًا لآلام المرضى الذين يضجرهم السهر وطول الوقت . وقد استمرت هذه العادة حتى دخول الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨م فشاهدها العلماء الفرنسيون بأعينهم

وكتبوا عنها ، وهذا لعمر الله سمو إنساني عجيب ، وفطنة طبية لم يتنبه إليها العالم الحديث إلا في العصر الحاضر .

ويذكرني هذا بما كنت سمعته في مدينة طرابلس عن وقف غريب مخصص ريعه لتوظيف اثنين يمران بالمستشفيات يوميًا ، فيتحدثان بجانب المرضى حديثًا خافتًا ليسمعه المريض بما يوحي له بتحسن حالته واحمرار وجهه وبريق عينيه .

ونرى من الفائدة أن نذكر نص الوقفية لهذا المستشفى العظيم ، كما ذكرها مؤلف تاريخ البيمارستانات في الإسلام :

« فإن أحق ما انتهزت فرص أجره العزائم ، وأحرزت مواهب بره الغنائم ، وأجدر ما تنبه لاغتنام ثوابه كل نائم ، وأولى ما توجه إليه كل متوجه وقام إليه كل قائم ، ما عادت بالخيرات عوائده ، وزادت في المسرات زوائده ، واستمرت على الآباء فوائده ، واستقرت على التقوى بتطاول الآمال قواعده ، وهي الأوقاف العميم برها ، المقيم أجرها ، الجسيم وفرها ، الكريم ذخرها ، فهي الحسنات التي هي الجنان ، والقربات التي فيها رضوان الرحمن ، والصدقات التي هي مهور الحور الحسان ، والنفقات التي هي بحور الأجور واللؤلؤ والمرجان ... ولا يخفى ما فيها من إدخال السرور على المريض الفقير ، وإيصال الحبور إلى قلبه الكسير ، وإغنائه بإيوائه ومداواته ، الذي لا يعبر عن وفور أجرها بتعبير ، فطوبى لمن عامل مولاه العزيز الغفار ، وراقبه مراقبة العالم بسره ونجواه في الإيراد والإصدار ، وأقرضه أحسن القروض ، على حسب الإمكان والاقتدار ، وانتهز الفرصة بالاستباق ، وأحرز باغتنام أجرها قصب السباق ، فساعد الفقير المسلم على إزالة ألمه ، ومداواة سقمه ، مساعدة تنجيه غدًا من عذاب ربه الخلاق ، ورجاء أن تكون له بها عند الله الرتبة العظمى ، والقربة التي لا يخاف بأجرها ظلمًا ولا هضما ، والحسنة التي لا تبقي لذنبه هما . ولما علم بذلك مولانا السيد الأجل ، السلطان الملك المنصور العالم العادل ... فتقدم أمره الشريف بوقف البيمارستان المنصوري ... (وهنا تَذكر الوقفيةُ وصفَه ومكانه وأوقافه) لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء المثرين والفقراء المحتاجين ، بالقاهرة ومصر وضواحيها ، من المقيمين بها والواردين إليها من البلاد والأعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم ، وتباين أمراضهم وأوصابهم ، من أمراض الأجسام ، قلّت أو كثرت ، اتفقت أو اختلفت ، وأمراض الحواس خفيت أو ظهرت ، واختلال العقول التي حفظها أعظم المقاصد والأغراض ، وأول ما يجب

الإقبال عليه دون الانحراف عنه والإعراض ، وغير ذلك مما تدعو حاجة الإنسان إلى صلاحه وإصلاحه ،بالأدوية والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب ، والانشغال فيه بعلم الطب والاشتغال به ، يدخلونه جموعًا ووحدانا ، وشيوخًا وشبانًا ، وبلغاء وصبيانًا ، وحرمًا وولدانا ، يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين برئهم وشفائهم ، ويصرف ما هو معد فيه للمداواة ، ويفرق للبعيد والقريب ، والأهلي والغريب ، والقوي والضعيف ، والدني والشريف ، والعلي والحقير ، والغني والفقير ، والمأمور والأمير ، والأعمى والبصير ، والمفضول والفاضل ، والمشهور والخامل ، والرفيع والوضيع ، والمترف والصعلوك ، والمليك والمملوك ، من غير اشتراط لعوض من الأعواض ، ولا تعريض بإنكار على ذلك ولا اعتراض ، بل لمحض فضل الله وطَوْله الجسيم ، وأجره الكريم ، وبره العميم ، وأمره بإجراء النفقات على من يقوم بمصالح المرضى به من الأطباء والكحالين ، والجرائحيين وطباخي الشراب والمزاور والطعوم ، وصانعي المعاجين والأكحال والأدوية والمسهلات المفردة والمركبة ، وعلى القومَة والفراشين والخزان والأمناء والمباشرين وغيرهم ممن جرت عادة أمثالهم بذلك ، وعلى ما يقوم بمداواة المرضى من الأطعمة والأشربة والأكحال والشيافات [1] ، والمعاجين والمراهم والأدهان والشربات ، والأدوية المركبة والمفردة ، والفرش والقدور والآلات المعدة للانتفاع بها في مثله . ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف ما تدعو حاجة المرضى إليه من مشموم في كل يوم ، وزبادي فخار برسم أغذيتهم ، وأقداح زجاج وغرار برسم أشربتهم ، وكيزان وأباريق فخار ، وقصاري فخار ، وزيت للوقود عليهم ، وبماء من بحر النيل المبارك باسم شربهم وأغذيتهم ، و ... لأجل تغطية أغذيتهم عند صرفها عليهم ، وفي ثمن مراوح خوص لأجل استعمالهم إياها في الحر ، ويصرف الناظر ثمن ذلك من ريع هذا الوقف ، في غير إسراف ولا إجحاف ، ولا زيادة على ما يحتاج إليه ، كل ذلك بحسب ما تدعو الحاجة لزيادة الأجر والثواب . ويصرف الناظر في هذا الوقف لرجلين مسلمين موصوفين بالديانة والأمانة ، يكون أحدهما خازنًا لمخزن حاصل التفرقة ، يتولى تفرقة الأشربة والأكحال والأعشاب والمعاجين والأدهان والشيافات ، المأذون له في صرف ذلك من المباشرين ، ويكون الآخر أمينًا يتسلم صبيحة كل يوم وعشيته أقداح الشراب المختصة بالمرضى والمختلين من الرجال والنساء المقيمين بهذا المارستان ، ويفرّق ذلك عليهم ويباشر شرب كل منهم لما وصف له من ذلك ، ويباشر المطبخ بهذا المارستان وما يطبخ به

(١) الشيافة : الفتيلة .

للمرضى من مزاور ودجاج وفراريج ولحم وغير ذلك ، ويجعل لكل مريض ما طبخ له في كل يوم في زبدية منفردة له من غير مشاركة مع مريض آخر ، ويغطيها ويوصلها الى المريض الى أن يتكامل إطعامهم ويستوفي كل منهم غذاءه وما وصف له بكرة وعشية . ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه بهذا المارستان من الأطباء المسلمين الطبائعيين والكحالين والجرائحيين بحسب ما يقتضيه الزمان وحاجة المرضى ، وهو مخيَّر في العدة وتقرير الجامكيات ما لم يكن في ذلك حيف ولا شطط ، يباشرون المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا المارستان ، مجتمعين ومتناوبين باتفاقهم على التناوب ، أو بإذن الناظر في التناوب ، ويسألون عن أحوالهم وما يتجدد لكل منهم ، من زيادة مرض أو نقص ، ويكتبون بما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء وغيره في دستور ورق ليصرف على حكمه ، ويلتزمون المبيت في كل ليلة بالمارستان ، مجتمعين أو متناوبين ، ويجلس الأطباء الكحالون لمداواة أعين الرمداء بهذا المارستان ، ولمداواة من يرد إليهم به من المسلمين بحيث لا يرد أحد من المسلمين الرمداء من مداواة عينيه بكرة كل يوم ، ويباشرون المداواة ويتلطفون فيها ، ويرفقون بالرمداء في ملاطفتهم ، وإن كان بينهم من به قروح أو أمراض في عينه تقتضي مراجعة الكحال للطبيب الطبائعي ، راجعه وأحضره معه ، وباشر معه من غير انفراد عنه ، ويراجعه في أحوال برئه وشفائه ، ويصرف الناظر في هذا الوقف لمن ينصبه شيخًا للاشتغال عليه بعلم الطب على اختلافه ، يجلس بالمسطبة الكبرى المعينة له في كتاب الوقف المشار إليه ، للاشتغال بعلم الطب على اختلاف أوضاعه ، في الأوقات التي يعينها له الناظر ما يرى صرفه إليه ، وليكن جملة أطباء البيمارستان المبارك من غير زيادة عن العدد ، ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف للقَومَة والفرّاشين الرجال والنساء بهذا البيمارستان ، ما يرى صرفه إلى كلٍّ بحسب عمله ، على أن كلًّا منهم يقوم بخدمة المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا البيمارستان وبغسل ثيابهم وتنظيف أماكنهم ، وإصلاح شؤونهم والقيام بمصالحهم على ما يراه من العدة والتقدير ، بحيث لا يزيد في العدة ولا في المقادير على الحاجة إليه في ذلك بحسب الزمان والمكان . ويصرف الناظر ما تدعو الحاجة إليه في تكفين من يموت بهذا المارستان من المرضى والمختلين الرجال والنساء ، فيصرف ما يحتاج إليه برسم غسله وثمن كفنه وحنوطه ، وأجرة غاسله وحافر قبره ومواراته في قبره على السّنة النبوية والحالة المرضية ، ومن كان مريضًا في بيته وهو فقير كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاج إليه من حاصل هذا المارستان ، من الأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها ، مع عدم التضييق في

الصرف على من هو مقيم به ، فإن مات بين أهله صرف إليه الناظر في موته بتجهيزه وتغسيله وتكفينه وحمله إلى مدفنه ومواراته في قبره ما يليق بين أهله . ومن حصل له الشفاء والعافية ممن هو مقيم بهذا البيمارستان المبارك صرف الناظر إليه من ريع هذا الوقف المذكور كسوة مثله على العادة ، بحسب الحال من غير زيادة تقتضي التضييق على المرضى والقيام بمصالحهم ، كل ذلك على ما يراه الناظر ويؤدي إليه اجتهاده بحسب ما تدعو إليه الحاجة . وعلى الناظر في هذا الوقف أن يراعي تقوى الله سبحانه وتعالى سرًّا وجهرًا ، ولا يقدم صاحب جاه على ضعيف ، ولا قويًّا على ما هو أضعف منه ، ولا متأهلًا على غريب ، بل يقدم في الصرف إليه زيادة الأجور والثواب والتقرب إلى رب الأرباب .

الرابع – مستشفى مراكش : وهو الذي أنشأه أمير المؤمنين المنصور أبو يوسف من ملوك الموحدين بالمغرب . تخيّر ساحة فسيحة في مراكش بأعدل موضع فيها ، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه ، وأمر أن يغرس فيه من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات ، وأجرى فيه مياهًا كثيره تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك في وسط إحداها رخام أبيض ، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره ما لا يوصف ، وأقام فيه الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، وأعد فيه للمريض ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء ، فإذا نقه المريض ، فإن كان فقيرًا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يشتغل ، وإن كان غنيًّا دفع إليه ماله . ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء ، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج حتى يشفى أو يموت . ، وكان في كل جمعة يزوره ويعود المرضى ويسأل عن أحوالهم وعن معاملة الأطباء والممرضين لهم .

وبعد ، فهذه نماذج أربعة من مئات المستشفيات التي كانت منتشرة في شرق العالم الإسلامي وغربه ، يوم كانت أوربة تتيه في ظلام الجهل ولا تعرف شيئًا من هذه المستشفيات ودقتها ونظافتها وسمو العاطفة الإنسانية فيها ، وإليك ما قاله المستشرق الألماني ماكس مايرهوف عن حالة المستشفيات في أوربا في العصر الذي كانت فيه المستشفيات في حضارتنا كما وصفناها ... قال الدكتور ماكس : « إن المستشفيات العربية ونظم الصحة في البلاد الإسلامية الغابرة لتلقي علينا الآن درسًا قاسيًا مرًّا لا نقدره حق قدره إلا بعد القيام بمقارنة بسيطة مع مستشفيات أوربا في ذلك الزمن نفسه » . مرّ أكثر من ثلاثة قرون على أوربا ، اعتبارًا من زمننا هذا ، قبل أن تعرف للمستشفيات

العامة معنى ، ولا نبالغ إذا قلنا بأنه حتى القرن الثامن عشر (١٧١٠ م) والمرضى يعالجون في بيوتهم أو في دور خاصة كانت المستشفيات الأوربية قبلها عبارة عن دور عطف وإحسان ، ومأوى لمن لا مأوى لديه ، مرضى كانوا أم عاجزين ، وأصدق مثال لذلك هو مستشفى (أوتيل ديو) بباريس ، أكبر مستشفيات أوربا في ذلك العصر ، وصفه كل من ماكس توردو وتينون بما يلي :

« يحتوي المستشفى على ١٢٠٠ سرير ، منها ٤٨٦ خصصت لنفر واحد ، أما الباقي - ولم تكن سعة الواحد منها تتجاوزخمسة أقدام - فتجد فيها عادة ما يتراوح بين ثلاثة مرضى وستة ، وكانت الردهات الكبرى عفنة كثيرة الرطوبة ، لا منافذ تهوية فيها ، مظلمة دومًا ، ترى فيها في كل حين حوالي ثمانمائة مريض يفترشون الأرض وهم مكدسون بعضهم فوق بعض ، على القاع أو على كوم من القش ، في حالة يرثى لها .. إنك لتجد في السرير ذي الحجم المتوسط أربعة أو خمسة أو ستة مرضى متلاصقين ، قدم أحدهم على رأس الثاني ، تجد أطفالًا بجانب شيوخ ، ونساء بجانب رجال ، (قد لا تصدق لكنها الحقيقة) تجد امرأة في المخاض مع طفل في حالة تشنج مصاب بالتيفوس يحترق في بحران الحمى ، وكلاهما إلى جنب مريض بداء جلدي يحك جلده المهترئ بأظفاره الدامية فيجري قيح البثور على الأغطية . وطعام المرضى من أخس ما يتصوره العقل ، يوزع عليهم بكميات قليلة للغاية ، وفي فترات متباعدة لا نظام فيها . واعتادت الراهبات أن يحابين المرضى الطائعين المنافقين على حساب الآخرين ، فيسقينهم الخمور ، ويصلنهم بالحلوى والمآكل الدسمة مما يتفضل به المحسنون في الوقت الذي هم فيه أحوج إلى الحمية ، فيموت الكثير منهم بالتخمة ويفطس غيرهم جوعًا . وكانت أبواب المستشفى مفتوحة في كل وقت وحين لكل رائح وغاد ، وبهذا تنتشر العدوى بانتقالها ، وبالفضلات وبالهواء النتن الملوث . وإن لم يتفضل المحسنون على المرضى ماتوا جوعًا ، كما يموتون أحيانًا بالتخمة أو من فرط السكر ، والفرش حافلة بالحشرات الدنيئة وهواء الحجرات لا يطاق لفساده ، حتى أن الخدم والممرضين لم يكونوا يجرؤون على الدخول إلا بعد وضع إسفنجة مبللة بالخل على أنوفهم . وتترك جثث الموتى ٢٤ ساعة على الأقل قبل رفعها من السرير المشاع ، وكثيرًا ما تتفسخ الجثة وتتعفن وهي ملقاة بجانب مريض يكاد يطير صوابه » .

هذه مقارنة بسيطة بين حالة المستشفيات عندنا في عهود حضارتنا ، وحالتها عند الغربيين في تلك العصور ، وهي تدل على مبلغ الانحطاط العلمي الذي كان عليه القوم ،

والجهل الفاضح بأصول المستشفيات ، بل بقواعد الصحة العامة البديهية . وإنا لنرى فيما يرويه العربي أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار ، مبلغ جهل الغربيين الصليبيين بالطب ، ومبلغ علم أطبائهم بشكل مضحك ، من الحادثتين التاليتين :

ومن عجيب طبهم (الفرنج) أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه . فأرسل إليه طبيبًا نصرانيًا يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ما داويت المرضى . قال : أحضروا عندي فارسًا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف ، فعملت للفارس لبخة ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطبت مزاجها ، فجاءهم طبيب إفرنجي ، فقال لهم : (هذا ما يعرف شيء يداويهم) وقال للفارس : أيما أحب إليك ، تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال أعيش برجل واحدة . قال أحضروا لي فارسًا قويًا وفأسًا قاطعًا ، فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة واقطعها . فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية .. سال مخ الساق ومات من ساعته .. ثم ينطلق ليروي كيف أن هذا الطبيب الصليبي أمر بتغطيس المرأة بماء مغلي فماتت لساعتها » .

ونختم هذا الحديث بالنتائج التي نحب أن نلفت الأنظار إليها بعد هذه المقارنات ، أننا في حضارتنا كنا أسبق من الغربيين إلى تنظيم المستشفيات بتسعة قرون على الأقل ... وأن مستشفياتنا قامت على عاطفة إنسانية نبيلة لا مثيل لها في التاريخ ولا يعرفها الغربيون حتى اليوم .. وأننا كنا أسبق الأمم إلى معرفة ما للموسيقى والأدب المضحك والايحاء الذاتي من أثر بالغ في شفاء المرضى .. وأننا بلغنا في تحقيق التكافل الاجتماعي حدًّا لم تبلغه الحضارة الغربية حتى اليوم حين نجعل الطب والعلاج والغذاء للمرضى بالمجان ، بل حين كنا نعطي الفقير الناقه من المال ما ينفق على نفسه حتى يصبح قادرًا على العمل ... إن هذه نزعة إنسانية بلغنا فيها الذروة يوم كنا نحمل لواء الحضارة ، فأين نحن منها اليوم ، وأين منها هؤلاء الغربيون ؟ ..

- II -

المكتبات الخاصة والعامّة

مما يتصل بالحديث عن المؤسسات الخيرية والعلمية في حضارتنا ، الحديث عن المكتبات . فقد كانت مدارس للتعليم ، ومؤسسات ينفق عليها الأمراء والأثرياء والعلماء ، لينتشر العلم بين الناس ، وخصوصًا في ذلك الزمن الذي لم تكن فيه الطباعة موجودة ، وكانت الكتب تنسخ على أيدي نساخ متخصصين لهذا العمل . فكان يبلغ بذلك ثمن الكتاب حدًّا قد يتعذر على طالب العلم أو العالم الفقير شراؤه ، فكيف إذا أراد أن تكون له مجموعة من الكتب في الفن أو العلم الذي يتخصص فيه ؟ ومن هنا كان قيام المكتبات في مجتمعنا الماضي منبعثًا عن عاطفة إنسانية وعن نزعة علمية في وقت واحد .

لعل الأدب العربي هو أغنى الآداب العالمية القديمة بالتغني بالكتاب والولع به والرغبة فيه والتحدث عنه ، حتى لكأنه حبيب نأى مزاره وشطَّت داره ، فالقلوب إليه منصرفة وبه مولعة ، قال أحمد بن إسماعيل : « الكتاب هو المسامر الذي لا يبتدئك في حال شغلك ، ولا يدعوك في وقت نشاطك ، ولا يحوجك إلى التجمل له ، والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك ، والصديق الذي لا يغريك ، والرفيق الذي لا يملُّك ، والناصح الذي لا يستزلُّك » . ولقد كانوا يفضلون مطالعة الكتب على غشيان الناس في مجالسهم ، ويرون الأنس بها أقرب إلى القلب من الأنس بالخليفة أو ذي سلطان . . اعتزل محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الأديب فترة من الزمن في بيته ، وأراد الجاحظ زيارته ، فرأى خير هدية إليه يستصحبها معه أن يهديه كتاب سيبويه إمام العربية ، وتسلّم الوزير الهدية فرحًا مسرورًا ، وقال للجاحظ : والله ما أهديت لي شيئًا أحب إليَّ منه . وطلب أحد الخلفاء بعض العلماء ليسامره ، فلما جاءه الخادم وجده جالسًا وحواليه كتب يقرأ فيها ، فقال له : إن أمير المؤمنين يستدعيك ، فأجابه : قل له : عندي قوم من الحكماء أحادثهم ، فإذا فرغت منهم حضرت ، فلما عاد الخادم إلى الخليفة وأخبره بذلك قال له : ويحك من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده؟ قال الخادم : والله يا أمير المؤمنين ما كان عنده أحد ، قال فأحضره الساعة كيف كان ، فلما أحضر العالم قال له الخليفة : من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك ؟ قال يا أمير المومنين :

هُمُ جلساءُ ما تمل حديثهم ... أمينون مأمونون غيبًا ومشهدا

إذا ما خلونا كان خير حديثهم   معينًا على نفي الهموم مؤيدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى   وَعقلًا وتأديبًا ورأيًا وسؤددا
فلا ريبة تخشى ولا سوء عشرة   ولا نتقي منهم لسانًا ولا يدا
فإن قلت أموات فلست بكاذب   وإن قلت أحياء فلست مفندا

فعلم الخليفة أنه إنما يعني بالحكماء الذين كان يجتمع معهم كتبَ العلماء والحكماء ، فلم ينكر عليه تأخره .

وفضل الصاحب بن عباد أن يبقى بجانب مكتبته على أن يتولى أعظم المناصب في بلاط نوح بن منصور الساماني ، ذلك أنه مولع بمكتبته ، فلا هو يستطيع الذهاب بدونها ، ولا هو يستطيع حملها معه ، فآثر أن يبقى بجانبها .

بهذه الروح العلمية شغف علماؤنا وأغنياؤنا وأمراؤنا بالكتب وجمعها ، حتى أنهم كانوا يرون نكبتهم في أموالهم وبيوتهم أيسر عليهم من نكبتهم في كتبهم .

هجم الجنود مرة على دار ابن العميد بعد أن انتصروا على غلمانه وحراسه ، ففر ابن العميد إلى دار الإمارة ، فوجد أن خزائنه جميعها قد نهبت ، حتى أنه لم يجد ما يجلس عليه ، ولا وجد كوزًا يشرب فيه الماء واشتغل قلبه بدفاتره وكتبه ، ولم يكن شيء أعز عليه منها ، وكانت كثيرة تشمل جميع العلوم ، وكل نوع من أنواع الحكم والأدب ، تحمل على مائة بعير فأكثر ، فلما رأى ابن العميد خازن مكتبته سأله عنها فأجابه : هي بحالها لم تمسها يد ، فسرّي عن ابن العميد ، وقال لخازنه : أشهد أنك ميمون النقيبة ، أما سائر الخزائن فيوجد عنها عوض ، وهذه الخزانة - أي مكتبته - هي التي لا عوض لها .

وبهذه الروح العلمية كانوا يتنافسون في شراء المؤلفات العلمية من مؤلفيها غب الانتهاء من تأليفها . سمع الحكم أمير الأندلس بكتاب الأغاني المشهور الآن في عالم الأدب ، فأرسل الى مؤلفه أبي الفرج الاصفهاني ألف دينار من الذهب ثمن نسخة منه ، فأرسل إليه أبو الفرج بنسخة من كتابه ، فقرئ كتابه في الأندلس قبل أن يقرأ في العراق موطن المؤلف .

وقد نشأ عن هذه الروح العلمية انتشار المكتبات في شتى أنحاء العالم الإسلامي ، فقلّما كانت مدرسة ليس بجانبها مكتبة ، وقلّ أن تجد قرية صغيرة ليس فيها مكتبة ، أما العواصم والمدن فقد كانت تغص بدور الكتب بشكل لا مثيل له في تاريخ العصور الوسطى .

كانت المكتبات نوعين رئيسيين : عامة وخاصة .

أما العامة فقد كان ينشئها الخلفاء والأمراء والعلماء والأغنياء ، كانت تشيّد لها أبنية خاصة ، وأحيانًا كانت تلحق بالمساجد والمدارس الكبرى .

أما الأبنية الخاصة ، فقد كانت تشتمل على حجرات متعددة تربط بينها أروقة فسيحة ، وكانت الكتب توضع على رفوف مثبتة بالجدران تخصص كل غرفة لفرع من فروع العلم ، فلكتب الفقه غرفة ، ولكتب الطب غرفة ، ولكتب الأدب غرفة ، وهكذا . وكان فيها أروقة خاصة للمطالعين ، وغرف خاصة للنساخ الذين ينسخون الكتب ، وفي بعضها غرف للموسيقى ، يلجأ إليها المطالعون للترفيه وتجديد النشاط - وهذا مما تفردت به حضارتنا - وفيها غرف لحلقات الدراسة والنقاش العلمي بين رواد تلك المكتبات . وكانت جميعها تؤثث تأثيثًا فخمًا ومريحًا ، وكان في بعضها غرف لطعام روادها ، ومنامة للغرباء منهم . كالذي قيل في مكتبة علي بن يحيى بن المنجم ، فقد كان له قصر عظيم في قرية قريبة من بغداد (هي كركر من نواحي القفص) وفيه مكتبة عظيمة كان يسميها خزانة الحكمة ، يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبذولة في ذلك لهم ، والأرزاق مغدقة عليهم ، وكل ذلك من مال علي بن يحيى نفسه . بل هنالك ما هو أطرف من ذلك مما لا نعلم له مثيلًا اليوم في أرقى عواصم الحضارة الغربية ، فقد كان في الموصل دار أنشأها أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي ، وسماها دار العلم ، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفًا على كل طالب علم لا يمنع أحد من دخولها ، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب وكان معسرًا أعطاه ورَقًا ووَرِقًا ، (أي كتبًا ونقودًا) ، وكانت تفتح في كل يوم ... فهل سمعتم حتى الآن بمكتبة في لندن أو واشنطن أو عاصمة من عواصم العالم الكبرى اليوم تمنح الأدب والأموال لطلبة العلم؟ . .

وكان للمكتبات العامة موظفون يرأسهم خازن المكتبة ، وهو دائمًا من أشهر علماء عصره ، ومناولون يناولون الكتب للمطالعين ، ومترجمون ينقلون الكتب من غير العربية إلى العربية ، ونساخ يكتبون الكتب بخطوطهم الجميلة ، ومجلدون يجلدون الكتب لتحفظ من التمزق والضياع ، هذا عدا عن الخدم وغيرهم ممن تقتضيهم حاجة المكتبات .

وكان لكل مكتبة صغيرة أو كبيرة فهارس يُرجع إليها لسهولة استعمال الكتب ، وهي مبوبة بحسب أبواب العلم ، وبجانب هذا كانت توضع قائمة على كل دولاب

تحتوي أسماء الكتب الموجودة في الدولاب . وكان من المعروف في نظام المكتبات أن الاستعارة الخارجية مسموحة في أغلبها لقاء ضمان عن الكتاب من عامة الناس ، أما العلماء وذوو الفضل فلم يؤخذ منهم ضمان .

أما الموارد المالية التي كانت تقوم بنفقات المكتبات ، فمنها ما كان من الأوقاف التي تنشأ من أجلها خاصة ، وهذه حال أكثر المكتبات العامة ومنها ما كان من عطايا الأمراء والأغنياء والعلماء الذين يؤسسون تلك المكتبات ، فقد قالوا إنه كان عطاء محمد بن عبد الملك الزيات للنقلة والنساخ في مكتبته ألفي دينار كل شهر . وكان المأمون يعطي حنين بن إسحق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلًا بمثل .

والآن لنذكر بعض الأمثلة عن المكتبات العامة والخاصة التي كان لها ذكر في التاريخ .

من أشهر المكتبات : **مكتبة الخلفاء الفاطميين في القاهرة** : كانت مكتبة عجيبة بما حوت من نفائس المصاحف والكتب ، بلغ مجموع كتبها كما يروي كثير من المؤرخين مليوني كتاب ، وإن كان المقريزي يميل إلى أنها مليون وستمائة ألف كتاب .

ومنها مكتبة دار الحكمة بالقاهرة : أنشأها الحاكم بأمر الله ، وافتتحت في ١٠ من جمادى الآخرة ٣٩٥ هـ . بعد أن فرشت وزخرفت ، وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور ، وأقيم بها القوامون والمناولون والفرّاشون ، وقد جمع فيها من الكتب مالم يجتمع لأحد قط من الملوك . حتى كانت تضم أربعين خزانة ، احتوت إحدى خزائنها على ١٨٠٠٠ كتاب من العلوم القديمة . وكان الدخول إليها مباحًا لجميع الناس ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وكان فيها كل ما يحتاج إليه الناس من الحبر والأقلام والورق والمحابر .

ومنها بيت الحكمة في بغداد : أنشأها هارون الرشيد ، وبلغت ذروة مجدها في عصر المأمون . كانت أشبه بجامعة فيها كتب يجتمع فيها رجال يتفاوضون ويطالعون وينسخون ، وكان فيها نساخ ومترجمون يترجمون ما كان يحصل عليه الرشيد والمأمون في فتوحاتهم بأنقرة وعمورية وقبرص . ويحدثنا ابن النديم أن المامون كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد انتصر عليه المأمون في بعض المعارك ، فجعل من شروط الصلح أن يسمح ملك الروم بترجمة ما في خزائنه من كتب بواسطة العلماء الذين يرسلهم المأمون ، ففعل ، وهذا أعظم ما يروى في التاريخ عن حاكم منتصر لا يرى ثمنًا للنصر أغلى من كتب العلم ينقلها إلى أبناء أمته وبلاده .

ومنها مكتبة الحكم بالأندلس : كانت غاية في العظمة والاتساع ، حتى قيل أنها بلغت أربعمائة ألف مجلد ، وكانت لها فهارس غاية في الدقة والنظام ، حتى أن الفهرست الخاص بدواوين الشعر الموجودة في تلك المكتبة بلغت أربعة وأربعين جزءًا ، وكان فيها الحذاق في صناعة النسخ ، والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كله ، واجتمعت بالأندلس في عهده خزائن من الكتب لم تكن لأحد قبله ولا بعده .

ومنها مكتبة بني عمار في طرابلس : كانت آية من الآيات في العظمة والضخامة . كان فيها مائة وثمانون ناسخًا ينسخون فيها الكتب ، ويتبادلون العمل ليلًا ونهارًا بحيث لا ينقطع النسخ . وكان بنو عمار يحرصون على أن يزودوها بكل نادر وكل جديد من الكتب ، ووظفوا إخصائيين وتجارًا ليجوبوا البلاد ويحرزوا لهم الكتب المفيدة من البلدان النائية والأقطار الأجنبية . استفاد منها المعري وذكرها في بعض كتبه ، واختُلف في مقدار ما كان فيها وأعدل الأقوال أنها كانت تحوي مليون كتاب .

ومن المكتبات الخاصة ما يتحدث التاريخ عنها بإعجاب ، وقد كانت في كل بلد في شرق العالم الإسلامي وغربه ، وقلّ أن تجد عالمًا إلا وله مكتبة كانت تحوي آلافًا من الكتب . **فمنها مكتبة الفتح بن خاقان** (المقتول في عام ٢٤٧) : وكانت مكتبته واسعة عهد بجمعها إلى رجل من خيرة رجال عصره علمًا وأدبًا ، وهو علي بن يحيى المنجم ، حتى جمع له فيها من كتب الحكمة ما لم يجتمع في خزانة حكمة قط .

ومنها مكتبة ابن الخشاب (المتوفى عام ٥٦٧) : كان من أعلم الناس بالنحو ، وكانت له معرفة في التفسير والحديث والمنطق والفلسفة . كان مولعًا بالكتب إلى حد الشره ، وقد حمله ولعه هذا على أن يسلك طرقًا غير محمودة لجمع الكتب ، فكان إذا حضر سوق الكتب وأراد شراء كتاب غافل الناس وقطع منه ورقة وقال : إنه مقطوع ، ليأخذه بثمن بخس ، وإذا استعار من أحد كتابًا وطالبه به قال : دخل بيني وبين الكتب فلا أقدر عليه .

ومنها مكتبة جمال الدين القفطي (المتوفى عام ٦٤٦) : جمع من الكتب ما لا يوصف ، وقُصد بها من الآفاق طمعًا في سخائه وكرمه ، وكان لا يحب من الدنيا سوى الكتب ، فأوقف عليها نفسه ، ورفض أن يتزوج حتى لا يشغله الأهل والأولاد عنها ، وأوصى بمكتبته للناصر ، وكانت تساوي خمسين ألف دينار .

ومنها مكتبة بني جرادة العلماء في حلب : كتب أحدهم – أبو الحسن بن أبي جرادة

(٥٤٨هـ) بخطه ثلاث خزائن من الكتب النفيسة ، وخزانة لولده أبي البركات ، وخزانة لابنه عبد الله .

ومنها مكتبة الموفق بن المطران الدمشقي (٥٨٧هـ) : كانت له همة عالية في تحصيل الكتب ، حتى أنه لما مات كان في خزانته من الكتب الطبية وغيرها عشرة آلاف مجلد ، وكان في خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له أبدًا ، ويعطيهم رواتبهم وأرزاقهم .

وبعد ، فلئن كانت النشوة تملأ نفوسنا حين نتحدث عن انتشار المكتبات في العالم الإسلامي في عصور حضارته الزاهرة ، فإن الأسى ليملأ قلوبنا حين نتذكر مصائر هذه المكتبات ، وما تعرضت له من بوار وحرائق لا يمكن أن تقدر خسارة العلم فيها أبدًا .

لقد أصيبت مكتباتنا بما قضى على ملايين الكتب منها بحيث فقدها العالم إلى الأبد ، وهي من أثمن ما خلفه الفكر الانساني في التاريخ ..

فنكبة التتار حين افتتحوا بغداد ، أصابت هذه المكتبات قبل أن تصيب أي شيء غيرها ، وكلنا يعلم أن التتار الهمج قذفوا بما وجدوا في دور الكتب العامة في نهر دجلة حتى فاض النهر بالكتب الملقاة فيه ، فكان يعبر الفارس عليها من ضفة إلى ضفة ، وظل ماء النهر أسود داكنًا أشهرًا طويلة من تغيره بمداد الكتب التي أغرقت فيه ...

ونكبة الغزو الصليبي أفقدتنا أعز المكتبات التي كانت في طرابلس والمعرة والقدس وغزة وعسقلان وغيرها من المدن التي خربها الصليبيون ، وحسبنا أن نعلم أن بعض المؤرخين قدّر ما أتلفه الصليبيون في طرابلس وحدها بثلاثة ملايين مجلد .

ونكبة استيلاء الأسبان على الأندلس أفقدتنا تلك المكتبات العظيمة التي يتحدث عنها التاريخ بذهول ، فقد احترقت كلها بفعل المتدينين المتعصبين ، حتى أنه قد أحرق في يوم واحد في ميدان غرناطة ما قدره بعض المؤرخين بمليون كتاب .

ودعوا نكباتنا العامة إلى نكباتنا في الفتن الداخلية ، فقد كانت نهاية مكتبة الخلفاء الفاطميين أن اعتدى عليها الغوغاء من المماليك الأتراك ، فأشعلوا فيها النار ، واقتسم العبيد جلود كتبها فاتخذوها نعالًا يلبسونها ، وألقي منها عدد كبير في النيل ، وحمل بعضها إلى سائر الأقطار ، وبقي منها ما سفت عليه الرياح ، فصار تلالًا يعرف بتلال الكتب .

وقد كان في حلب مكتبة تسمى خزانة الصوفية ، وكانت مكتبة عظيمة فنهبت ولم

يبق فيها إلا القليل في فتنة قامت بين السنة والشيعة في أيام عاشوراء .

ومكتبة الحاكم المستنصر في الأندلس ، قد ذهبت بها أيدي الفتن الداخلية حين دخل البربر قرطبة ، فبيع كثير منها ، ونهب الباقي .

وأغرب النكبات مما يثير الضحك ما تفعله الحماقة بالعلم وكتبه .. فقد كان للأمير ابن فاتك – من أمراء مصر في القرن الخامس الهجري – مكتبة ضخمة ، كان يجلس فيها أكثر أوقاته ولا يفارقها ، وكانت له زوجة كبيرة القدر من أرباب الدولة ، ولكن داخلتها الغيرة من الكتب ، فلما توفي نهضت هي وجواريها إلى خزائن كتبه وفي قلبها لوعة من الكتب ؛ لأنه كان يشتغل بها عنها ، فجعلت تبكيه وتندبه ، وفي أثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار هي وجواريها ... هكذا فعلت زوجة أحنقها ولع زوجها بالكتب ، فانتقمت من الكتب بعد وفاته ، ولا يزال في زوجاتنا من يغرن من الكتب كما غارت تلك الزوجة الفاضلة ، وقديمًا كانت زوجة الإمام الزهري تقول له حين تراه غارقًا في الكتب : « والله لَهذه الكتب أشدّ علي من ثلاث ضرائر! » .

هذا حديث مكتباتنا في عصور حضارتنا ، وهذه نهاية ما انتهت إليه ، ولئن كان الاعتراف للأعداء بالجميل صعبًا على النفس ، فإن من الواجب أن نعترف أن دور الكتب في أوربا حفظت لنا كثيرًا من البقية الباقية من هذا التراث ، وأن فيها من ذخائر المؤلفات العربية ما لا يوجد مثله في العالم الإسلامي كله الآن .

- ١٢ -

المجالس والنّدوات العلميّة

وهذا لون طريف من ألوان حضارتنا الزاهية ، كان له أثر كبير في نشر الثقافة وذيوع العلم ، ورفع المستوى الاجتماعي والذوق العلمي في الأوساط الثقافية هو تلك المجالس والندوات العلمية التي تعددت في عواصمنا ومدننا الكبرى مع ما كان للمدارس والمعاهد والمكتبات من عظم وكثرة . هذه المجالس في تعددها وتنوع أبحاثها كانت مظهرًا رائعًا من مظاهر اليقظة الفكرية في أمتنا إبَّان مجدها وقوتها ، وإنك لا تشك حين ترى مختلف طبقات الشعب من خلفاء وأمراء وعلماء وأدباء وشعراء يجعلون من أبحاثهم في مجالسهم الخاصة والعامة مباريات علمية وأدبية وفلسفية ، إن هذه الأمة بلغت من الشغف بالعلم والظمأ لارتياد مناهله ، حدًّا يشعرك بعظمتها ورقيها .

كانت هذه المجالس متعددة متنوعة ..

فمجالس في رحاب الخلفاء يتصدرها الخليفة بنفسه ، وينتظم في عقدها أشهر العلماء والأدباء والفقهاء في عاصمته ، ولقد كانت مجالس الخلفاء تتطور بتطور الحضارة الإسلامية ونمو ثقافتها . فهي في عهد الخلفاء الراشدين تتحدث عن شؤون الدولة وأعمال الولاة ، بمثابة مجلس نيابي يتحدث فيه عظماء القوم عما يهم الدولة من شؤون وقضايا متنوعة .. احتاج عمر بن الخطاب يومًا إلى وال كفء يوليه عملًا هامًّا من أعمال الدولة ، فقال لجلسائه : دلوني على رجل أستعمله على أمر قد أهمني ، فقالوا : فلان ، قال : لا حاجة لنا فيه ، قالوا : فمن تريد؟ قال : أريد رجلًا إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم ، قالوا : ما نعرف هذه الصفة إلا في الربيع بن زياد الحارثي ، قال : صدقتم فولاه . ثم أصبحت مجالس الخلفاء في عهد الأمويين مجالس للأدب والحكمة والشعر ...

حضر عبد الله ابن هاشم مجلس معاوية ذات يوم ، فقال معاوية : من يخبرني عن الجود والنجدة والمروءة ؟ فقال عبدالله : يا أمير المؤمنين ! أما الجود فابتذال المال والعطية قبل السؤال ، وأما النجدة فالجراءة على الإقدام والصبر عند ازورار الأقدام ، وأما المروءة فالصلاح في الدين والإصلاح للحال والمحاماة عن الجار . وقال عبد الملك يومًا في بعض مجالسه : أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه مرتبة وله علي ما يتمناه؟ فقال سويد بن

غفلة : أنا لها يا أمير المؤمنين ، فقال : هات ، فقال سويد : أنف ، بطن ، ترقوة ، ثغر ، جمجمة ، حلق ، خد ، دماغ ، ... فقال آخر في المجلس : يا أمير المؤمنين : أنا أقولها في جسد الانسان مرتين ، فقال سويد أنا أقولها ثلاثًا : أنف ، أسنان ، أذن ، واستمر . . . فأعجب عبد الملك من بديهته وأجازه . وحضر أعرابي مجلس عبد الملك ، وكان فيه جرير الشاعر ، فقال عبد الملك للأعرابي : هل لك علم بالشعر؟ فقال الأعرابي : سلني عما بدا لك يا أمير المؤمنين ، قال : أي بيت قالته العرب أمدح؟ فأجاب الأعرابي : هو قول جرير :

ألستمْ خيرَ من ركِبَ المطايا وأندى العالمينَ بطونَ راحِ؟

فرفع جرير رأسه وتطاول ، ثم قال عبد الملك : فأي بيت قالته العرب أفخر؟ فقال الأعرابي : هو قول جرير :

إذا غضبت عليَّ بنو تميم حسبتُ الناسَ كلهمُ غضابا

فتحرك جرير واهتز طربًا . ثم قال عبد الملك : فأي بيت أهجى؟ قال : قول جرير :

فغُضَّ الطرف إنك من نُميرٍ فلا كعبًا بلغتَ ولا كلابا

فاستشرق جرير لذلك . ثم قال عبد الملك : فأي بيت أغزل؟ قال الأعرابي : هو قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حورٌ قتلننا ثم لم يحيينَ قتلانا

فاهتز جرير وطرب . ثم قال عبد الملك : فأي بيت أحسن تشبيهًا؟ قال الأعرابي : هو قول جرير :

سرى نحوهم ليل كأن نجومه قناديلُ فيهنَّ الذبالُ المفتَّلُ

فقال جرير وقد بلغ به الزهو والطرب مبلغه : جائزتي هي لهذا الأعرابي يا أمير المؤمنين ، فقال عبد الملك : وله مثلها ، ولك يا جرير جائزتك لا تنقص منها شيئًا ، فخرج الأعرابي وفي يده اليمنى ثمانية آلاف درهم ، وفي اليسرى رزمة ثياب .

وتطورت بعد ذلك مجالس الخلفاء في العصر العباسي ، فكانت من أروع المجالس في حسن أثاثها ، وسعة رحابها ، وكثرة علمائها وأدبائها ، وتنوع أبحاثها وفنونها ، هذا عدا عن مجالس الطرب التي كانت الصبغة الأدبية غالبة عليها بما يثار فيها من حديث

الشعر والشعراء وتفسير الكلمات التي يتغنى بها المغنون . ومن أشهر خلفاء بني العباس في فخامة مجالسهم وروعتها الرشيد والمأمون ، أما الرشيد فقد كان يحتشد في مجالسه أعلام العلماء من كل فن وعلم ، وحسبك أن كان من رواد مجالسه من الشعراء : أبو نواس ، وأبو العتاهية ، ودعبل ، ومسلم بن الوليد ، والعباس بن الأحنف ، ومن الفقهاء : أبو يوسف والشافعي ومحمد بن الحسن ، ومن اللغويين : أبو عبيدة والأصمعي والكسائي ، ومن المؤرخين : الواقدي المؤرخ الشهير . ومن المغنين : إبراهيم الموصلي وابنه إسحق .

ولنذكر لك مثلًا للمناظرات الأدبية التي كانت تجري في مجلسه ، اجتمع عنده يومًا سيبويه والكسائي وكبار أئمة اللغة والأدب ، فزعم الكسائي أن العرب تقول : كنت أظن الزنبور أشد لسعًا من النحلة فإذا هو إياها (أي مثلها) فقال سيبويه : بل الصحيح : فإذا هو هي ، فتشاجرا طويلًا واتفقا على مراجعة عربي خالص لا يشوب كلامه شيء من كلام أهل الحضر ، وكان الرشيد شديد الحب والعناية بالكسائي إذ كان يعلمه قبل أن يلي الخلافة ، فاستدعى عربيًا وسأله ، فنطق بالجملة كما نطق سيبويه ، فقال له : نريد أن تنطقها كما نطق بها الكسائي ، فأجابه : إن لساني لا يطاوعني على ذلك ، وأخيرًا رضي معهم أنهم إذا سألوه عن المسألة فالصواب مع من فيهما ، فيقول الصواب مع الكسائي ، وتم ذلك في محضر حافل ، فعلم سيبويه أنهم تعصبوا عليه للكسائي ، وخرج من بغداد حزينًا ، قالوا : ولم تطل به الحياة بعد ذلك كثيرًا حتى مات كمدًا .

ومن المناظرات الفقهية التي وقعت في مجلسه ، أن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة وصف الكسائي بأنه لا يحسن الفقه ، وإنما يحسن شيئًا من كلام العرب ، فقال الكسائي : من تبحر في علم واحد اهتدى به إلى سائر العلوم ، فقال له محمد يختبره : ما تقول فيمن سها في سجود السهو ، هل يسجد مرة أخرى ؟ قال الكسائي : لا ، قال محمد : لماذا؟ فأجاب الكسائي : لأن النحاة تقول : المصغّر لا يصغّر .

وأما المأمون فكانت مجالسه من أروع المجالس العلمية في تاريخ الحضارة الإسلامية ، إذ كان هو نفسه من أساطين العلماء ، وكان بلاطه يموج بجمهرة عظيمة من رجال العلم والأدب والشعراء والأطباء والفلاسفة الذين استدعاهم المأمون من جهات متعددة من أنحاء مملكته وشملهم جميعًا بعنايته مهما اختلفت مشاربهم أو جنسياتهم ، وكثيرًا ما كان يبدأ المناقشات ويثير العلماء للبحث ، وكان ينهى الفلاسفة والعلماء إن كانوا في

مجلسه أن يستدل كل واحد منهم بآيات من كتابه المقدس ، ويقول لهم : لا تستشهدوا بالقرآن ولا بالإنجيل تظنون فيّ مقاربتكم (أي مجاملتكم) . والله لوددت أن الأمر ليس لكم ولا فيكم ، ولكن كرهت إن فاتني أن أكون من العرب أن يفوتني الاعتراف بالحق والصواب ، ثم بين لهم وجه تفضيله العرب على غيرهم بأنهم حين كانوا في بادئهم لم يكن لهم كتاب ولا علم ، ومع ذلك فقد اهتدوا بفطرتهم إلى معرفة نبات الأرض وما يصلح الشاة منه والبعير ، ونظروا إلى الزمان واختلافه ، فجعلوه ربيعيًّا وصيفيًّا وقيظيًّا وشتويًّا ، ثم علموا أن شربهم من السماء ، فعرفوا الأنواء وتغير الزمان ، واهتدوا بنجوم السماء على مسارب الأرض والبلاد ، وجعلوا بينهم شيئًا ينتهون به عن المنكر ، ويرغِّبهم في الجميل ، ويتجنبون به الدناءة ، ويحضهم على مكارم الأخلاق ، حتى أن الرجل منهم وهو في فج من الأرض وخشونة في العيش ، يصف المكارم فلا يبقي من نعتها شيئًا ، ويسرف في ذم المساوئ فلا يقصر ، ليس لهم كلام إلا وهم يحضون به على اصطناع المعروف ثم حفظ الجار ، وبذل المال ، وابتناء المحامد ، كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله ، ويستخرجه بفطنته وفطرته ، من غير تعلم ولا تأدب ، بل لنحائز (طبائع) مؤدبة ، وعقول عارفة ، ثم قال ابن المقفع : فلذلك قلت لكم أنهم أعقل الأمم ؛ لصحة الفطرة ، واعتدال البنية ، وصواب الفكر ، وذكاء الفهم .

هذا ولا يفوتنا أن نذكر دور الوراقين ، أي دكاكين بيع الكتب ، فقد كانت أيضًا مجالس للعلماء يتساقطون فيها أطيب الحديث عن العلم ، كل في العلم الذي تخصص فيه ، وكان بائعو الكتب في الكثير الغالب أدباء ذوي ثقافة ، يستفيدون من حرفتهم إشباع نهمهم العلمي ، وحسبك أن تعلم أن ابن النديم صاحب الفهرست وياقوت صاحب معجم الأدباء ومعجم البلدان كانا وراقين – أي بائعي كتب – وكثيرًا ما كان أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني ، وأبو نصر الزجاج الأديب اللغوي المشهور يلتقيان في دكاكين الوراقين ، يتحدثون عن الشعر والأدب مع الشعراء الذين كانوا يفدون الى تلك الدكاكين ، وفي إحدى جلساتهما كان أبو الحسن علي بن يوسف الشاعر جالسًا عند أبي الفتح بن الحزاز الوراق ، وهو ينشد أبيات إبراهيم بن العباس الصولي التي يقول فيها :

رأى خلتي من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلّتِ

فلما بلغ إليه استحسنه وكرره ، حدّث أبو نصر الزجاج قال : قال لي أبو الفرج : قم

إليه فقل له : قد أسرفت في استحسان هذا البيت ، وهو كذاك ، فأين موضع الصنعة فيه ؟ فقمت فقلت له ذلك فقال : قوله « وكانت قذى عينيه » فعدت إلى الأصفهاني وعرفته ذلك فقال : عد إليه فقل له أخطأت ، الصنعة في قوله « من حيث يخفى مكانها » . وفيها يقول بعض الأدباء :

مجالسة السوق مذمومة ومنه مجالسُ قد تحتسبْ
فلا تقربَنْ غيرِ سوق الجياد وسوق السلاح وسوق الكتبْ
فهاتيك آلة أهل الوغى وهاتيك آلة أهل الأدبْ

وحقًّا ما قال . فإن الحاجة إلى معرفة السلاح والحرب ، ثم إلى معرفة العلم والأدب ، هي حاجة كل إنسان كريم يريد أن يعيش عزيزًا كريمًا .

وبعد ، فالأمة التي تستحق الحياة تجد غذاءها في العلم قبل كل شيء . وأمتنا يوم كانت تبعث الحياة في الأمم والشعوب كانت تسلك كل سبيل للتزود من العلم ونشره وإذاعته ، بل كان مختلف أبنائها من الخليفة إلى العالم والتاجر يتبارون في الاستكثار من أدوات العلم وكتبه وبناء مدارسه ، وكانت كما رأيت لا يتحدث فيها إلاَّ بما يزيد في العلم ويفتح الذهن ويصقل العقل . وهم حتى في مجالس سمرهم ولهوهم كانوا علماء أدباء ، لا يفوتهم تحقيق مسألة ، أو كشف غامض ، أو تصحيح خطأ ، كما نلمس ذلك في الحادثة التاريخية التالية :

في إحدى مجالس الخليفة الواثق غنت جارية بين يديه :

أَظلومُ إن مصابَكم رجلًا أهدى السلام تحيةً ظلم

فردَّ عليها بعض الحاضرين نصبَها رجلًا ظانًا أنه خبر إنَّ ، فصوابه الرفع على زعمه ، وما درى أن رجلًا مفعول المصدر و مصابكم في معنى إصابتكم وخبر إن هو ظلم ، فأنكرت الجارية ما زعمه هذا الرجل وقالت : لا أقبل هذا ولا أغيِّره ، وقد قرأته هكذا على أعلم الناس بالبصرة أبي عثمان المازني ، فأمر الواثق بإحضاره من البصرة إلى بغداد ، قال المازني : لما دخلت على الواثق قال : باسمك ؟ يريد : ما اسمك؟ قال المازني : وكأنه أراد أن يعلمني معرفته بإبدال الباء مكان الميم في هذه اللغة ، فقلت له : بكر بن محمد المازني . قال : مازن شيبان أم مازن تميم؟ قلت : مازن شيبان ، فقال : حدثنا ، فقلت يا أمير المؤمنين : هيبتك تمنعني من ذلك ، وقد قال الراجز :

لا تقلواها وادلواها دلوا إن مع اليوم أخاه غدوا

قال : فسّره لنا ، قلت : لا تقلواها : لا تعنفاها في السير : يقال : قلوته ، إذا سرت سيرًا عنيفًا ، ودلوت : إذا سرت سيرًا رفيقًا .

قال : ثم أحضر التوزي وهو الذي خطّأ الجارية في غنائها - وكان في دار الواثق - وكان التوزي يقول : إن مصابَكم رجلٌ لا، يظن أن مصابكم اسم مفعول ، ورجل ، خبر ، فقال له المازني : كيف تقول : إنَّ ضَرْبَكَ زيدًا ظلمٌ ؟ فقال التوزي : حسبي ، وفهم .

ولم نتحدث هنا عن مجالس الفقهاء والمحدثين والوعاظ ، فذلك مما شاع وذاع في كل بلدة وقرية ، وقصارى القول : إن حضارتنا في عصور ازدهارها ملأت العالم الإسلامي بنور العلم يغشى بيوتها ومساجدها ومدارسها وأنديتها ومجالسها ودكاكينها ، حتى حق لِعالم كبير كجوستاف لوبون أن يقول : إن حب العرب للعلم كان عظيمًا ، وإنهم بلغوا درجة رفيعة من الثقافة بعد أن أتموا فتوحهم بزمن قصير ، حتى استطاعوا أن يبدعوا حضارة أينعت فيها الآداب والعلوم والفنون وبلغت الذروة !! .

- ١٣ -

العواصم والمدن الكبرى

نحن الآن في القرن الرابع الهجري ، أو القرن العاشر الميلادي ، وسنلقي نظرة سريعة على مدن العالم الإسلامي ومدن العالم الغربي ، وسيروعنا الفرق العظيم بين العالمين ، سيدهشنا أن نرى عالمًا زاخرًا بالحياة والقوة والحضارة - وهو العالم الإسلامي - وعالمًا بدائيًا لا أثر فيه لحياة أو علم أو حضارة - وهو العالم الغربي - ولنحاول المقارنة بين مدن هذين العالمين ، ولنبدأ بالعالم الغربي لنرى كيف كانت معيشة سكانه واتساع مدنه ومستوى أهله .

جاء في التاريخ العام للأفيس ورامبو ما يلي : كانت إنجلترا الإنجلوسكسونية في القرن السابع الميلادي إلى ما بعد العاشر فقيرة في أرضها منقطعة الصلات بغير بلادها ، سمجة وحشية ، تبني البيوت بحجر غير منحوت ، وتشيدها من تراب مدقوق ، وتجعلها في وَطاء من الأرض ، مساكن ضيقة المنافذ ، غير محكمة الإغلاق ، واصطبلات وحظائر لا نوافذ لها ، تقرض الأمراض والأوبئة المتكررة المواشي والسائمة وهي المورد الوحيد في البلاد ، ولم يكن الناس أحسن مسكنًا وأمنًا من الحيوانات ، يعيش رئيس القبيل في كوخه مع أسرته وخدمه ومن اتصل به ، يجتمعون في قاعة كبرى في وسطها كانون ينبعث دخانه من ثقب فتح في السقف فتحًا غليظًا ، ويأكلون كلهم على خوان واحد ، يجلس السيد وقرينته في أحد أطراف المائدة ، ولم تكن الشوكات معروفة ، وللأقداح حروف من أسفلها ، فكان على كل مدعو أن يمسك بيده قدحه ، أو يفرغه في فيه دفعة واحدة وينتقل السيد إلى غرفته في المساء بعد أن يتناولوا الطعام ويعربدوا على الشراب ، ثم ترفع المنضدة والصقالات وينام جميع المجتمعين في تلك القاعة على الأرض أو على دِكَك ، واضعًا كل فرد سلاحه فوق رأسه ؛ لأن اللصوص كانوا من الجرأة بحيث يقتضي على الناس أن يقفوا لهم بالمرصاد كل حين لئلا يؤخذوا على غرة .

وكانت أوربا في ذلك العهد غاصة بالغابات الكثيفة ، متأخرة في زراعتها ، وتنبعث من المستنقعات الكثيرة في أرباض المدن روائح قتالة ، تجتاح الناس وتحصدهم . وكانت البيوت في باريس ولندن تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب (كبيوت القرى عندنا منذ نصف قرن) ولم يكن فيها منافذ ولا غرف مدفأة ، وكانت البسط مجهولة عندهم ، لا بساط لهم غير القش ينشرونه على الأرض ، ولم يكونوا يعرفون

النظافة ، ويلقون بأحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم فتتصاعد منها روائح مزعجة ، وكانت الأسرة الواحدة تنام في حجرة واحدة تضم الرجال والنساء والأطفال ، وكثيرًا ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات الداجنة ، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف ، يجعل مخدة أو وسادة ، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح ، ولم تكن أكبر مدينة في أوربا تضم أكثر من خمسة وعشرين ألفًا .

هكذا كان الغرب في القرون الوسطى حتى القرن الحادي عشر فما بعده ، باعتراف مؤرخيهم أنفسهم ، فلننتقل سريعًا - قبل أن ننسى هذه الصورة - إلى الشرق ، إلى حيث المدن والعواصم كبغداد ودمشق وقرطبة وغرناطة وإشبيلية .. لنرى كيف كانت هذه المدن وكيف كانت حضارتنا .

لنزر مدن الأندلس ، فهي مجاورة لأوربا التي نتحدث عنها ، ولنبدأ بقرطبة ، ولنحاول أن نلم بملامحها الظاهرة ، لا بكل شيء فيها ، فكيف نجدها ؟

كانت قرطبة في عهد عبد الرحمن الثالث الأموي عاصمة الأندلس المسلمة ، تنار بالمصابيح ليلًا ويستضيء الماشي بسرُجها عشرة أميال لا ينقطع عنه الضوء (أي ستة عشر كيلو مترًا) ، أزقتها مبلطة ، وقُماماتها مرفوعة من الشوارع ، محاطة بالحدائق الغنّاء حتى كان القادم إليها يتنزه ساعات في الرياض والبساتين قبل أن يصل إليها ، كان سكانها أكثر من مليون نسمة (في ذلك العصر الذي لم تكن فيه أكبر مدينة في أوربا تزيد عن خمسة وعشرين ألفًا) وكانت حماماتها تسعمائة حمام وبيوتها ٢٨٣,٠٠٠ بيت ، وقصورها ثمانون ألف قصر ، ومساجدها ستمائة مسجد ، وكانت استدارتها ثمانية فراسخ (أي ثلاثين ألف ذراع) . كان كل ما فيها متعلمًا ، وكان في ربضها الشرقي مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي ، هذا في ناحية واحدة من نواحيها ، وكان فيها ٨٠ مدرسة يتعلم فيها الفقراء مجانًا وخمسون مستشفى . وأما مسجدها فكان ولا تزال آثاره حتى اليوم آية خالدة في الفن والإبداع . كان ارتفاع مئذنته أربعين ذراعًا تقوم قبته الهيفاء على روافد من الخشب المحفور ، وتستند إلى ١٠٩٣ من الأعمدة المصنوعة من مختلف الرخام على شكل رقعة شطرنج فيتألف منها تسعة عشر صحنًا طولًا وثمانية وثلاثون صحنًا عرضًا ، وكان يضاء في الليل بأربعة آلاف وسبعمائة مصباح تستنفد في كل سنة ٢٤ ألف رطل من الزيت ، وترى في وجهه الجنوبي تسعة عشر بابًا مصفحًا بصفائح برونزية عجيبة الصنع خلا الباب الوسط الذي

كان مصفحًا بألواح من الذهب ، وترى في كل من وجهه الشرقي والغربي تسعة أبواب مشابهة لتلك الأبواب ، أما محرابه فحسبك أن يقول فيه مؤرخو الفرنج : « إنه أجمل ما تقع عليه عين بشر ، وإنه لا يرى أحسن من زخرفه وسنائه في أي أثر قديم أو حديث » .

وقد ألحق بقرطبة بناء الزهراء الخالد في التاريخ بفنه وروعته حتى قال فيه المورخ التركي ضيا باشا : « إنه كان أعجوبة الدهر التي لم يخطر مثل خيالها في ذهن بنَّاء منذ برأ الله الكون ، ولا تمثل رسم كرسمها في عقل مهندس منذ وُجدت العقول » . كانت قبابه تقوم على ٤٣١٦ عمود من أنواع الرخام المنقوش نقشًا متساويًا ، وكانت أرضه مبلطة بقطع من الرخام ذي الألوان المختلفة على شكل جميل ، وكانت جدره مصفحة بألواح لازوردية ذهبية ، وفي ردهاته عيون ماء عذب ينصب ويغيب في أحواض من الرخام الأبيض مختلفة الأشكال إلى أن ينتهي إلى بركة في ردهة الخليفة ، وكانت ترى في وسط البركة إوزَّة من ذهب معلقة في رأسها لؤلؤة وفي مياهها من صنوف الأسماك والحيتان الألوف الكثيرة حتى كان عدد ما يرمى لها من الخبز كل يوم اثني عشر ألف رغيف .

وفي الزهراء المجلس المسمى (قصر الخلافة) وكان سقفه وحيطانه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه المتلون أجناسه ، وفي وسطه حوض عظيم مملوء بالزئبق ، وفي كل جانب من جوانب المجلس ثمانية أبواب على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجوهر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها على صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار ، وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحدًا من أهل مجلسه أومأ إلى أحد مواليه فيحرك ذلك الزئبق ، فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب ، حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك ، وكانت تحيط بالقصر حدائق غناء وميادين واسعة الأرجاء ، ومن وراء ذلك سور عظيم يحيط بهذا البناء العجيب فيه ثلاثمائة برج حربي ، وكانت الزهراء تحتوي على دور الخليفة والأمراء والحريم ، وقاعات كبرى لجلوس الملك في مكان خاص أُطلق عليه السطح الممرد ، كانت له قبة قراميدها من ذهب وفضة ، ولكن القاضي منذر بن سعيد أنكر على الخليفة فعله هذا في حشد هائل بجامع قرطبة فنقضها وأعاد بناءها من لبن ، وكان فيها دور الصناعة والآلات : كدار صناعة آلات السلاح للحرب ، ودار صناعة الحلي للزينة ، ودار صناعة النحت والزخارف والتماثيل . وغير ذلك من المهن

والصناعات ، استغرق بناء الزهراء أربع سنوات ، كان معدل ما ينحت فيها كل يوم من الصخر ٦٠٠٠ صخرة عدا عن الصخر المنصرف في التبليط ، وعدد العمال الذين يشتغلون فيها كل يوم عشرة آلاف رجل ، ويخدم فيها كل يوم ١٤٠٠ بغل ، ويردها في كل ثلاثة أيام ١١٠٠ حمل من الجير والجص .

أما جامع الزهراء فقد كان يعمل فيه كل يوم من حذاق الصناع ألف رجل منهم ٣٠٠ بنّاء و ٢٠٠ نجار و ٥٠٠ من الأجراء وسائر الصناع ، وقد استتم بناؤه في ثمانية وأربعين يومًا فقط وهي سرعة لا يكاد يكون لها نظير .

وفي هذا القصر العظيم استقبل الخليفة المستنصر عام ٣٥١ ملك أسبانيا المسيحية أردون بن أذفونش ، وقد أصابه الذهول حينما دخل الزهراء ورأى أبهتها وعظمتها وخدمها وجندها وسلاحها ، ثم زاد ذهوله حين وصل إلى مجلس الخليفة المستنصر وفي جانبه عظماء المملكة وأشرافها وفحول العلماء والخطباء وأكابر القواد ، فلما قارب ملك الأسبان الدنو من الخليفة المستنصر كشف رأسه وخلع برنسه وبقي حاسرًا حتى أذن له الخليفة بالاقتراب منه ، فلما قابل الخليفة خرَّ ساجدًا سويعة ثم استوى قائمًا ثم تقدم خطوات وعاد إلى السجود .. فعل ذلك مرارًا إلى أن قدم بين يدي الخليفة فأهوى إلى يده ليقبلها فناوله إياها وعاد راجعًا مقهقرًا على عقبه دون أو يولي الخليفة ظهره . ثم جلس على سرير أعدَّ له ، فقال الخليفة مرحبًا به : « ليسرَّك إقبالك ، ويُغبطك تأميلك فلدينا لك من حسن رأينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته » . فلما ترجم له كلام الخليفة انبسط وجهه وانحط على رتبته وقبّل البساط ثم قال : « أنا عبد أمير المؤمنين مولاي ، المتورك على فضله ، القاصد إلى مجده ، المحكم في نفسه ورجاله ، فحيث وضعني من فضله ، وعوضني من خدمته رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة ونصيحة خالصة » فقال له الخليفة : « أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا ، وسينالك من تقديمنا لك ، وتفضيلنا إياك على أهل ملتك ما يُغبطك وتتعرف به من فضل جنوحك إلينا ، واستظلالك بظل سلطاننا » .

أسمعتم كلمات القوة والعظمة كيف تنطلق من فم الخليفة المستنصر فيسمعها ملك الأسبان فلا يكاد يفهمها حتى يخر ساجدًا مرة أخرى ثم يبتهل بالدعاء لما شمله الخليفة من عطفه وحمايته ؟

وإذا انتقلنا من ذلك إلى غرناطة تجلت لنا عظمة البناء والعمارة في قصر الحمراء وقد

كان آية عجبًا يدهش له الناظرون ، ولا يزال رغم عوادي الزمن محط أنظار السائحين من بلاد العالم كلها ، أُقيم هذا القصر على منحدر جبل يشرف على مدينة غرناطة وحقول البقعة الواسعة الخصيبة المحيطة بها ، فبدا من أجمل أمكنة العالم . وكانت فيه قاعات متعددة منها قاعة الأسود ، وغرفة الأختين ، وقاعة العدل ، وقاعة السفراء ، ولا يمكننا في هذا الحديث القصير أن نلم بوصف الحمراء وحسبنا أن يتغنى فيها الشاعر الفرنسي (فيكتور هوجو) بقوله :

« أيتها الحمراء! أيتها الحمراء! أيها القصر الذي زينتك الملائكة كما شاء الخيال وجعلتك آية الانسجام ، أيتها القلعة ذات الشرف المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان المائلة إلى الانهدام! حينما تنعكس أشعة القمر الفضية على جدرك من خلال قناطرك العربية يسمع لك في الليل صوت يسحر الألباب » .

وأما الحديث عن المدن الأندلسية الأخرى وما كانت عليه من رقي وعظمة فذلك حديث يطول ، وحسبنا أن نذكر هنا أن أشبيلية كان فيها ستة آلاف نول للحرير وحده ، وكانت محاطة من كل أطرافها بأشجار الزيتون ومن ثم كان فيها مائة ألف معصرة للزيت .

وعلى العموم فقد كانت مدن أسبانيا عامرة ، وكانت كل مدينة مشهورة بأنواع الصناعة تقبل عليها أوربا بشغف لا مثيل له . حتى إنها كانت مشهورة بمصانع الدروع والخوذ وسقي الفولاذ ، فيقبل الأوربيون على شرائها من كل مكان . ويقول رينو في كتابه الغارة على فرنسا : « إن العرب لما أغاروا من الأندلس على جنوبي فرنسا وافتتحوا بقيادة السمح الخولاني وعنبسة الكلبي والحر الثقفي مدائن أربونة وفرتشونه وأفنيون وليون كانوا مجهزين بأسلحة لم يكن للإفرنج مثلها » .

ولنتحول بعد ذلك إلى العالم الإسلامي الشرقي لنرى نموذجًا من مدنه الكبرى وحضاراته الرائعة . وسأقتصر هنا على بغداد وكيف كانت حين بنيت من عجائب الدنيا التي لا مثيل لها في القديم .

كانت بغداد قبل أن يبنيها المنصور الخليفة العباسي الشهير ضيعة صغيرة يجتمع فيها على رأس كل سنة التجار من الأماكن القريبة منها ، فلما عزم المنصور على بنائها أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين ثم وضع بيده أول آجرة في بنائها وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله ، والأرض لله يورثها من

يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . ثم قال : ابنوا على بركة الله ، بلغ مجموع ما أنفق على بنائها أربعة ملايين وثمانمائة ألف درهم وبلغ عدد العمال المشتغلين فيها مائة ألف ، وكان لها ثلاثة أسوار يلي الواحد منها الآخر . بلغ عدد سكانها مليوني نسمة ، وبلغت عدد دروبها وسككها ستة آلاف بالجانب الشرقي وأربعة آلاف بالجانب الغربي ، وكان فيها عدا دجلة والفرات أحد عشر نهرًا فرعيًا تدخل مياهها إلى جميع بيوت بغداد وقصورها وكان في نهر دجلة وحده من المعديات (المعبرانيات) ثلاثين ألفًا ، أما حماماتها فقد بلغت ستين ألف حمام ، وفي أواخر عهد العباسيين بها تناقص هذا العدد إلى بضعة عشر ألف حمام ، وأما مساجدها فقد بلغت ثلاثمائة ألف مسجد ، وأما سكانها وكثرة العلماء والأدباء والفلاسفة فذلك فيها ما لا يحيط به حصر ، ولننقل هنا ما قاله أبو بكر الخطيب في وصفها : « هذا إلى تركنا ذكر أشياء كثيرة من مناقبها التي أفردها الله بها دون سائر الدنيا شرقًا وغربًا ، وبين ذلك من الأخلاق الكريمة والسجايا المرضية ، والمياه العذبة الغدقة ، والفواكه الكثيرة الدمثة ، والأحوال الجميلة ، والحذق في كل صنعة والجمع لكل حاجة ، والأمن من ظهور البدع ، والاغتباط بكثرة العلماء والمتعلمين ، والفقهاء والمتفقهين ، ورؤساء المتكلمين ، وسادة الحساب والنحوية ، ومجيدي الشعراء ، ورواة الأخبار والأنساب وفنون الآداب وحضور كل طرفة ، واجتماع ثمار الأزمنة في زمن واحد ، لا يوجد ذلك في بلد من مدن الدنيا إلا بها ، سيما زمن الخريف . ثم إن ضاق مسكن بساكن وجد خيرًا منه ، وإن لاح له مكان أحب إليه من مكانه لم يتعذر عليه النقلة إليه من أي جانب من جانبيه أراده ومن أي طرف من أطرافه خف عليه ، ومتى هرب أحد من خصمه وجد من يستره في قرب أو بعد ، وإن آثر أن يستبدل دارًا بدار أو سكة بسكة أو شارعًا بشارع أو زقاقًا بزقاق أوغير ذلك من التبديل اتسع له الإمكان في ذلك حسب الحالة والوقت ، ثم عيون التجار المجهزين ، والسلاطين المعظمين ، وأهل البيوتات المبجلين ، في ناحية ناحية ، تنبعث الخيرات بهم إلى الذين هم في الحال دونهم غير منقطع ذلك ، ولا مفقود ؛ فهي من خزائن الله العظام التي لا يقف على حقيقتها إلا هو وحده » . وقال : « لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها ، وفخامة أمرها ، وكثرة علمائها وأعلامها وتميز خواصها وعوامها ، وعظم أقطارها وسعة أطرارها (١) وكثرة دورها ومنازلها ، ودروبها وشعوبها ، ومحالها وأسواقها ، وسككها وأزقتها ، ومساجدها وحماماتها ، وطرزها وخاناتها ،

(١) جمع طر بالضم : شفير النهر والوادي وطرف كل شيء وحرفه .

وطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، وبرد ظلالها ، وأفيائها ، واعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها ، وزيادة ما حصر من عدة سكانها . وأكثر ما كانت عمارة وأهلًا في أيام الرشيد ، إذ الدنيا قارّة المضاجع ، دارة المراضع ، خصيبة المراتع ، موروودة المشارع . ثم حدثت بها الفتن ، وتتابعت على أهلها المحن ، فخرب عمرانها ، وانتقل قطانها ، إلا أنها كانت قبل وقتنا والسابق لعصرنا على ما بها من الاختلال والتناقض في جميع الأحوال ، مباينة لجميع الأمصار ، ومخالفة لسائر الديار .

ونختم حديثنا هذا بوصف عظمتها في عهد المقتدر بالله ومبلغ ما وصلت إليه أبهة الخلافة في عصره حين زارها رسول ملك الروم . كانت دار الخلافة في اتساعها تفوق مدينة كبيرة من مدن سوريا اليوم . كان فيها من الخدم الخصي أحد عشر ألف خادم ومن غيرهم آلاف لا تحصى ، وكان عدد كل نوبة من نوب الفراشين أربعة آلاف فرّاش ، فلما وردها رسول ملك الروم أنزل في دار للضيافة ثم صف العسكر من دار الضيافة إلى دار الخليفة ، فبلغ عددهم مائة وستين ألف فارس وراجل فسار بينهم إلى أن بلغ الدار ثم سلم على الخليفة وأمر أن يطاف به دار الخلافة وقد أفرغت ولم يبق فيها إلا سبعة آلاف خادم وسبعمائة حاجب وأربعة آلاف غلام أسود ، وفتحت الخزائن وآلات السلاح والحرب فيها مرتبة كما ترتب أجهزة العرائس ، ولما دخل رسول ملك الروم دار الشجرة ذهل إذ رآها ، وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم ، لها ثمانية عشر غصنًا لكل غصن منها أغصان صغيرة وقفت عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهب ، وهي تتمايل في أوقات ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر ، وكل من هذه الطيور الفضية والذهبية يصفر ويهدر ، وفي جانب دار الشجرة تماثيل خمسة عشر فارسًا على خمسة عشر فرسًا قد ألبسوا الديباج وفي أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد كأن كل واحد منهم يقصد صاحبه ، ثم أدخل إلى القصر المعروف بالفردوس فكان فيه من آلات السلاح ما لا يحصى ثم أخرج من قصر إلى قصر – في دار الخلافة نفسها – حتى بلغ ما طافه ثلاثة وعشرين قصرًا إلى أن عادوا الى مجلس المقتدر بالله مرة أخرى بعد أن استراحوا سبع مرات . ويذكر المؤرخون أن عدد الفرش التي بسطت في دار الخلافة لزيارة رسول ملك الروم اثنين وعشرين ألف بساط عدا ما في المقاصير والمجالس من البسط والأنماط ، وعلق في قصور دار الخلافة من الستور الديباج المذهبة ثمانية وثلاثون ألف ستر ، ومما زاره رسول ملك الروم في دار الخلافة دار

الوحوش ، وفيها مختلف أنواع الحيوان المستأنسة والمتوحشة ، ودار الفيلة وفيها أربعة فيلة على كل فيل ثمانية نفر من الهنود ، ودار السباع وفيها مائة سبع ، خمسون يمينًا وخمسون يسارًا ، كل سبع منها في يد سبّاع وفي رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد .
ولا ريب في أن رسول ملك الروم قد بلغت الدهشة في نفسه مبلغها حين رأى عظمة دار الخلافة ، فما في الدنيا يومئذ دار كهذه الدار التي رآها ، وحسبنا هذا الذي ذكرناه لندرك روع حضارتنا في إبان عظمتها وقوتها .

المراجع

١ - تاريخ الأمم والملوك — الطبري
٢ - الخطط المقريزية — المقريزي
٣ - تاريخ بغداد — الخطيب البغدادي
٤ - النجوم الزاهرة — ابن تغري بردي الأتابكي
٥ - الأوقاف — الجصاص
٦ - تاريخ البيمارستانات في الإسلام — الدكتور أحمد عيسى
٧ - تاريخ التربية الإسلامية — الدكتور شلبي
٨ - مروج الذهب — المسعودي
٩ - فتح البلدان — البلاذري
١٠ - عصر المأمون — الدكتور أحمد فريد رفاعي
١١ - الطبقات الكبرى — ابن سعد
١٢ - السيرة — ابن هشام
١٣ - تاريخ دمشق — ابن عساكر
١٤ - الرياض النضرة في مناقب العشرة — المحب الطبري
١٥ - سيرة عمر بن عبد العزيز — ابن عبد الحكم
١٦ - الدارس في أخبار المدارس — النعيمي
١٧ - رحلة ابن جبير — ابن جبير
١٨ - طبقات الشافعية الكبرى — السبكي
١٩ - النهاية — ابن كثير
٢٠ - تاريخ ابن خلدون — ابن خلدون
٢١ - الإصابة في معرفة الصحابة — ابن حجر
٢٢ - الأغاني — أبو الفرج الأصفهاني
٢٣ -وفيات الأعيان — ابن خلكان
٢٤ - إنباه الرواه — جمال الدين القفطي
٢٥ - طبقات الأطباء — ابن أبي أصيبعة
٢٦ - تاريخ الحكماء — ابن القفطي
٢٧ - صبح الأعشى — القلقشندي
٢٨ - الاعتبار — أسامة بن منقذ

٢٩ - الفهرست	ابن النديم
٣٠ - معجم الأدباء	ياقوت
٣١ - سرح العيون	ابن نباته
٣٢ - الإمتاع والمؤانسة	أبو حيان التوحيدي
٣٣ - الروضتين	أبو شامة
٣٤ - إحياء علوم الدين	الغزالي
٣٥ - نهاية الرتبة في طلب الحسبة	الشيرازي
٣٦ - السلطان محمد الفاتح	محمد مصطفى صفوت
٣٧ - الإسلام والنصرانية .	الإمام محمد عبده
٣٨ - الرسالة الخالدة	عبد الرحمن عزام
٣٩ - الطب العربي	الدكتور أمين أسعد خير الله
٤٠ - الزهراء	محب الدين الخطيب
٤١ - ديوان التحقيق	محمد عبد الله عنان
٤٢ - خطط الشام	محمد كرد علي
٤٣ - الإسلام والحضارة العربية	محمد كرد علي
٤٤ - ماو ماو ثورة الأحرار	الدكتور راشد البراوي
٤٥ - أثر العرب في الحضارة الأوربية	عباس محمود العقاد
٤٦ - حضارة العرب	جوستاف لوبون
٤٧ - الفنون الإسلامية	م. س. ديماند
٤٨ - تاريخ العرب العام	سيديو
٤٩ - تراث الإسلام	مجموعة من المستشرقين
٥٠ - الدعوة الى الإسلام	أرنولد
٥١ - أهل الذمة في الإسلام	ا. س. ترتون
٥٢ - معالم تاريخ الإنسانية	ج. هـ . ويلز
٥٣ - مصرع الديمقراطية في العالم الجديد	ألبرت ا. كان
٥٤ - المسؤولية والجزاء	الدكتور وافي

الفهرس

كتب للمؤلف

أحكام الصيام وفلسفته
أخلاقنا الاجتماعية
الاستشراق والمستشرقون
السنة ومكانتها في التشريع
السيرة النبوية
عظماؤنا في التاريخ
المرأة بين الفقه والقانون
من روائع حضارتنا
هكذا علمتني الحياة
هذا هو الإسلام
القلائد من فرائد الفوائد

رقم الإيداع 98/4946

الترقيم الدولي .I. S. B. N

977-5146-55-0

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع

مصر . القاهرة ١٢٠ شارع الازهر ص.ب ١٦١ الغورية

ت: ٢٧٠٤٢٨٠ـ٢٧٤١٥٧٨ـ٥٩٣٢٨٢٠ (٠٠٢٠٢)

فاكس: ٢٧٤١٧٥٠ (٠٠٢٠٢)